المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب والنقد والبلاغة

المقدمات في كتاب " العقد الفريد "
لـ ابن عبد ربه الأندلسي

دراسة تحليلية نقدية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب والنقد الأدبي

إعداد الطالبة :
سمية بنت عبد الهادي العمري
٤٢٦٨٠٠٢٢

إشراف الأستاذ الدكتور:
ناصر شبانة

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والتقدير:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للناس أجمعين نبينا محمد صلوات ربي وسلامه عليه تسليمًا كثيرًا وبعد ..

فلقد أنعم الله علي بإنجاز هذا العمل الذي ما كان له أن يكون لولا عناية **الله وتوفيقة ، ثم بمساعدة الجامعة الموقرة وأعضائها و منسوبيها ، لذلك يطيب لي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والعرفان لله عز وجل أولاً ، ولأسرة جامعة أم القرى ثانيًا لمنحها لي الفرصة لمواصلة دراستي ، وتيسير السبل التي تخدم البحث العلمي وتتعهده بالرعاية والاهتمام .**

وأتقدم بجزيل الشكر والتقدير لرئيس قسم الدراسات العليا في كلية اللغة العربية : سعادة الأستاذ الدكتور : عبد الله بن صالح الزهراني . وعميد كلية اللغة العربية : الأستاذ الدكتور : عبد الله الزهراني .

كذلك أتقدم بخالص الشكر والتقدير لسعادة الأستاذ الدكتور : ناصر شبانة ، المشرف على الرسالة ، الذي لم يدخر في سبيل انجاز هذا البحث و تمامه وقته وجهده ، فجزاه الله عني كل خير .

والشكر والتقدير للأستاذين الفاضلين ، سعادة الأستاذ الدكتور : **مصطفى عناية ، والدكتورة : مريم القحطاني ، على تفضلهما لمناقشة الرسالة ، ولما سيتعهدانه لها من التوجيه والتصويب ، راجيةً لهما من الله التوفيق والسداد .**

وكذلك الشكر موصولاً إلى كل القلوب الخالصة التي رافقتني أثناء الكتابة ، متمثلة بقلوب والديّ وإخوتي وأخواتي ، وأقربائي ، وصديقاتي الحميمات ، فلن أنسى فضلهم عليّ أبدًا ، وجزيتم عني خير الجزاء .

والله الموفق إلى كل خير....

المقدمـــة :

الحمد لله الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء ، الذي بنعمته تتم الصالحات، وتحل البركات وتنشر الرحمات، أحمده جل في علاه على عظيم فضله ، وجليل نعمائه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، الداعي إلى الفضيلة ،الهادي إلى البصيرة، محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه تسليماً كثيراً، وبعد....

إن موضوع البحث (**المقدمات في كتاب العقد الفريد**) هو دراسة تعقد لواءها في مقدمات "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي ، الذي عني بتقديم كل ما هو ممتع وثري مما تخيره من جم علومه ومعرفته في كتابه،وقد عمد إلى تجزئة كتابه إلى خمسة وعشرين كتاباً،كل كتاب يحمل اسم جوهرة من الجواهر ، تتراصف فيما بينها مكونةً عقداً ثميناً، فكان تبعا لذلك أن تصدرت الكتب "مقدمات نثرية" تحمل كل منها اسم جوهرة من الجواهر، وكل مقدمة جوهرية مكملة لما قبلها،ومتصلة بما بعدها، وفي ثنايا الإكمال والاتصال تتوزع الأبواب ، وتتنوع الموضوعات بين السلطان والحروب والوفود ،والأمثال والتعازي والمراثي ،وكلام العرب وخطبهم وأنسابهم وأيامهم، وغير ذلك ، فكان الاعتناء بما أرادت المقدمات أن تلفت الانتباه إليه من خلال تمهيدها وطرحها في عرضها أمراً جديراً بالدراسة والبحث.

وتنبه النقاد القدماء إلى أهمية المقدمات ، فتناولوا الابتداءات والمطالع بالدراسة والبحث ، فهذا تقي الدين الحموي يتناول مصطلح " حسن الابتداء " في كتابه " خزانة الأدب وغاية الأرب" ، وشهاب الدين النويري الذي تناول مصطلح " حسن الابتداءات " في كتابه " نهاية الأرب في فنون الأدب " ، ونجد عند أبو هلال العسكري عنواناً آخر في كتابه " الصناعتين " هو " ذكر مبادئ الكلام ومقاطعه " .

وأيضًا عند ابن رشيق في كتاب " العمدة " باب المبدأ والخروج والنهاية ، وغيرهم .

و لم يخفى على النقاد المحدثون أهمية دراسة ما يحيط متن النصوص مما يسمى "العتبات النصية" فراحوا يدرسون ما يسمونه "النص الموازي" من عناوين وإهداءات ومقدمات لها علاقة بمتن النص؛ من حيث إنها قد تضيء فكرة النص ، وتوضح منهج المؤلف أو رؤية المبدع، و تنبع أهمية هذا البحث من كونه يأتي في هذا السياق النقدي ،الذي يتقصد جلاء

فكرة العتبة النصية من خلال المقدمات النثرية التي تصدرت موضوعات كتاب " العقد الفريد" وأبوابه، مما يشير إشارة واضحة إلى أن المصنفين من أجدادنا لم يهملوا هذه القضية ، بل تنبهوا إلى ضرورة التمهيد للدخول إلى النص بمثل هذه "العتبات النصية" .

وقد تعددت الأسباب الدافعة لتناول هذا الموضوع ومن أهمها :

١- إن كتاب "العقد الفريد" على كثرة الدراسات التي دارت حوله ، لم يحظ بمثل هذه النظرة النقدية التي تحاول جلاء الأمر ، فلم تتناول الدراسات السابقة المقدمات و لم تتعرض لها بالدراسة والنظر، ومما لا شك فيه أن لتلك المقدمات دلالات على المتن، وإشارات إلى المنهج، وتدرجاً بالقارىء للدخول إلى الموضوع .

٢- التداخل البحثي في مصطلح "العتبات النصية"بين النقد الأدبي الحديث والأدب القديم ، وإثبات حقيقته في المنبع والمصب، وجدة المصطلح لا تلغي تجذره في الأدب القديم .

٣- مدارسة النقاد الوظائف المقدماتية التي انفردت بها الرواية الأدبية ، وكان في هذا البحث مدارستها في اتجاه آخر حين يستند إلى كتاب من أمهات الكتب وهو" العقد الفريد " .

٤- تهدف الدراسة من خلال المقدمات النثرية إلى كشف جماليات الأسلوب الأدبي للمصنف، والقيمة الأدبية في التأليف الأدبي من " النثر التأليفي"و تعكس صورة النثر الأدبي في الأندلس.

٥- دراسة البناء الفني للمقدمات النثرية ومقايسة ذلك البناء بتلك الأبنية النثرية في العصر الأندلسي.

٦- الفائدة من وقوع المقدمات قبل المتن وفائدة التنويرات الإيضاحية التي يودعها الكاتب في ثنايا مقدمته .

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة ، فقد كان الاعتماد على عدد من المؤلفات، التي تناولت النثر الأدبي في الأندلس توصيفاً وتجسيدًا ، وهي في ذلك التناول تخدم البحث من حيث الإلمام بالسمات الأدبية النثرية في الأندلس ، ولكنها لا تتناول العقد تناولاً يلامس جوانب المقدمات ، بل تتنوع بين دراسة السيرة الذاتية لابن عبد ربه الأندلسي ، أوتتمثل بالمؤلِّف والمؤلَّف في فن أدبي ما ، أو ظاهرة من الظواهر النثرية الأدبية ، أو تتعرض بالتحليل " للعقد الفريد" من حيث العنونة و المنهج والأسلوب الكتابي .

ومن هذه الدراسات التي لا شك في إفادتها للبحث :

١- عبد العزيز عتيق ، **الأدب العربي في الأندلس** ،دار النهضة العربية،(بيروت-ط٢-١٩٧٦م) .

يتناول الكتاب الأدب الأندلسي تناولاً يستظهر حركة النثر الأندلسي وأنواعه وفنونه، منذ دخوله بلاد الأندلس متشكلٌ بتشكل الأدب المشرقي إلى أن تغير و تطور على يد أدبائه ، الذين صنعوا منه نثراً أندلسياً مضاهياً للأدب المشرقي .

٢- مصطفى سيوفي، **ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري** ، عالم الكتب ، (بيروت- ط١- ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

كشفت الدراسة النقدية ملامح التجديد في الفنون النثرية إبان دخولها البلاد الأندلسية ، ومن خلال هذه المكاشفة يلمع اسم العقد على أنه الكتاب الذي عرض نفسه أمام التجديدات بما فيه من الخاصية والأسلوب .

٣- أحمد ضيف ، **بلاغة العرب في العصر الأندلس** ، دار المعارف ، (تونس- ط٢-١٩٨٩م) .

قدمت الدراسة سيرة ذاتية عن حياة ابن عبد ربه الأندلسي من حيث الاسم، والنشأة ، والمكانة العلمية و الأدبية ، وجاء فيها كتابه الفذ "العقد الفريد" وطريقة تقسيمه ، والموضوعات التي ضمنها ، وأسلوبه ، والمآخذ التي أخذت عليه ، ولم يذكر شيئاً عن تصدر الموضوعات المعنونة بمقدمات نثرية .

٤- مصطفى الشكعة،**الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه**، دار العلم للملايين، (بيروت- ط١٠-١٤٢٠أو١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) .

كانت الموشحات من أهم الموضوعات التي ذكرت في الكتاب ، ويلمع من بين سطورها ذكر الأندلسي الذي ابتدعها ، وكان ذكره ذكرًا سريعًا يرافقه اسم مؤلّفه "العقد" ، الذي لا يقل عنه سرعةً في الذكر .

٥- شوقي ضيف ، **عصر الدول والإمارات** (الأندلس) ، دار المعارف ، (القاهرة- ط٣ – ١٩٨٩م).

حيث استفاد البحث من هذه الدراسة في التعرف على الحياة الأندلسية ، وتناوله لابن عبد ربه وكتابه العقد .

إن تحرير مصطلح "**العتبات النصية**" يجعل الدراسة تعتمد على عدد من المراجع في مقدمتها:

١- عبد الحق بلعابد،**عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص،** تقديم سعيد يقطين، منشورات الاختلاف (الجزائر- ط١-١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) .

٢- عبد المالك أشهبون،**عتبات الكتابة العربية في الرواية العربية،** دار الحوار، (سورية- ط١-٢٠٠٩م).

٣- شعيب حليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة،(الدار البيضاء- بدون ط-١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م) .

سعت الدراسات السابقة إلى دراسة الوظائف المقدماتية وفائدتها في إضاءة النص الأصلي للعمل الأدبي الروائي، وقد درس البحث هذه الوظائف المقدماتية وأهميتها الفاعلة في إضاءة جوانب النص من خلال مقدمات العقد الفريد، وفائدتها الإثرائية لمتن الكتب التي قدمت لها، ويكون بذلك مغايراً في تطبيقه المنهجي لتلك الدراسات التي عكفت على دراسة المقدمة النثرية المصاحبة للعمل الأدبي في الرواية .

يعتمد البحث في دراسته المنهجية على مبادئ السيميائية في إضاءة المقدمات النثرية بشقيها المضموني والفني، إذ يبتدئ بالدراسة التنظيرية لمفهوم "**العتبات النصية** " ، ثم توصيف النصوص المقدماتية من خلال المضامين مع التحليل والتعليل ، وتفسير الظواهر ، وبيان دورها في الارتقاء بالعتبة النصية ، كل ذلك في إطار من المقايسة ما بين هذه المقدمات من جهة والعصر الأندلسي من جهة ثانية، وفي مرحلة ثالثة الدراسة التحليلية النقدية للبناء الفني وسماته الشكلية

يقوم البحث ببيان أهمية المقدمات وخصوصيتها الوظيفية للنص الأدبي على تمهيد وثلاثة فصول.

أما التمهيـــد فيتناول قضيتين رئيستين للبحث ، وهوفي تناوله يكثف المعنى بأوجز العبارة، ويفصل القول بأقصر الألفاظ ، وهي في طبيعتها مكاشفة نصية عن كل ما يدور في فلكها التأليفي ، وهذه القضايا هـــي :

أولا– المــؤلـــــــف :

يتناول التمهيد المؤلف الذي هو: ابن عبد ربه الأندلسي من حيث اسمه ، ونسبه، ومولده ونشأته ،ووفاته .

ثانياً– الكتـــاب (المــؤلَف) :

وهو كتاب" **العقد الفريد**" الذي عد من أمهات الكتب ، وبيان سبب تسميته وطريقة تقسيمه ، ومنهجه ، وطبعاته المنشورة .

وقد ذكر أحمد هيكل في كتابه " الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة " (١) أن النثر انقسم التأليف فيه إلى قسمين هما: النثر التاريخي والنثر التأليفي، وانقسم الأخير إلى نوعين هما : التأليف التأريخي والتأليف الأدبي ، وعد التأليف الأدبي خير ما يمثل التأليف في كتب الأدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكلمة أدب، إذ يهدف إلى التثقيف والتهذيب بما يحتويه من الأخبار والأخلاق والأشعار والقصص وهذا ينطبق على كتاب العقد الفريد الذي ضمنه مؤلفه ما لا يقل تهذيباً وخلقاً عن ذلك .

فأما الفصل الأول فيتضمن ثلاثة مباحث من شأنها أن تضيء جوانب المصطلح ، إذ يقرر في مبحثه الأول مفهوم العتبات النصية في اللغة والاصطلاح وأقسامها وأنواعها ومبادئها. و المبحث الثاني يرصد حركة الأدب القديم والحديث من خلال النظرية النقدية وتوجيهاتها النقدية للكتابات النثرية، وهي نظرية تصاعدت بمفهوم العتبات حين أشارت إلى ضرورياته في الأدب ، وأن لدلالاته مغزى تتصيده النفس من محيط الكتاب ، وقد تناول في ثناياه عتبة العنوان وعتبة الإهداء كنموذجين على تلك البؤرة النقدية التي ينظر منها الناقد في كتابات الأديب .أما المبحث الثالث فقد فصل القول في أهمية دراسة عتبة المقدمة للنص ، فيبدأ بتعريف المقدمة لغة واصطلاحاً، وأنواع الاستهلال ، ثم الوظائف المقدماتية التي تهمس في أذن قارئها عن مكامن فائدتها ، وتزوده بمفاتيح النص المستغلقة على معانيها، وتكشف له الأسرار ، وتلم بشتات الأفكار، وقد أردفت مقدمات أدبية على الوظائف المقدماتية كمثال تطبيقي تتبدى فيها ملامح الوظيفة وحيثياتها .وفي ختام الفصل كان الحديث مفصلاً عن

---

(١) ينظر : أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف (القاهرة _ط٧ _١٩٩٣م) ، ص : ٢٤٧–٢٢٦ .

المقدمات وتصورات النقاد فيه، وهو حديث يحمل عنوان" الاستهلال بين الغياب والحضور" ، فالتصورات تعتمد على تصور خاص بالمناط التأليفي للمقدمة، وأهميتها الموضعية، ومكاشفتها النصية .

وأما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان "**مضـــامين مقـــدمات العقد الفريد**" إذ يكشف الفصل عن أن المضامين التي تدور حولها النصوص المقدماتية تتحرك في أبعاد ثلاثة ، هي في حقيقتها أصداء اجتماعية ومخاوف سياسية وانعكاسات أدبية لذلك العصر الأندلسي ، ويحاول هذا الفصل من خلال مباحثه الأدبية والسياسية والاجتماعية تحليل النصوص وتفسير الظواهر وتعليل الأسباب من دلالات النصوص وإيحاءات الشواهد والأخبار في المقدمات النثرية ؛ ليكون كاشفاً عن أهمية عتبة المقدمات في الكشف عن جوانب التأليف ، وأنها نصٌ مصاحب لها من التوثيق ما للنص الأصلي . أما المبحث الأول فيجد بغيته في تلك المقدمات النثرية التي تحمل قالباً أدبياً أو نقدياً، تنسجم بين حروفه تناغمات الشعر والنثر الأندلسي والمعايير النقدية ، لذلك كان الحديث عن الفنون الأدبية ومدى حاجة المجتمع إلى هذه الأنواع من خلال ومضات النصوص المقدماتية، وينقسم إلى عدة محاور هي:

١- المنثور: حيث يتناول الخطب وأنواعها ، و الأمثال ، و المواعظ ، و الرسائل و التعازي والمراثي، و حسن التنصل .

٢- المنظوم : ويقوم على دراسة تحليلية للأبيات التي تناولتها المقدمات.

٣- البيان: ويتحدد في دراسة البلاغة ، بيان العبارة ، أدب الجدل .

٤- النقد الأدبي:يقف على الملامح النقدية في المقدمات النثرية وهي اللفظ والمعنى والحكم النقدي .

أما المبحث الثالث بعنوان " **المضامين السياسية**" ففيه توثيق للأوضاع السياسية، وتجسيد للظروف الحربية، وتصوير للأجواء النفسية ، و تقريب المسافة للبلاط السلطاني بالأندلس ، فيبدأ بالسلطان وماله وما عليه ،ثم بالشخصية السلطانية وما يتصل بها من الألقاب و الطريقة السياسية في الحروب وغيرها، و كذلك مايتصل بالبلاط السلطاني ممن هم عون للخليفة من الكتاب والحجاب ، ثم الحديث عن الأوضاع السياسية في الداخل والخارج ،ثم الأدوات

الحربية ،كل ذلك في حدود المفاهيم السياسية والدلالات السلطانية التي تنبثق من سطور المقدمات كعتبة تهدف إلى التوضيح قبل الشروع في قراءة الكتاب .

أما "**المضامين الاجتماعية** " فهي عنوان المبحث الثالث الذي يندرج فيه كل ما له صلة بالبيئة المجتمعية والحياة المعيشية التي يزاولها سكان الأندلس، ومن خلال المقدمات تتعمق الرؤية و تتضح المفاهيم الأخلاقية والعلمية والدينية ، لتدل على سيادة دين أو انبثاق فكر أو توصيف لفن من الفنون ، ومن أهم المضامين الاجتماعية في المقدمات مايلي .

١- عناصر الشعب الأندلسي .

٢ - الأديان والعقائد .

٣ - الناحية العلمية .

٤ - العادات والتقاليد التي تتضح في : الأخلاق ، و أوقات الفراغ ، والنعمة والسرور .

٥- الطبيعة البيئية .

جاء الفصل الثالث بعنوان "**البناء الفني للمقدمات**" ويبحث في الخصائص الفنية للمقدمات ، فالمقدمة النثرية تتجسد فيها الخصائص الفنية العامة للعصر الأندلسي وتبرز سمات الكاتب الخاصة به في كتاباته ؛ ليكونا معاً قالباً فنياً خاصاً بمقدمات العقد الفريد . فالمبحث الأول يصف البناء ، وهو وصف تحليلي نقدي لمكونات البناء : مقدمة — عرض — خاتمة .

ينفرد المبحث الثاني بدراسة " السمات الفنية للمقدمات " و التي تجلت في مقدمات " العقد الفريد " وهي :

١- التعليق على العنوان .

٢- الاختلاف في أطوال المقدمات وفق مقصدية تأليفية .

٣- تكرار العنوان في المقدمة اللاحقة .

٤- التدرج الانتقالي بين عناصر البناء (مقدمة — عرض — خاتمة).

٥- كثرة الشواهد في المقدمات .

٦ — ذكره للخاص بعد العام .

٧ — العبارة الواضحة التي تؤدي معناها ولا تحتاج إلى التفسير .

٨ – الإيـــجاز.

٩ – استخدام الأساليب الإنشائية الطلبية .

١٠ – الصورة التشبيهية والاستعارية من محيط البيئة الأندلسية .

١١ – الجمل القصار المتتابعة و المتعاطفة .

١٢ – العناية باختيار الألفاظ الجزلة والمعاني الجليلة .

١٣ – التأثر بالأسلوب القرآني والنبوي في التأليف المقدماتي .

ثم دراسة الجوانب الفنية من خلال التقنيات الأدبية التي تتجلى في دراسة "الصورة الفنية "و " الألفاظ والتراكيب " و " التناص " ، وفي كل ذلك تقدم دراسة تقديمية من شأنها أن تقف على إسهامات العلماء في المصطلح حتى نما وتشكلت معالمه البنائية .

في دراسة الصورة الفنية تتجلى دراسة توضيحة للتشبيهات والمجاز والاستعارة والكناية ، يكون التطبيق فيها على نصوص من المقدمات النثرية .

وتنعقد دراسة الألفاظ والتراكيب من حيث السبك في ثلاثة أبعاد ، والسبك كما جاء في اللسان : ((سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب يسبُكه ويسبِكه سبكًا ، وسبّكه ذوبه وأفرغه في قالب .)) [1] ويتم دراستها دراسة توضيحية ثم التطبيق من خلال نصوص مقدمات العقد الفريد وهي :

أولاً _ عناصر السبك النحوي :

أ – الإحالة .

ب – الحذف .

ج – العطف .

د – الموازاة .

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر (بيروت _ ط١ _ بدون تاريخ) مادة : سبك .

ثانياً – عناصر السبك المعجمي:

أ– التكرار .

ب ــ الترادف .

ج – المصاحبات اللغوية .

ثالثاً – العناصر الصوتية :

أ – السجع .

ب ــ الجناس .

ولا يبعد المبحث في دراسته للتناص عن منهجه في الدراسة للصورة الفنية والألفاظ والتراكيب ، إذ يقدم الدراسة التنظيرية لهما من التعريف بالمصطلح ، والاستدلال بالأدلة التوضيحية لهما ، والفائدة المرجوة عنهما، ثم الوقوف على مصادر التناص ، وشكليه البنائي والمضموني ، وتبحث في وجود تلك العلائق النصية بين " العقد الفريد" و" عيون الأخبار " ويتناول النصوص ويبحث فيها التناص المضموني بشقيه المباشر في الاستشهاد بالاقتباس والتضمين ، وغير المباشر في المعلومات التي حذى فيها ابن عبد ربه ابن قتيبة .

وختم البحث بخاتمة تضمنت أهم نتائج الدراسة ، تليه المصادر والمراجع المعتمد عليها ، وفهرس البحث .

وبعد ، فهذا جهد المقلّ الذي حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء ، فإن كان فيه ما ينفع فلله الحمد والمنّة ، وإن شابه التقصير والخطأ ، فذلك من نفسي الأمارة بالسوء، والله الهادي إلى سواء السبيل .

التمهيد

التمهيد :

إن ابن عبد ربه الأندلسي ((عالم ساد العلم ورأس ، واقتبس من الحظوة ما اقتبس، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرر الذكاء فكره ، وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية له متسقة.)) [1] وتتجلى هذه العناية في كتابه العقد ، الذي جمع فيه من الأخبار ، والأحداث والقصص ، ما جعل كتابه (العقد) موئلاً لطلاب العلم والدارسين .

فالتمهيد يقف وقفةً وجيزةً على حياة ابن عبد ربه ، وعلى كتابه " العقد الفريد ".

أولاً : المؤلف :

اسمه ونسبه : [2]

هو أحمد بن محمد بن عبدربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، يكنى بأبي عمر.

مولده ونشأته :

ولد ابن عبد ربه في العاشر من رمضان ،سنة٢٤٦هـ،الموافق للتاسع والعشرين من نوفمبر عام ٨٦٠م،ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس بها

---

(١) .ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحـ : محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) ص : ٢٧٠ .

(٢) .تعددت المصادر الأدبية والتاريخية التي تناولت حياة ابن عبد ربه ، ومنها :

- ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، تحـ : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص : ١/٨٧ .
- الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي (بيروت ، بدون ط،١٩٦٧م) ص: ١٤٨.
- الحميدي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون ط ،١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ص:١٠١
- خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين (بيروت ، ط١٥، ٢٠٠٢م) ص١/٢٠٧.

مختلف العلوم من:فقه،وتفسير،وحديث ونحو وعروض على أيدي علمائها ،كما قرأ رسائل المحدثين من المشارقة ، وكان من المكثرين من المحفوظات ، والاطلاع على أخبار الناس، وكان شاعراً مطبوعاً،فقد وصفه المتنبي بمليح الأندلس ، وقال فيه : ((يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبواً .)) (١)

حظي بمكانة عالية عند خلفاء بني أمية في الأندلس ، إذ لازم الأمير عبد الله ومدحه بمدائح عدة،وبعد وفاته سنة ٣٠٠هـ،لازم الأمير عبد الرحمن الناصر ومدحه،ووضع له أرجوزةً في مغازيه ، وذكر فيها أحداث كل سنة حتى سنة٣٢٢هـ.

تلقى تعليمه على أيدي علماء بلاده ، وأشهر شيوخه أربعة : الخشني ، و ابن وضاح و تقي بن مخلد ، و عثمان بن المثنى .

قال فيه الحميدي : ((وكان لأبي عمر بالعلم جلالة ، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانته وصيانته ، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نَفاق ، فساد بعد خمول ، وأثرى بعد فقر ، وأشير بالتفضيل إليه ، إلا أنه غلب الشعر عليه.)) (٢)

وقال ابن تغري بردي: ((كان أديب الأندلس وفصيحها ، مدح ملوك الأندلس،وكان صدوقاً ثقةً.)) (٣)

عرف – رحمه الله – بحبه للغناء ، والطرب، وميله لأشعار الغزل، والمجون، ودون مجموعة من هذه الأشعار في كتابه العقد ، وكان قد ألف شعراً في فتى كان يألفه ، عزم على الرحيل ، فمنعه المطر من السفر، فكتب ابن عبد ربه إليه: (٤)

هَلاَّ ابْتَكَرْتَ لِبين أَنْتَ مُبْتَكِرُ ... هَيهَاتَ يَأْبَى عَلَيْكَ اللهُ وَالقَدَرُ

مَازِلْتُ أَبْكِي حِذَارَ البَين مُلْتَهِفًا ... حَتَّى رَثَى لِيَ فِيكَ الرِّيحُ والمَطَرُ

---

(١).الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، مطبعة السعادة (مصر _ط٢٦ _ ١٣٨٥هـ) ص : ١٧٥/٢.

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، مصدر سابق ، ص : ١٠١.

(٣) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (بيروت بدون ط _ ١٤١٣هـ /١٩٩٢م) ص : ٣٢٨/٣.

(٤) ديوان ابن عبد ربّه ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة (بيروت _ط١ _ ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص : ٧٠ .

يَا بَرْدَهُ مِنْ حَيَا مُزْنٍ عَلَــى كَبــدٍ   نيرَانُهَا بغَلِيـــــل الشَّــوق تَسْــتَعِرُ
آليـــتُ ألاَّ أَرَى شَمْسًا ولا قَمَرًا   حَتَّى أَرَاكَ فَأَنتَ الشَّـــمْسُ وَالقَمَـــرُ

لكنه في آخر حياته تاب إلى الله ، وترك ما هو عليه من حياة اللهو،والتفريط ، ونقض أشعاره وقصائده التي قالها في الغزل بأشعار وقصائد في الزهد سماها بالممحصات ، ولعل إصابته بالفالج كانت السبيل إلى توبته.

يقول المقري: [(١)]((وفي أيام إقلاعه عن صبوته،وارتجاعه عن تلك الغفلة،وأوبتـــه، وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته،محص أشعاره في الغزل بما ينافيها ، ونصل مـــن قوادمها وخوافيها بأشعار في الزهد ، على أعاريضها وقوافيها ، منها القطعة الأولى الـــتي أولها : " هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر")) محصها بقوله:

يا رَاقِدًا لَيسَ يَعْفُو حِـــينَ يَقْتَـــدِرُ   مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْب الـــرَّأَس تَنْتَظِـــرُ
عَـــاينْ بقَلْبكَ إنَّ العَـــيْنَ غَافِلَـــةٌ   عَـــن الحَقِيقَةِ وَ اعْـــلَمْ أَنَّهَا سَـــــقَرُ
سَودَاءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْظٍ إذا سُـــفِرَتْ   للظَّـــالِمِينَ فَـــلاَ تُبْـــقِي ولاَ تَـــــذَرُ
لَو لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرَ المَوتِ مَوعِظَةٌ   لَكَـــانَ فِيهِ عَـــن اللَّـــذَاتِ مُزْدَجَـــرُ
أَنْتَ المَقُولُ لَهُ مَا قُـــلْتُ مُبْتَدِئًا   هَـــلاَّ ابْتَكَرْتَ لِـــبَين أَنْتَ مُبْتَـــكِـــرُ

ويمضي ينظم الشعر خلال زهده وتوبته وأثناء انقطاعه إلى تصنيف موسوعته الخالدة العقد،إذ يقول في الزهد: [(٢)]

أَلاَ إنَّمَا الـــدُّنيَا نَضَــــــارَةُ أَيكَـــةٍ   إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانبٌ جَفَّ جَانـــبُ
هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إلاَّ فَـــــجَائِعٌ   عَلَيْهَا وَلاَ اللَّـــذَاتُ إلاَّ مَصَــــائِبُ
فَكَمْ سَخِنَتْ بالأَمْس عَيْنٌ قَريـــرَةٌ   وَقَرَّتْ عُيونُ دَمْـــعُهَا اليَومَ سَـــاكِبُ
فَلاَ تَكْتَحِلْ عَيْنَاكَ فِيهَا بعَـــــبْرَةٍ   عَلَى ذَاهِـــب مِنْهَا فَإنَّـــكَ ذَاهِـــــبُ

---

(١) التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحـــ:إحسان عباس،ط دار صادر (بيروت ، ١٣٨٨هـــ – ١٩٦٨م) ص : ٢٦٣/٩. ، ورد البيت الأول بخلاف ذلك : يا راقدًا ليس يَعْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ   ولاّ يُقَضَّى له مِنْ عَيشِهِ وطَرُ
ديوان ابن عبد ربّه ، مصدر سابق ، ص : ٧٠ .

(٢)الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقـــيق :مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت _ ط الأولى _١٤٠٣هـــ / ١٩٨٣م) ، ص : ٩/٢.

مدح الأمراء الذين عاصرهم من بني مروان وهم : محمد ، والمنذر ، وعبد الله ، وعبد الرحمن الناصر ، وفي ذلك يقول الحميدي بعد ذكره للأمراء الممدوحين منه :

((هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر ، وخطه حجة عند أهل العلم عندنا.)) (١)

بقي بقرطبة رئيساً سيداً حتى أصيب بالفالج ، وقد خلّف ديوان شعر مطبوع وكتاب اللباب ، والكتاب الخالد الذي رفع رأس الأندلس "العقد الفريد"، وقد جمع فيه أخبار المشرق ، وكتّابه،وأدبائه ؛ ليتحف بها وطنه،إلا أن اشتهاره وجزالة فائدته جعلاه مرجع أهل المشرق ، حتى عدوه من أركان الأدب عندهم ، فأقبلوا على دراسته بشغف.

ويلاحظ أنه في شعره لا يلتزم اتجاهاً واحداً ، وإنما يسير في اتجاهات عدة ، ولكن بلا فقدان لشخصية الشاعر،أو انمحاء لملامحه الخاصة،بل ببروزها في شخصيةٍ متميزةٍ واضحةٍ.وفي معاصرته للمدارس ، ومشاهدته للاتجاهات ، إضافةً إلى تتبعه للأساليب ، وحبه للقراءة كونت لديه حصيلة أدبية غنية ، تصب في قالب شخصيته الأدبية ؛ لتصنع ملكة فنيةً مبدعةً ومبهرةً . (٢)

وفاته:

أصيب ابن عبد ربه في آخر حياته بالفالج ، ثم توفي في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة٣٢٨هـ ، الموافق للثالث من مارس عام ٩٤٠م.

وقال أبياتاً قبل موته بأحد عشر يوماً، وهو آخر شعر قاله وفيه بيان عمره: (٣)

كِلاَني لِمَا بي عَاذِلَيَّ كَفَانِي ... طَوَيْتُ زَمَانِي بُرْهَةً وَطَوَانِي

بَلِيتُ وَأَبْلَتْنِي اللَّيَالِي وَكَرُّهَا ... وَصَرْفَانِ لِلأَيَّام مُعْتَوِرَانِ

وَمَا لِيَ لاَ أَبْلَي لِسَبْعِينَ حُجَّةً ... وَعَشْر أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ

فَلاَ تَسْأَلاَني عَنْ تَبَاريح عِلَّتِي ... وَدُونَكُمَا مِنِّي الَّذِي تَرَيَانِ

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللهِ رَاجٍ لِفَضْلِهِ ... وَلِيَ مِنْ ضَمَانِ اللهِ خَيْرُ ضَمَانِ

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس، مصدر سابق ، ص : ١٠١ .

(٢) ينظر: أحمد هيكل ،الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف (مصر ، ط٧ ، ١٩٩٣م) ص : ٢٢٥

(٣) ديوان ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ص : ٢١ .

وَلَسْتُ أُبَالِي عَنْ تَبَــاريح عِلَّتِــي إذَاَ كَـــانَ عَقْلِــي بَاقِيـــاً ولِسَــــــانِي
هُمَا ماهُمَا في كُلِّ حَالٍ تُلِـــمُّ بِــي فَذَا صَـــــــارِمي فِيهَـــا وَذَاكَ سِـــنَانِي

إن الأبيات تعكس ما كان عليه ابن عبد ربه من صبر على مرضه ، وثقة برحمة الله - رحمه الله رحمةً واسعة - .

ثانـــياً: كتاب العقد الفريد.

يعد الكتاب من أمهات كتب الأدب ؛ إذ إنه حوى مجموعةً كبيرةً من الاختيارات في الأخبار، والأشعار، والقصص مزودة بأشعارٍ للمصنف ، واسم الكتاب -كما سماه مؤلفه- العقد ، أما لفظ الفريد فقد أضافه النساخ المتأخرون ، وعليه فإن أكثر المصادر التي تحدثت عن ابن عبد ربه تعرفه بصاحب العقد دونما ذكر للفظ (الفريد) [(١)] إلا عند جماعة كالأبشيهي في كتابه " المستطرف في كل فن مستظرف " [(٢)]، والبغدادي في كتابه "خزانة الأدب " [(٣)]، وغيرهما.

وقد اعتمد - رحمه الله - على كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة في تصنيفه ، فسار على ترتيبه وتبويبه ، ونقل كثيراً من مضمونه دون عزو ذلك إليه ، وهذا مأخذ يؤخذ عليه ، يقول أحمد أمين في تقديمه لكتاب العقد الفريد : ((تأثر ابن عبد ربه كثيراً بكتاب ابن قتيبة "عيون الأخبار" واستغله أعظم استغلال سواء في ترتيبه وتبويبه أو في مشتملات أبوابه ، ولكنه غمطه حقه في التصريح بما أخذ عنه إلا في القليل النادر.)) [(٤)]

إن ابن عبد ربه إستفاد من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة في منهجه و تبويبه

---

(١)ينظر المراجع السابقة التي ترجمت لابن عبد ربه.

(٢) الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحـــ:مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت، ط٢، ١٩٨٦م) ص: ٩/١.

(٣) البغدادي ،خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحـــ: محمد نبيل طريفي ، أميل اليعقوب ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١، ١٤١٨هــ/١٩٩٨م) ، ص : ١٤٦/٢ .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحــ : أحمد أمين ، ابراهيم الأبياري ، عبد السلام هارون ، قدم له عمر عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي (بدون ط ـ١٤٠٢هـــ١٩٨٢م) ، ص : ٩ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣.

لأبوابه وتقسيم الكتاب إلى كتب في السلطان والحروب وغيرها ، لكنه خالفه في بعض أسماء الكتب واستبدلها بغيرها ، من ذلك كتاب "الجوهرة في الأمثال" (٥) وهو من الكتب التي لم يتناولها ابن قتيبة في كتبه ، إضافةً إلى استخدامه لأسماء الجواهر في التبويب ، فكان محاكيًا ومضيفًا في نفس الوقت . وقال بروكلمان : ((حاكى ابن عبد ربه كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وسطا على كثير من مضمونه دون ذكر مصدره .)) (١)

ولقد حوى أخبار المشرق فلما ذاع صيته، تطلع الصاحب بن عباد إلى قراءته، لكنه لما قرأه قال: ((هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شئ من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا،لا حاجة لنا فيه .)) (٢)

ويرى أحمد أمين أن هذا ليس عيباً على الكتاب ، فقد كان في الأندلس مدرستان إحداهما تعنى بالأدب الأندلسي ونشره وتدوينه،كما فعل المقري في "نفح الطيب" وابن بسام في "الذخيرة"، والأخرى تعنى بنقل أدب المشرق لأهل الأندلس،كما فعل القالي في كتابه الأمالي . (٣) وكتاب العقد كما قال عنه عمر فروخ : ((كتاب متعة ؛ يقرأ الإنسان فيه أخباراً طريفة ،حتى بلغت الحال بالمؤلف إلى أن روى أشياء من باب الخرافة ، ثم إن المؤلف جمع موضوعات مختلفة في كتاب واحد ، ولكنه أحسن تصنيف هذه الموضوعات وترتيبها وعرضها. وفي الكتاب نماذج جميلة من الشعر والنثر والأقوال ، ثم إن المؤلف قصد العبرة الحسنة ، والتهذيب الخلقي.)) (٤)

قسم ابن عبد ربه كتابه إلى خمسة وعشرين كتاباً، وشبهه بعقد يضم خمسة وعشرين حجراً كريماً، وأطلق على الباب الثالث عشر"الواسطة"باسم حجر واحد، إلا أنه أضاف إلى اسم كل كتاب بعد كتاب "الواسطة" لفظة الثانية،وقد سمى (اللؤلؤة) ، ثم (الفريدة)، ثم (الزبرجدة)، ثم (الجمانة)، ثم (المرجـــانة)، ثم(الياقوتة)، ثم (الجوهرة)

---

(١)كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، تحـــ: عبد الحليم النجار ، جامعة الدول العربية (القاهرة، ط٣- ١٣٩٤ هــ أو ١٣٩٥هــ /١٩٧٤م) ص : ١٤٠/٣.

(٢) ياقوا الحموي ، معجم الأدباء ، دار الفكر (بيروت ــ ط ٣ ــ ١٤٠٠هــ / ١٩٨٠ م) ، ص : ٢١٥/٤ .

(٣) ينظر: مقدمة المحقق في العقد الفريد ، ص : ٨ .

(٤) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف ، دار العلم للملايين (بيروت ــ ط٢ ــ ١٩٨٤ م) ص :٢١٢/٤.

ثم(الزمـــردة) ،ثم (الدرة)، ثم (اليتيمة)، ثم (العسجدة)، ثم (المجنبة)، ثم تأتي (الواسطة) في الوسط وهي الثالثة عشرة ، وبعدها تأتي (المجنبة الثانية) ، ثم (العسجدة الثانية) ، ثم (اليتيمة الثانية) ، وهكذا على أن تقابل جميعها نظائرها في ما قبل الواسطة . [١]

وقد أوضح منهجه في مقدمة كتابه إذ يقول : ((ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهرة الجواهر، ولباب اللباب وإن مالي فيه هو تأليف الاختيار، وحسن الاختصار، وفرش لدرر كل كتاب، وماسواه فمأخوذ من أفواه العلماء،ومأثور عن الحكماء والأدباء .)) [٢] كذلك قوله: ((وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز، وهرباً من التثقيل و التطويل؛لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر،لا ينفعها الإسناد باتصاله،ولا يضرها ما حذف منها.)) [٣]

((ولقد حرص على تزيين كتبه بشواهد شعرية، تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقها في مذهبها ، إضافةً إلى شواهد شعرية من نظمه وتأليفه،وقد سماه بالعقد؛ لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام.)) [٤]

وقد نشر الكتاب في بولاق (المكتبة الأميرية) ١٢٩٣هـــ القاهرة ، (المطبعة العثمانية) ١٣٠٢ هـــ ،(مطبعة إبراهيم عبد الرازق) ١٣٠٢هـــ، (المطبعة الشرقية)١٣٠٢هـــ، (مطبعة مشرف) ١٣٠٥هـــ، القاهرة ١٣١٤_١٣١٦،(المطبعة الازهرية) ١٣٢١هـــ القاهرة، (المطبعة الجمالية)١٣٣١هـــ-١٩٣١م، القاهرة١٩٢٨م ، (١٣٤٦-١٣٤٧هـــ) (مصطفى محمد) ١٣٥٣هـــ-١٩٣٤م ، (تحرير أحمد أمين - أحمد زين - إبراهيم الأبياري) القاهرة ، (لجنة التأليف والنشر) ١٣٥٩هـــ١٩٤٠م ، وما بعد (تحقيق محمد سعيد العريان) القاهرة١٩٤٩م (١٣٦٨هـــ) ، (الطبعة الثانية) ١٩٥٣م ، ١٣٩٣هـــ ١٩٧٢م (تحقيق عبد الستار فراج) ، القاهرة لجنة التأليف والنشر الطبعة الثانية ١٣٦٧هـــ =١٩٤٨م . [٥] وكان الاعتماد على (دار الكتاب العربي) تحقيق : أحمد

---

(١) ينظر مقدمة المؤلف ، العقد الفريد ، ص : ١٨- ١٩

(٢) السابق نفسه ، ص :١٦.

(٣) السابق نفسه ، ص :١٧.

(٤) السابق نفسه ، ص :١٨.

(٥) عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، مصدر سابق ، ص٤/٢١٩ -٢٢٠ .

أمين وعبد السلام هارون و ابراهيم الأبياري ، ١٤٠٢ هـــ -١٩٨٢ م .

الفصل الأول

العتبات النصية

- المبحث الأول : مفهوم العتبات النصية
- المبحث الثاني : العتبات النصية في الأدب بين القديم والحديث .
- المبحث الثالث : العتبة والنص (دراسة في أهمية العتبة للنص)

المبحث الأول : مفهوم العتبات النصية

إن العلاقة بين المقدمات والعتبات النصية علاقة حميمة ، إذ إن المقدمات جزء من كيان العتبات وآلية من آلياتها ؛ لذلك كان لابد من الوقوف على مفهوم العتبات وقوفاً يضيء جوانب المقدمات ، ويسعى إلى توضيح الرؤية المفهومية المقدماتية في ظل العتبات النصية ، لذلك انفرد هذا الفصل بالتوضيح المفصل ، والتفسير المأول لمفهوم العتبات في اللغة والإصطلاح ، ثم ببيان قيمتها الأدبية قديماً وحديثاً من حيث تتضح عند النقاد ، ومعايير النقد الأدبي ودوره في رصد الحركة الأدبية قديماً وحديثاً ، ثم أهمية العتبة النصية للنص الأصلي .

العتبة في اللغة :

العتبة أُسْكُفَّة الباب التي توطأ ، وقال : كل مرقاة من الدرج عتبة ، وكذلك العتب في الثنايا الشاقة ، واحدها : عتبة ، وقال ابن شميل : العتبة في الباب هي الأعلى ، قال : والخشبة التي فوق الأعلى : الحاجب . قال : والسكفة هي السفلى ، والعارضتان : العضادتان . ويقال : ما في طاعة فلان عتب ، أي : التواء ولا نبوة ، وما في مودته عتب إذا كانت خالصة لا يشوبها فساد ، ويقال : حمل فلان على عتبة كريهة ، وعلى عتبٍ كريهٍ من البلاء والشر . (1)

(1) أحمد محمد الأزهري ، أبو العباس ، تهذيب اللغة ، تحـ : أحمد مخيمر ، دار الكتب العلمية (بيروت – ط أولى – ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤ م) ص : ٩٦/٢ مادة (عتب) .

قال ابن السكيت في قول علقمة :   لاَ في شَظَاهَا ولا أَرْسَاغِهَا عَتَبُ . (١)

أي : عيب وهو من قولك : لا يتعتّب عليه في شيء .

ذكر ابن فارس (عتب) سميت بذلك لارتفاعها عن المكان المطمئن السهل ، وعتبات الدرجة : مراقيها . ويشبه بذلك العتبات تكون في الجبال ، والواحدة عتبة وتجمع أيضاً على عتب ، وكل شيء جَسَا وجفا فهو يشتق له هذا اللفظ . يقال للفحل المعقول أو الظالع إذا مشى على ثلاث قوائم كأنه يقفز : عتب عتباناً . قال الخليل : وهذا تشبيه كأنه يمشي على عتبات الدرجة ، فيترو من عتبة إلى عتبة . ويقال : عتّب لنا عتبة أي : اتخذها (٢).

والعتبة في لغة العصر الدارجة خاصةً بالباب ؛ أي مقدمته ، وهي بالعودة إلى أصول اللغة العربية موافقة لهذا المعنى ، وهي إن لم تذكر بلفظها صراحة في آيات القرآن الكريم ، إلا أن المفسرين فسروا بعض كلمات القرآن بالعتبة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ (٢)

قال الزمخشري : الوصيد : الفناء ، وقيل : العتبة ، وقيل الباب وأنشد : (٣)

بأرضٍ فَضَاءٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُهَا   عَليَّ ومَعْرُوفِي بِهَا غَيرُ مُنْكَرِ

---

(١)البيت من البسيط وعجزه : ولاَ السَّنابِكُ أَفْنَاهُنَّ تَقْلِيمُ .

أحمد السيد صقر ، شرح ديوان علقمة الفحل ، مطبعة المحمودية (القاهرة – ط١– ١٣٥٣هـ /١٩٣٥م) ،ص :٧٠

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر (بيروت – بدون ط –١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ص : ٢٢٥/٤ _٢٢٦ . (مادة عتب) .

(٢) سورة الكهف : آية ١٨.

(٣) أبو القاسم محمود الزمخشري الخوارزمي ، الكشاف عن حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق :عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربية (بيروت – ط أولى –١٤١٧هـ /١٩٩٧م) ص : ٦٦٢/٢ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٢٧.

(٥) أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تفسير ابن كثير ، دار الفكر (بيروت – بدون ط –١٤٠٤هـ١٩٨٤م) ص: ١٧٧/١.

وذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ و إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٤)((أن إبراهيم عليه السلام جاء بعد ما تزوج ابنه إسماعيل بامرأة من جرهم ، وكان قد تركهم في مكة – إسماعيل وأمه – و لم يكن بها أحد ، وعند مجيئه لم يجد إسماعيل عليه السلام ، فسأل عنه امرأته فقالت : خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له يغير عتبه بابه فلما جاء إسماعيل عليه السلام أخبرته الخبر فقال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، فالحقي بأهلك وطلقها وتزوج بأخرى .)) (٥)

ويقول سعيد يقطين في تقديمه لكتاب "عتبات " لجيرار جينيت : ((أخبار الدار على باب الدار .. يقول المثل المغربي ، ولا يمكن للباب أن يكون بدون عتبة ، تسلمنا العتبة إلى البيت ، لأنه بدون اجتيازها لا يمكن دخول البيت .)) (١)

إن في قوله تشبيه صريح للنص وما يحيط به بأنه كالدار وبابها ؛ إذ لا يمكن أن تنفذ إلى النص دون المرور بما يحيط به كالمقدمة والإهداء والعنوان ، كذلك الحال في تلك الدار التي لن تستطيع دخولها إلا بالوقوف على عتبة بابها .

النصية في اللغة :

من نصصت الحديث إلى فلان نصاً أي رفعته (٢) قال : (٣)

وَنُصَّ الْحَدِيْثَ إِلَى أَهْلِهِ فَإِنَّ الوَثِيقَةَ فِي نَصِّهِ

جاء في لسان العرب ((النص رفعك الشيء ، نص الحديث ينصه نصاً رفعه ، وكل ما أظهر فقد نص ، وقال عمرو بن دينار : ما رأيت رجلاً أنص للحديث من الزهري : أي أرفع له وأسند ، يقال : نصّ الحديث إلى فلان أي رفعه وكذلك نصصته إليه .)) (١)

---

(١).عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص ، تقديم د: سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ، منشورات (الجزائر ، ط أولى – ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م) ص : ١٣ .

(٢).الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كتاب العين ، ترتيب و تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية (بيروت – ط١ – ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م) مادة نص ، ص : ٢٢٨/٤.

(٣).أبو عمر طرفة بن العبد بن سفيان ، ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق محمد حمود ، دار الفكر اللبناني (بيروت ، ط أولى ، ١٤١٥هـ /١٤١٦هـ – ١٩٩٥م) .

وجاء في ديوان امرؤ القيس : [٢]

ومِنْهُنَّ : نَصُّ العِيسِ واللَّيلُ شَامِلٌ   يُيَمِّمَنَّ مَجْهُولاً مِنَ الأَرضِ بَلْقَعَا

فالمعنى اللغوي يدل على الإظهار والوضوح ، فكأن لمصطلح " العتبات النصية " أهداف إظهارية وتوضيحية لابد أن تستوضح وتستظهر قبل الشروع في النص الأصلي ، ثم إن الأصلَين اللغويَين يشيران إلى وجود علاقة تركيبية - غير أزلية- تنطلق من عالم الرفعنه (القدمية والقولية) إلى ما يحيط بفضاء المادة الخارجي ؛ لتكون ركيزة يلج بها إلى داخل فضاءه ، وساندةً له في فتح مغاليق أبوابها وترتيبات فصولها ، ومكاشفة بعضاً من أسرارها .

اختلف النقاد في وضع المصطلح النقدي الذي يصف مايحيط متن النصوص من العناوين والمقدمات والإهداءات ، وذلك راجع إلى اختلافهم في الترجمة القاموسية للمصطلح الفرنسي ((فهذا محمد الهادي المطوي يترجمه إلى (موازي النص) ، وأنور المرتجي (المابين نصية) ورشيد بنحدو (النصية المحاذية) ، وعبد العزيز شبيل (النص المصاحب) ومحمد بنيس (النص الموازي) ، وسعيد يقطين (المناص).)) [١]

المعنى الاصطلاحي :

يمكن تعريف " العتبة النصية " تعريفاً اصطلاحياً من خلال تطوير جينيت لمفهوم المناص ، فعرفه بأنه : ((كل ما يجعل من النص كتاباً يقترح نفسه على قرائه ، أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار ذو حدود متماسكة نقصد به هنا تلك العتبة)) [٢] وفي موضع آخر يقول : ((لا يمكن معرفة النص وتسميته إلا بمناصه ، إذ إنه نادراً ما يظهر عارياً عند عتبات لفظية أو بصرية (اسم الكاتب ، العنوان ، العنوان الفرعي ، الإهداء ، الإستهلال) .)) [٣] فذكره للعتبات في تعريفه للمناص يدل على تعامله مع المصطلحين على أنهما مصطلحان متوافقان .

قسم جينيت المناص إلى قسمين ، وهو في حقيقته تقسيم للعتبات النصية ، وهما : [٤]

١_ المناص النشري:

([١]) ابن منظور ، لسان العرب ، مراجعة وتصحيح لجنة من الأساتذة المتخصصين ، دار الحديث ، (القاهرة – ط١ – ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣ م) مادة نص .

([٢]) امرؤ القيس ، ديوان امرؤ القيس ، ضبطه وصححه : مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت – ط ٥ – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م) ، ص : ٩٩.

يدخل تحت هذا النوع العتبات ذات العلاقة بالنشر والطباعة ، فمنها ما يتصل بالكتــاب مباشرةً مكوناً نصاً نشرياً محيطاً ، ومنها مايتصل به إتصالاً خارجياً عنه غير مباشر له ، في الملاحق الصحفية ، وقائمة المنشورات وغيرها من الأنماط المحاذية للـــنص محـــاذاةً فوقيـــةً نشرية.

(١) عبد الحق بلعابد ، مقالة : " قصد رفع قلق المصطلح النقدي " مجلة علامات في النقد ،(مجلد ٥٨ ، م ١٥ ، ذو القعدة ١٤٢٦هـــ/ديسمبر ٢٠٠٥م) الصادرة عن نادي جدة بالمملكة العربية السعودية .

(٢) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ٤٤.

(٣) السابق نفسه ، ص : ٤٤ .

(٤) ينظر : السابق نفسه : ص : ٤٦_ ٤٨ .

٢_ المناص التأليفي :

هي العتبات النصية التي يؤلفها الكاتب لكتابه ، فإن كانت محيطة بمتن النص كالعتبات من العنوان والمقدمة والاهداء فهي نص من نصوص المحيط التأليفي ، وإن كان تأليف العتبات يتصل بالكتاب المؤلف لكن يقع في محيط خارج عنه فهو نصٌ فوقيٌ تأليفيٌ ، ويكون عاماً في العتبات النصية من الحوارات والمناقشات ، أو خاصاً في العتبات من المراسلات العامة أو الخاصة .

يقوم البحث في بيانه لأقسام المناص على النوع الأول من القسم الثاني ، فالمقدمات في كتاب العقد الفريد هي عتبة من العتبات النصية ، التي يتقصد المؤلف في تأليفه لها الإحاطة بالمتن ، وهو تقصد يوضح الفائدة من المناص التأليفي عامةً والنص المحيط التأليفي خاصةً .

المبحث الثاني :

العتبات النصية في الأدب بين القديم والحديث

يسير هذا المبحث في اتجاهين متوازيين ، إذ يستمد مسيرته الأدبية من حركة النقد الأدبي ، وما سجله النقاد خلال القرون الأولى في النقد الأدبي القديم ، وما توجه إليه النقاد بالدراسة والاهتمام ، والبحث والتأليف في الآونة الأخيرة .

فالنقد الأدبي القديم كان يخضع لنمط تقليدي في الاهتمام بمقدمات الخطاب النثري، والاستهلال الشعري ، يتضح ذلك من أقوال النقاد المسطرة في داخل كتبهم .

يقول ابن رشيق : ((قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : لأني أقللت الحز ، وطبقت المفصل ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ، ولطف الخروج إلى المدح والهجاء .)) [(١)]

فالقول السابق يدل دلالةً قطعيةً على اهتمام مقصود في حسن الافتتاح والاختتام في القصيدة الشعرية ، كبناء له موضعه ومكانه مما لا يتجاوزه الاستحسان إلى الغرض المطلوب، ثم يضع – ابن رشيق – قيوداً لافتتاح القصيدة افتتاحاً إنتاجياً في الخطاب الاستهلالي وهي : ١ – تجويد الافتتاح .

٢ – تجنب الملفوظات الدالة على الضعف .

٣ – توفر الحلاوة والسهولة والفخامة .

حيث يقول : ((إن الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ، فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة ، وليجتنب " ألا " و " خليلي " و " قد " فلا يستكثر منها في ابتدائه فإنها من علامات الضعف والتكلان ، ... وليجعله حلواً سهلاً ، وفخماً جزلاً ، فقد اختار الناس كثيراً من الابتداءات أذكر منها : قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ [(٢)]. وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكرالحبيب والمترل في مصرع واحد.)) [(٣)]

---

(١) أبو علي الحسن بن رشيق القيراوني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل (بيروت ، ط٥ ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م) ص : ٢١٧/١ .

(٢).ديوان امرئ القيس ، مصدر سابق ، تمامه : بِسقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَومَل . ص : ١١٠ .

(٣).ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق ، ص : ٢١٨/١ .

ويقول ابن الأثير : ((وإنما خصصت الابتداءات بالاختيار ، لأنها أول مايطرق السمع من الكلام ، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الواربعده توفرت الدواعي على استماعه ، ويكفيك من هذا الابتداءات الواردة في القرآن كالتحميدات المتفتح بها أوائل السور ، وكذلك الابتداءات بالنداء كقوله تعالى في مفتتح سورة النساء ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**﴾ [1] وكقوله تعالى في أول سورة الحج :﴿□□□□□ □□□□□□□□ **إن زلزلة الساعة شيء عظيم**﴾ [2] هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه ،وكذلك الابتداء بالحروف ، كقوله تعالى : ﴿آلم﴾ و ﴿طس ﴾ و﴿حم﴾ و غير ذلك ، فإن هذا أيضاً مما يبعث على الاستماع إليها ؛ لأنه يقرع السمع شيء غريب ، ليس له بمثله عادة فيكون ذلك سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه .)) [3].

إن الاهتمام بالابتداءات الشعرية والنثرية واضح جداً في الأدب القديم ، إذ إنه أول ما يقرع الأسماع ، وإذا تقبلتها كان ذلك أدعى لتقبل النص الأصلي ، ثم إن ابن الأثير عندما تحدث عن الابتداءات جعلها نوعاً من أنواع الأركان الخمسة البلاغية .. ، التي لابد من ايداعها في كل كتاب بلاغي ، ويطيل الحديث عنها ذاكراً ما حسن ، وما قبح ، وما لطف من هذه الابتداءات ، تحت باب أركان الكتابة وهو نوع يسميه " في المبادئ والافتتاحات " [4] . ويقول ابن قتيبة : ((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد ، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي إصغاء الأسماع .)) [5]

---

(١) سورة النساء ، آية : *١* .

(٢) سورة الحج ، آية *١* .

(٣) أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، (بيروت – بدون ط – ١٤١١هـ ١٩٩٥م) ص : ٢٢٤/٢.

(٤) السابق نفسه ، ص : ٢٢٣/٢.

(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث (القاهرة – ط أولى – ١٩٩٦م) ص : ٧٤/١

فالخطاب الاستهلالي في الشعر لدى الشعراء القدماء يتمثل في :

١ – الوقوف على الأطلال . ٢ – النسيب وألم الفراق .٣ – الغرض المنشود .

إن هذا الخطاب الاستهلالي هو نصٌ موازٍ مندمج في بنية القصيدة العربية القديمة، وهو الإطار الذي تتأطر به البنائية الشعرية البيانية ، والاحتذاء بحذوها هو احتذاء لصنعة الشاعر المجيد ، إذ إن ((الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر ، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وبالنفوس ظمآء إلى المزيد .))[١] إن للمقدمات حقها من الموضعة التأليفية ، في الأدبية الشعرية والنثرية ، لذلك يقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى : ((أن يأتي في المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة يصدر به ، تأسيساً لما يأتي به في مكاتبته .))[٢]

ويعقد الفصل الأول من الباب الأول للمقالة الرابعة في المكاتبات بقوله: ((الفصل الأول من مقدمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكاتب فيها، من حسن الافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه من أول المكاتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية في الخطاب ونحوه.))[٣]

إن المقدمات إن عملت عملاً ملموساً في قرعها الأسماع ، وأقبلت بجرسها وصوتها على السامع فأقبل عليها ؛ لأن المقدم قد أحسن في ابتدائه ، وأبرع في استهلاله . وتلك رؤية تنبه لها البلاغيون حين تحدثوا عن " حسن الابتداء " ثم سماها المتأخرون عنهم " براعة الاستهلال " ، من ذلك قول القزويني في الإيضاح : ((ينبغي للمتكلم أن يتأنق في ثلاثة مواضع من كلامه ، حتى تكون أعذب لفظاً ، وأحسن سبكاً ، وأصح معنى))[٤] ثم يقول: ((الأول : الابتداء لأنه أول ما يقرع السمع ، فإن كان كما ذكرنا أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه ، وإن كان بخلاف ذلك ، أعرض عنه ورفضه ، وإن كان في

---

(١)..السابق نفسه : ص ٧٥/١ .

(٢)..أحمد علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق : يوسف علي طويل ، دار الفكر (دمشق ، ط أولى ، ١٩٨٧م ، ١٩٨٧م) ص : ٢٦٧/٢ .

(٣)..السابق نفسه : ص : ٤٧/١ .

(٤)..الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م) ص : ٤١٩ .

غاية الحسن .)) [1] والبراعة في النهاية هي : ((أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه ببيت أو قرينة تدل على مراده في القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده ، والكاتب أشد ضرورة إلى ذلك من غيره ؛ ليبتني كلامه على نسق واحد دل عليه من أول علم بها مقصده ، إما في خطبة تقليد ، أو دعاء كتاب .)) [2]

وقال الحموي في كتابه : ((أنهم شرطوا في براعة الاستهلال : أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه ، مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح ، بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم ، ويستدل بها على قصده من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو ، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، كان من فرسان هذا الميدان ، وإن لم يجعل له براعة الاستهلال فليجتهد في سلوك ما يقوله في حسن الابتداء .)) [3] وكذلك يقول : ((أما براعات النثر ، إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنف دالة على غرض المنشئ ، وإلا فليست ببراعة الاستهلال .)) [4]

إن الأقوال السابقة ، أقوال توثيقية لأهمية البداية والاستهلال في القول ، تجعل من الغرض هدفاً تومئ إلى إبرازه في سطورها ، فإن لم يكن فهو عن البراعة أبعد ، وفي استهلاله أخفق ، وهي أقوال إن لم تصرح بالمقدمات لكنها تلمح لها ، وتؤكد على كينونتها ،وجوهرها في انبثاق القول انبثاقاً يستولي على الأسماع والأفهام ، قد يكتفي بها إن لم يقف على النص الأصلي كله ، أو يستغني بها عن الكثير منه . ثم إن للمقدمات على هذا براعة مساوية لبراعة الاستهلال ، مشروطة بشروط ذلك الاستهلال الذي استحق أن يكون بارعاً في جذبه وتنبيهه ، فإذا كانت المقدمات جاذبة منبهة ، وأضاءت حين قدمت ، ودللت على مرادها من أول وهلة ، وتجذرت في سطورها أهمية نصها وعنوانها ، استحقت لقب " براعة المقدمات ".

---

(1).. السابق نفسه ، ص : ٤١٩ .

(2)..شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : مفيد قميحة وجماعة دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م) ص : ١١٠/٧ .

(3)..تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال (بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م) ص : ١٩/١ .

(4)..السابق نفسه ، ٤٠/١ .

واستكمالاً لما ذكره القزويني عن المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيها : الانتهاء وقيل حسن الخاتمة أو الختام . ((وكان الاهتمام به ؛ لأنه آخر ما يعيه السمع ، ويرتسم في النفس ، فإن كان مختارًا كما وضفنا جبر ما عساه وقع فيما قبله من التقصير ، وإن كان غير مختار ، كان بخلاف ذلك ، وربما أنسى محاسن ماقبله .)) [١]

قال ابن رشيق : ((أما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع وسبيله أن يكون محكماً : لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه .)) [٢]

يقول الحموي : ((يجب على الناظم والناثر أن يجعلاه خاتمة لكلامهما مع أنهما لابد أن يحسنا فيه غاية الاحسان ، فإنه آخر ما يبقى في الأسماع ، وربما حفظ من دون سائر الكلام .)) [٣]

فالعناية بالخاتمة وحسنها لاتقل أهميةً عن العناية بالابتداءات ، لأن لها من البراعة والإحكام ما يتقصده الناظم والناثر في كلامه ، بل قد يمحو بحسن لفظه وجودة سبكه ما وقع في النص من التقصير والنقص .

ويرى القلقشندي أن حسن الختام يكتسب صفة الحسن إما من المعاني الأدبية ، أو مما اقتضاه من التعزيز والتوقير ، كأن يختتم بالدعاء ، أو يكون الحسن راجعاً إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ ، وحسن السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو . [٤]

وقال في موضوع آخر : ((ولا خفاء في أن الحمد افضل الافتتاحات ، وأعلى مراتب الابتداآت وإن لم يقع الابتداء به في صدر الإسلام فهو من المبتدعات المستحسنة ، وحيث أفتتحت المكاتبة بالحمد لله كان التخلص منها إلى المقصود بأما بعد ، وربما وقع التخلص بغير ذلك ، ويكون الاختتام فيها تارة بالسلام ، وتارة بالدعاء ، وتارة بغير ذلك .) [٥]

---

(١).القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق ، ص :٤٢٤ .

(٢).ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق ، ص ٢٣٩/١ .

(٣) الحموي ، خزانة الأدب وغاية الآرب ، مصدر سابق ، ص : ٤٩٣/٢ .

(٤) ينظر : القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، مصدر سابق ، ص : ٣٠٠/٦ .

(٥) السابق نفسه : ص : ٣٢٠/٦ .

تكتسب الخاتمة حسناً وبراعةً في الخطابات النثرية التي تختم بجملة دعائية ، أو بيت شعري يختصر كثيراً ممّا أراده الناثر في كلامه ، مما يدل على مرونة الخواتيم وتنوعها في الصياغة مابين النظم والنثر ، إذ الاهتمام منصب على الإحسان والإحكام .

من خلال ما سبق يتضح أن كتب النقد القديمة أولت اهتمامًا كبيرًا بما عرف حديثًا بـ (العتبات النصية) وإن لم تعرف هذا المصطلح ، لأنهم اهتموا بالمطالع ، وحسن الابتداء ، وبراعة الاستهلال ، والعنوان ، ونحوها من المباحث ، أي أنهم تناولوا كل منها على حدة ، ونبهوا على أهميتها في ظل التنبيه على المواضع التي ينبغي التأنق فيها، والواجب الذي يتوجب على المتكلم أن يتقصده في كلامه حتى يكون غايةً في الحسن .

ولذا فإن بروز مصطلح "العتبة النصية" في النقد الحديث لا يمحو ما قام به النقاد من دور في تثبيت أركان ودعائم المصطلح ، من خلال إشاراتهم وتوجيهاتهم النقدية ، ونظرتهم الخاصة نحو آلية من آليات الشاعر أو الناظم وتناولهم لها بالنقد والتوجيه ، ثم إن الحديث عن بروز مصطلح "العتبة النصية " هو حديث يحدد رؤية الناقد الأدبي في نقده الحديث ، كمسيرة ثانية للمبحث تسير موازية للنقد القديم وتستلهم منه ما تتجذر به في النقد الأدبي ودراساته النقدية لآليات الأدب القديم . فالناقد الحديث مازال يستخرج من قديم أدبه اللآلئ النفيسة ، والجواهر الثمينة ، التي يسير بها في رحلته الدراسية النقدية الحديثة سيراً يفضي به إلى الإبداع والتألق ، والنص كفضاء واسع لم ينل هذه الخطوة من الدراسة النقدية إلا بعد رحلة طويلة تشكلت فيها دلالاته وآلياته، وأعمق دراسة يمكن أن تفتح الأبواب لدراسة " العتبات النصية" هي دراسة " التناص "، وتفاعل النصوص فيما بينها.

التناص : هو علاقة بين نصين أو أكثر ، وهي العلاقة التي تؤثر على طريقة قراءة النص(١)

المتناص : أي الذي تقع فيه آثار نصوص أخرى ، أو أصداؤها ، ويهدف إلى الوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النصوص في استعادتها أو محاكاتها النصوص ، أو لأجزاء من نصوص – سابقة عليها .(٢)

(١) خضر عطية محجر ، "محمد درويش في خطبة الهندي الأحمر" _ التناص – القناع –اللعب – ، مجلة الجامعة الإسلامية (مجلد ١٧_ العدد٢ – ٢٠٠٩م) ص: ٩٣

(٢) السابق نفسه ، ص: ٩٣

يظل مفهوم التناص مفهوماً متطوراً وهو تطور مهم في الكشف عن بنية النص المعقدة ، إذ إنه في انغلاقه على نفسه ينفتح على غيره من النصوص ، موظفاً إياها داخل بنيته الخاصة ، ومكسباً إياها دلالات تنسجم مع ما يسعى إلى التعبير عنه ، فقد طور جينيت من مصطلح المَناص وجعله مصاحباً نصياً بقوله: ((" فالمناصية" هي ما تجعل من النص كتاباً يقترح نفسه (بمصاحباته : النص المحيط والنص الفوقي) على قارئه خاصة وجمهوره المستهدف عامة)) . (١)

ويؤكد أن الأنماط الخمسة هي متعاليات نصية ، وأراد بها كل ما يجعل من النص يدخل في علاقة ظاهرة أو خفية مع باقي النصوص .

و لم يتبلور مصطلح عتبات نصية بالدراسة والبحث إلا على يد جيرار جينيت في كتابه " عتبات " ، وإن قد بدت اهتمامات العلماء من قبله حين أشاروا إلى أهمية المقدمات والعناوين الداخلة ، والعنوان الرئيسي ، والإهداء ، واضحة في مؤلفاتهم .

ومن هذه العتبات التي لابد أن يقف عليها الباحث — نقف على عتبتي الإهداء والعنوان كنموذجين في العتبات النصية – العنوان والإهداء ؛ إذ بها من الوظائف ما يجعل لهذه العتبات من تأثير على وعي الدلالة المعرفية والأدبية والنقدية .

العنوان :

تنبثق أهمية العنوان عموماً من كونه عنصراً من أهم العناصر المكونة للمؤلف الأدبي ، ومكوناً داخلياً يشكل قيمة دلالية عند الدارس ؛ إذ يمكن اعتباره ممثلاً لسلطة النص ، وواجهته الإعلامية التي تمارس على المتلقي ((إكراهاً أدبياً ،كما أنه الجزء الدال من النص .)) (٢) وهو ((الذي يؤشر على معنى ما ، فضلاً عن كونه وسيلة للكشف عن طبيعة النص ، والمساهمة في فك غموضه ، وهو شبكة دلالية يفتتح بها النص ، ويؤسس لنقطة الإنطلاق الطبيعية فيه . والهدف منه : تبئير انتباه المتلقي ، على اعتبار أنه تسمية مصاحبة للعمل الأدبي ، مؤشرة عليه .)) (٣)

---

(١) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ٦٣ .

(٢) نقلاً عن : شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، دار الثقافة (الدار البيضاء – بدون ط – ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م ص:١١

(٣) السابق نفسه ، ص : ١١ .

إن لعتبة العنوان إشارات وإيحاءات دلالية ، تسهم في جذب الاهتمام ، ولفت الانتبـــاه ، لذلك ينبغي الاستفادة من الوظائف التي تتضلع بها العناوين في الخطاب النثري التأليفي .

قدم جيرار جينيت في كتابه " عتبات " وظائف العنوان حسب فاعلية العنـــوان مـــع النص الروائي منطلقاً من التفاعل مع المتن الروائي الحديث وهي كالآتي :

١ – وظيفية تعنينية : (١)

وهي الوظيفة الازمة لإثبات هوية النص الذي تعنون له ، لأنها واجهة الكتـــاب ودلالتـــه التعبيرية ، وتفرض حضور الكتاب بالعنوان الذي تقرره في صفحة الغلاف .

٢ – الوظيفة الوصفية : (٢)

وهي الوظيفة التي تحمل وصفاً يصف شيئاً عن النص وكأنه في وصفه يفشي ســـراً مـــن أسراره .

٣ – الوظيفة الإيحائية : (٣)

وهي أشد ارتباطاً بالوظيفة الوصفية ، إلا أنها تصف النص وصفاً تلميحيـــاً لـــه ، وهي تلميحات مرتبطة بالمتعلقات الخبرية التي تستتر خلف الإيماءات والإشارات .

٤ – الوظيفة الإغرائية : (٤)

وهي التي تشد الانتباه بما تفرضه في عنوانها من الإغـــراءات الجاذبـــة للأنظـــار ، والباعثة للأشواق ، خصوصاً العناوين المعقدة التركيب ، المغلقة الرموز، التي تطلق آفـــاق التفكير وخيالاته لفك الرموز المغلقة .

الإهداء : (٥)

((هو تقدير من الكاتب وعرفان يحمله للآخرين ، سواء كانوا أشخاصاً ، أم مجموعات (واقعية أو اعتبارية) ، وهذا الاحترام يكون إما في شكل مطبوع (موجـــود أصـــلاً في العمل/ الكتاب) ،وإما في شكل مكتوب يوقعه الكاتب بخط يده في النسخة المهداة .))

---

(١) يتظر : عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، ص : ٨٦ ، شعيب حليفي ، هـــوية العلامـــات في العتبات وبنـــاء التأويل ص : ٣٦ .

(٢) ينظر : عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، ص: ٨٧ .

(٣) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٨٧ .

(٤) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٨٨ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ٩٣ .

وظائف الإهداء :

١ – الوظيفة الدلالية :

((وهي باحثة في دلالة هذا الإهداء ، وما يحمله من معنى للمهدى إليه ، والعلاقات التي سينسجها من خلالها .)) [١] وتتمثل في الغايات والأهداف التي يطرحها النص ، وهي تتنوع بين الغايات الأخلاقية والجمالية والأيدولوجية .

٢– الوظيفة التداولية :

((وهي مهمة لأنها تنشط الحركة التواصلية بين الكاتب وجمهوره الخاص والعام ، محققة قيمتها الاجتماعية ، وقصديتها النفعية ، في تفاعل كل من المهدي والمهدى إليه .)) [٢]

((ما من عتبة إلا وتحمل دلالة ما ، أو تضطلع بوظيفة من الوظائف ، ولا يمكن لها أن تكون بريئة في وضعها وموقعها وتركيبها ، مادام يتعين عليها أن تواجه بياض الصفحة الأولى وتعمل على تخفيف حدة التوتر الذي يعتري القارئ ، وهو يشرع في تلقي الأثر الأدبي.)) [٣]

فالإهداء محرك تواصلي بين الكاتب وجمهوره ، إذ يبث الكاتب في سطوره ما يستطيع به إقامة علاقة حوارية صامتة بينه وبين قراءه ، ولا بد أن يكون الاعداد له يخدم ذلك التواصل ، ويليق بذلك الحوار .

إن الخيوط العامة للمفاهمية النصية التي ينتظرها القارئ من العتبات ، تشترك فيها جميع المصاحبات النصية ، وإن كان لكل عتبة خصوصية مكاشفية تضطلع بها ، فلا يمكن إسقاط حقها في الحضور ، أو تغييب دلالتها الوظيفية .

إن للعتبات وظائف مشتركة فيما بينها ؛ لتدل على مفاعليتها مع النصوص المصاحبة الأخرى قبل فاعليتها في النص – الداخل – ومنها : [٤]

- وظيفة تسمية النص : وهي تشكل الطابع المألوف في تصورنا لطبيعة ووظيفة هذه النصوص .

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٩٩ .

(٢) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، ص : ٩٩ .

(٣) عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، دار الحوار (سوريا ، ط الأولى ، ٢٠٠٩) ، ص : ٤٣ .

(٤) السابق نفسه ، ص ٤٥ .

- وظيفة التعيين الجنسي : لا بد للكاتب من أن يندرج في سلسلة أدبية معينة ، تشرعن وجوده في دائرة الإنتاج الأدبي عامة ، ويضطلع بهذه الوظيفة كل من التعيينات الجنسية (رواية ، قصة ..) .
- وظيفة تحديد مضمون النص والغاية منه : وهي وظيفة كل من عنوان صفحة الغلاف ، والعناوين الداخلية ذات المبسم التيمي من جهة ، كما نجد كلاً من الخطاب التقديمي ، والتنبيهات ، وكلها نصوص تسعى إلى إبراز الغاية من تأليف الكتاب من جهة ثانية .
- وظيفة تحقيق عبور القارئ : من خارج النص (اللانص أو الواقع الخارجي) إلى داخله (النص باعتباره لحظة تخييل) .

العتبات النصية عتبات متقاربة المسافات فيما بينها ، مترابطة العلائق ، متداخلة التراكيب ، وإذا أحسن الكاتب إلتماس الفائدة من وظائف كل عتبة فقد فرض سلطة النص على القاريء قبل شروعه في القراءة ، ويتبين ذلك من خلال الوظائف المشتركة السابقة ، فتسمية النص والتعيين الجنسي وتحديد المضمون لا تنفرد بعتبة دون أخرى بل تتعامل معها جميعها ، إذ لا نجد وظيفة تسمية النص مثلاً في العنوان فحسب بل تستفيد منها المقدمة و تتناولها وتثبتها وكذلك الحال في الخاتمة والاهداء .

المبحث الثالث :

العتبة والنص

(دراسة في أهمية العتبة للنص ..)

انطلاقاً من بصمات العتبات في الخطابات النصية ، ووقوفاً على أهميتها وكينونتها النصية ، وإرتحالاً إلى جذورها في الأدب القديم ، يتبين لنا استنادات النص إلى عتبة المقدمة في النهوض بالهدف أو الفكرة العلمية المراد إبرازها في الخطبة أو الرواية أو التأليف ، بل إن موضعتها التأليفية محفوظة وبائنة للكاتب والقارئ والسامع ، وفي ذلك يقول الجاحظ : ((فأهل البيان من التابعين بإحسان ، مازالوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتمهيد ويستفتح كلامه بالتمجيد " البتراء " ويسمون التي لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، الشوهاء ..)) (١)

وقال آخر : ((لا يحسن بالكاتب أن يخلي كلامه وإن كان وجيزاً من مقدمة يفتتحه بها ، وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة ، ليوفي التأليف حقه)) (٢) وكذلك يقول ابن رشيق : ((ومن الشعراء من لا يجعل لكلامه بسطاً من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحه ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو : الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسح ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء ، وهي التي لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم في الخطب .)) (٣)

إن أهمية المقدمات وما تحمله من التحميدات ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، تتجلى في الاعتداد بوجودها وبسط حقها ، وهيمنتها التأليفية ، وإن بدت وجيزة مختصرة .

من منطلق أهمية عتبة المقدمة تتحدد معالم هذا المبحث الذي يدرس أهمية عتبة المقدمة في دراسة النص ، وأنواع المقدمات ، وموضوعاتها ، ووظائفها ، دراسة تفصيلية .

المقدمة في اللغة : المقدمة مأخوذة من مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة من قدم بمعنى (تقدَّم) وقد استعير لكل شيء فقيل : مقدمة الكتاب ، ومقدمة الكلام . (٤)

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق : درويش جويدي ، المكتبة العصرية (بيروت ، بدون ط ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) ص : ٢٣٩/٢ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، مصدر سابق ، ص : ٢٦٧/٦ .

(٣) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق ، ص : ٢٣١/١ .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة قدم .

في الاصطلاح : ((مقدمة الكتاب لطائفه من كلامه قدمت أمام المقصود لارتباط له بها ، وانتفاع بها فيه سواء توقف عليها أم لا .)) (١)

التعريفان اللغوي والإصطلاحي يتفقان على أن المقدمة تقدِّم لمابعدها بما فيه من الانتفاع، والتنبيه على مقصوده وفائدته ، سواءً وقف القاريء عليها أم لم يقف .

والمصطلحات الأكثر استعمالاً هي : مقدمة – مدخل – تمهيد – توطئة – ديباجة – حاشية – خلاصة – عرض – تقديم – مطلع – فاتحة – خطبة الكتاب . (٢)

وهناك فروق دقيقة تبرز خاصية كل مصطلح عن غيره من حيث الطرح المضموني، والشكل الذي يأتي فيه ، يقول عبد الملك أشهبون ((التصدير: ليس من تأليف صاحب الكتاب ، بل من وضع شخص آخر ، والمقدمة : هي كل نص يتموقع في صدارة الكتاب ويمكن أن يكون من وضع الكاتب نفسه أو من وضع آخر غير الكاتب ، والمدخل : توطئة يعرض فيها الكاتب بعض الأفكار عن موضوع كتابه للقارئ ، والتمهيد والمدخل يرتبطان مباشرةً بالموضوع ، ويدخلان في متن الكتاب، وذلك بتأطيرهما للقضايا الأولية ذات الأهمية .)) (٣) اعتمد الكاتب للتفريق بين المصطلحات على المضمون الذي يوميء المؤلف إلى إبرازه في النص البدئي للكتاب ، وهو المضمون الذي يحتضن الفكرة والهدف من الموضوع ، أو التنبيه على القضايا الأولية ، أو الطرح لبعض الأفكار الهامة المتعلقة بالعنوان.

ولكن ((هنري ميتران ، يعد المقدمة نوعاً من أنواع الخطابة ، وهو منحى قادهُ إلى طرح التمييز التقابلي بين الخطاب والحكي من وجهة نظر أميل بنعنيست في نظرية الإبلاغ القولي ، فالخطاب هو قول على الحكي ، الذي هو نص ، وكلاهما يعضد الآخر ، ويلتزم بالحديث عنه ، فالمقدمة هي المكان الذي يشرح فيه المؤلف الهدف الذي اقترحه ، والسبب الذي قاده إلى الكتابة .)) (٤)

---

(١) سعد الدين التفتازاني ، المطول _ شرح تلخيص المفتاح _ ، صححه وعلق عليه : أحمد عناية ، دار إحياء التراث العربي (بيروت _ ط الأولى _ ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م) ص : ١١٢ .

(٢)عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١١٢ ١١٣ .

(٣) عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، مصدر سابق ، ص ٤٩ .

(٤) شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ .

إنه نص يثبت أن المقدمة خطاب أدبي ، يصرح فيه المؤلف ماشاء له التصريح به فيما يخص جوانب التأليف للكتاب ، فيعرض هدفه ومنهجه ويشـــرح مايخشى التباسه على قارئه.

أيا كانت المصطلحات المستخدمة في الخطاب المقدماتي فهي تلتـــزم الظهـــور في مكـــان مخصوص ، وبقالب تعريفي وتوضيحي يرجى منه المتعة والفائدة ، وعلـــى قـــدر المعـــنى الإصطلاحي يتحدد المغزى من وراء ذلك الخطاب المقدماتي ، فهذا ابن عبد ربه يســـمي مقدماته بكلمة (فَرْش) ، وهو لفظ فريد ومميز لم يحتذي في التسمية به حذو أحد ممـــن سبقه فكان أول من أتى به ، و هو مأخوذ من ((فَرَش الشيء يَفْرِشُه ويَفْرُشُـــه فَرْشًـــا : بسَطَه ويقال :فرَّش فلان داره إذا بلَّطها، وفي القرآن الكريم ﴿الذي جعل لـــكم الأرض فراشا﴾ أي : وطاءً لم يجعلها حزنة غليظة لايمكن الاستقرار عليهـــا .)) [1] وفي تفســـير الطبري : ((﴿الذي جعل لـــكم الأرض فراشًا﴾ يعني بذلك أنه جعل لكم الأرض مهاداً مُوَطَّأً وقراراً يستقر عليها .)) [2] أراد ابن عبد ربه أن يقدم كتبه بمقدمات تتناول الكتب تناولاً قوياً ثابتاً وتبسط القول فيه بسطًا سلسًا ممهدًا .

أنواع المقدمين : [3]

١ – **الاستهلال الواقعي** : وهو الاستهلال الذي يكون فيه المستهل شخصاً واقعياً ، وهو صاحب العمل ، وفيه إسناد مهمة التقديم إلى شخصية واقعية وحقيقية .

٢ – **الاستهلال التخييلي** : وهو الذي يقوم به شخصية تخييلية يسند لها الكاتب وضـــع الاستهلال ، وقد يكون الاستهلال بشخص آخر غير صاحب العمل ، وهو حقيقي غـــير متخيل فتكون المقدمة – غيرية – غير ذاتية ، ويقوم بها الكاتب لمطارحة قضـــايا فنيـــة وجمالية وهذا الشخص يكون : [4]

أ – **ناقداً متخصصاً** : حيث ينجز مقالته حول الكتاب – العمـــل – بأســـلوب ناقـــد متخصص ، أو أديب متذوق ، من ذلك ما ذكره عيسى مخلوف على رواية " وقائع حارة

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ،

(٢) محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ،مؤسسة الرســـالة (القـــاهرة _ط الأولى _١٤٢٠هـــ /٢٠٠٠م) ص : ٣٦٥/١ .

(٣) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١١٦ .

(٤) شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٦١ – ٦٢ .

الزعفراني " ((الكاتب المصري جمال الغيطاني أحد أكبر الكتاب العربي المعاصرين ، نتاج جمال الغيطاني يطرح نوعاً من القطيعة مع الرواية الكلاسيكية العربية في اعتماده على شكل روائي مفتوح . يأخذ ذرائعه من الواقع ولا يتقيد بالواقع ، يشطح ، يمزج بين الخيالي والمعاش ، تغيب عنه الحبكة والعقدة والحل ، تغيب وحدة الزمان والمكان ، يقترب النثر من الشعر ، ليتكون نص مغاير للصيغة التقليدية في الكتابة العربية .)) (١)

ب – روائياً : لا يلجأ إلى أدوات نقدية صارحة ، وإنما إلى حسه الجمالي ، فيكون تقديمه نصاً إبداعياً ، يقف فيه على مواطن الجمال . (٢)

٣ – الاستهلال المزيف : هو الذي ينسب بالخطأ إلى شخص واقعي . (٣)

تتضح أنواع الاستهلال من خلال المقدِّم الذي قدم الكتاب فإن كان صاحب التأليف فهو استهلال واقعي ، وإن كان غيره فهو استهلال غيري يتحدد في اتجاهين : إما تخيلي يختاره الكاتب نفسه بقصد بسط نوع من الحوار بينه وبين الشخصية المتخيلة المختارة ، وإما حقيقي واقعي يستهل الكتاب بخطاب مقدماتي مبرزًا مميزاته الأدبية وسماته الفنية معتمدًا على أسلوبه النقدي أو على حسه الجمالي ، وإن كان الاستهلال منسوب إلى شخصٍ واقعي بالخطأ فهو الاستهلال المزيف ، والقاريء حين يقف على مقدمة العمل لا يجعل الاهتمام منصبًا على نوع الاستهلال وإنما على المغزى منه والفائدة التي يقدمها له .

((عادة ما يتم التقديم الغيري عن طريق استكتاب مقدم آخر للنص ، يقوم صاحبه بدور تحفيزي للقارئ ، من خلال تقديم شهادته حول المؤلَّف والمؤلِّف في آن واحد ، وهذا الاختيار يكون على أساس انتقائي لشخصية ذات مكانة إبداعية خاصة ، ووضع اعتباري مميز ، وتلتقي القواسم المشتركة بين المقدم والمؤلف في الاهتمامات الثقافية أو الحساسية الفنية .)) (٤) نجد ذلك في تقديم المحققين للكتب المحققة ، من ذلك قول محمود شاكر في مقدمته الغيرية لكتاب "أسرار البلاغة : ((فقد فرغت آنفا من قراءة "كتاب دلائل الإعجاز" للإمام المتفرد عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، وهذا كتابه

---

(١) جمال الغيطاني ، رواية وقائع حارة الزعفراني ، مكتبة مدبولي (مصر ، ط٢ ، ١٩٨٥م) .

(٢) شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٦٣ .

(٣) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١١٦ .

(٤) عبد الملك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، ص : ١٢٧ .

الثاني : " كتاب أسرار البلاغة " قرأته أيضًا وعلقت عليه ، فهما أصلان جليلان ، أسَّسا قواعد النظر في علم بلاغة الألسنة عامةً ، وبلاغة اللسان العربي المبين خاصةً .)) (١)

إنه خطاب مقدماتي من نوع مختلف حين تجتمع فيه الاعتقادات ، وتتمازج وتذوب في مضمار مشترك ، يتأرجح بين الواقعية بذاتيته ، والإيهام بغيريته ، وتلتقي القواسم المشتركة وتسير في إتجاه واحد ، مكونةً منهجًا واضحًا للمتذوقين من القراء والمتعلمين .

إن أنواع الاستهلال الثلاثة تفضي إلى أنواع أخرى يحددها الخطيبي في ثلاثة أنماط من التقديم في كتابات عبد الفتاح كيليطو : (٢)

١ – **مقدمة تقريظية** : لا تضيف شيئاً ويمكنها أن تكون تجارية وإشهارية ، تعمل على التوجيه وإعطاء حكم مسبق على القراءة ، وهو نوع يكتبه الناشر على الأغلب .

٢ – **مقدمة نقدية** : وهي تدخل في حوار مع الكاتب ، وتهدف إلى إبراز أصالة المكتوب بالدراسة التحليلية النقدية .

٣ – **مقدمة موازية للنص** : تكون مستقلة ومباشرة توجه الانتباه إلى الأسئلة المطروحة ، وتمتلك الأدوات التي تقترب بشكل مباشر من المتلقي.

يلاحظ أن الأنماط التي حددها الخطيبي متباينة ومتدرجة من أقلها رتبةً إلى أفضلها ، وهو تدرج حددته الوظيفة المقدماتية والهدف الذي قدمته ، وفيه الإقرار بأن المقدمة ذات النص الموازي هي أسماها وأحسنها .

((ولكل نوع من الاستهلال وظيفته الحركية ، فالاستهلال الأصلي يتخذ وظيفة مركزية هي وظيفة ضمان القراءة الجيدة للنص ، وهما مرتبطان (القراءة – الجودة) بالكاتب ، لذا فهو يطرح على قرائه سؤالاً مهماً يعد الموجه الأساسي لقراءاتهم للكتاب عامة : لماذا وكيف يمكنكم قراءة هذا الكتاب .)) (٣) فالسؤال مكون من استفهامين (لماذا ؟ وكيف ؟) اللتان تحددان الوظائف الاستهلالية التابعة لها.

---

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه : محمود شاكر ، دارالمدني (جدة _ط الأولى _١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص : ٣ .

(٢) عبد الفتاح الحجمري ، عتبات النص في البنية والدلالة ، منشورات الرابطة (الدار البيضاء _ ط الأولى _١٩٩٦م) ص :٦٤ .

(٣) ينظر :عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١١٧ _ ١١٨ .

وظـــائف " لمـــاذا ؟ "

إنه سؤال يحمل في طياته الجواب عن استهلاله ، لأن الاستهلال مفتاح إجرائـــي وتوجيهي لتقييم الكتاب عامة ، وفهم النص وتقييمه من طرف القـــارئ علـــى وجـــه الخصوص ، والوظائف هي[1] :

١ – الأهمية : حيث يظهر الاستهلال الأهمية لما نقرؤه في الكتاب، سواء أكانت الأهمية المعتبرة: فكرية ، دينية ، توثيقية ، أخلاقية ، إجتماعية ، سياسية .

هذه الأهمية شاركت في إثبات هوية المقالات والخطب ، وتحديد أنواعها بمجـــرد الوقوف على مقدماتها، من ذلك خطبة لعلي بن أبي طالب في الوعظ والإرشاد :

((أما بعد : فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت فأشرقت باطلاع وأن المضمار اليوم وغداً السابق . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمـــن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خس عمله ...)) [2] فالخطبة الطالبية تقصـــدت الوعظ منذ بداية مقدمتها ، و لم يغفل المتلقي ذلك الهدف لأن دلالات الألفاظ لم تتلـــبس بمعاني أخرى يمكن أن تصرف الأذهان إليها .

تنقسم المقالات إلى نوعين : ذاتية وموضـــوعية ، وتـــبرز الأهميـــة الأخلاقيـــة والاجتماعية والفلسفية والتاريخية في القسم الموضوعي ، ولابد أن يتصدر بمقدمة تحتـــوي على مجموعة من المعارف المتصلة بالموضوع ، والمعنية على فهمه بما تعدُّه في النفس ، وما تثيره من معارف متصلة به . [3]

مقال بعنوان : شخصيتك .. يبدأ بفقرة تثير الانتباه والتركيز :

((يقول الناس : إن فلاناً قوي الشخصية ، وإن فلاناً الآخر ضعيف الشخصـــية ، وإن فلانا الثالث بارز الشخصية ، وإن فلانا الرابع لطيف الشخصية ، ويقول أحد علماء

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١١٩ .

(2) علاء الدين علي بن حسام الهندي ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق : بكري حياني ، صفوة السقا ، مؤسســة الرسالة (بيروت ، ط٥ ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م) ، ص : ٢٠٢/١٦ .

(3) أحمد محمد عوين ، دراسات في السرد الحديث والمعاصر ، دار الوفاء (القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٠هـــ – ٢٠٠٩م) ، ص : ٢١ – ٢٢ .

النفس : إن في الدنيا عدداً من الشخصيات يساوي عدد ما فيها من الوجوه ، ويقول عالم آخر : إن الشخصية وحدة متميزة ، إلى آخر ذلك من الأقوال .)) [1]

يتبين من المقدمة التمهيدية للمقال ، أنه من أنواع المقال الموضوعي ، الذي هـو المقال التحليلي ، الذي يقوم على تحليل الموضوع إلى عناصر مختلفة ، ثم يتناول الكاتب كل عنصر منها بالعرض والمناقشة . يبدو أن الاهتمام بالأهمية الوظيفية يستلزم بروزها ووضوحها للقارئ ،فلا تستند إلى الغموض والتعقيد ، المعضلان لانكشاف أهميتها المراده.

٢ – الوحدة : [2]

فالوحدة الشكلية والموضوعية والبنائية تدل على تماسك العمل وانسجامه ، حيث يتبدا للقارئ هذا التماسك حين يقف على عتبة المقدمة ، وتظهر قوة البناء وتماسكه في إرتباط أجزاءه من مقدمة وعرض وخاتمة إرتباطاً قوياً فكأنه عنصرٌ واحدٌ .

٣ – الصدقيَّة : [3]

((إن الإجابة عن سؤال " لماذا " ينبني على مدى صدقية الكاتب فيما يكتبه في استهلاله عن عمله / كتابه .)) ، إن صفة الصدق هي الجالبة لإحترام فكر الكاتب لدى قرائه ، ومن ثم عليه الإلتزام بتقديم الأفكار والأهداف المتوافقة مع نص الكتاب .

٤ – المصعقة : [4]

((يقدم المؤلف في استهلاله تقييماً ذاتياً لمادته ، فيكون بذلك واضعاً مؤلفه للصعق والتقييم ، وأنه غير راض عما كتبه إلى الآن ، وأنه بإمكانه أن يكتب أحسن من هذا ، وقد يكون الاستهلال التقييمي موضوعاً من شخص آخر مبدياً رأيه النقدي في العمل من خلال هذا الاستعداد.))من ذلك قول ابن عبد ربه في مقدمةكتاب " العقد الفريد" :

---

(1) مصطفى السيوفي ، فن المقال بين تأصيل القدامى وتجديد المعاصرين ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية (القاهرة – ط١ ، ١٤٣١هـ / ٢٠٢٠م) ، ص : ١٠٣ .

(2) ينظر :عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢٠ .

(3) السابق نفسه ، ص : ١٢٠ .

(4) السابق نفسه ، ص : ١٢٠ .

((قال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا من كل شيئ أحسنه وفيمـــا بـــين ذلك سقطات الرأي وزلل القول . ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوة)) . (١)

فتقديم المؤلف بمثل هذه الأقوال وغيرها في المقدمة ؛ ليحاول بها الإعتذار إلى قـــراءه إن هاجموه أو انتقصوه ، إذ الكمال لا يكون إلا لله .

ذكر شعيب حليفي في كتابه "هوية العلامات" : ((أن الخطاب المقدماتي الأدبي قد كان حاضراً بشكل مكثف في المؤلفات النقدية باعتباره سنة واجبة ، وضرورة لها شـــروطها ومواصفاتها التي تختلف كلياً عن شروط المقدمات الحديثة ، فيما كان الخطاب التاريخي ، كما عرف عند ابن خلدون ، والطبري ، والمسعودي ، وباقي المؤرخين ، يتلبس شـــكل المدخل كما تحدث عنه جاك دريدا ، إذ يقدم رسالته في شكل تنبيه للقارئ من أغـــاليط المؤرخين الآخرين ، ثم التمهيد ببسط منهجه في التعامل والكتابة ، وهي تســـتند علـــى البحث والاستقراء أكثر من السماع ، في حين أن المقدمة في الخطاب العلمـــي تـــرد في مؤلفات الفلك ، والترجمات الفلسفية ، وكتب الرياضيات ، وباقي العلوم المجـــردة الـــتي تعتمد التمهيد الدقيق المختصر .)) (٢)

إن للمقدمة وظائف إجرائية تقدمها للكتاب المؤَلف ، وتستوي تحت إمرتهـــا المؤلفـــات الأدبية والعلمية ، ذلك لأن في العلوم الرياضية والفلكية وما شابهها تحتاج إلى التمهيـــد أو التوطئة قبل الدخول إلى الكتاب ، وفي ذلك دلالة على هيمنة النص المقدماتي وفاعليته .

((الخطاب المقدماتي إما أدبي أو علمي ، ثم هو متصـــل أو منفصـــل ، وهـــذا الانقسام هو انقسام مرهن بالزمن ، ذلك لأن الخطابات المتصلة ترتبط بظهورها المبكر مع الملاحم ، والكتابات الآخرى ، التي تلاشت مع الزمن ، وصارت المقدمة شيئاً منفصـــلاً شكلاً ، مرتبطاً عمقاً ومضموناً بالنص .)) (٣) ويحصر عبد الفتاح الحجمـــري أهميـــة دراسة المقدمات المتصدرة في الكتب النقدية والإبداعية فيما يلي : (٤)

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٧/١.

(٢) شعيب حليفي ، هوية العلامات في بناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٥٣ – ٥٤

(٣) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٥٤ .

(٤) عبد الفتاح الحجمري ، عتبات النص : البنية والدلالة ، مصدر سابق ، ص : ٤٠ – ٤١ .

١ – الاعتبار التصديري والافتتاحي الذي تمتلكه المقدمة ، وهو اعتبار يمنحها سلطة توجيه القراءة .

٢ – احتواء المقدمة (وهذا هو المأمول فيها تدقيقاً ، على تصور المؤلف للكتابة ، وغايته من التأليف ، وتلك سمة مميزة تعين شكل الأطروحة التي تبرزهـــا محتويـــات نـــص الكتاب.

٣ – انطلاق المقدمة في عرضها لمنهج المؤلف في الدراسة ، وتحديد أدواته الإجرائيـــة في تمظهرات إصطلاحية لها أهميتها الخاصة في القراءة والتحليل .

٤ – تشكل دراسة المقدمة (متى وجدت في العمل الأدبي) منحى آخر في قراءة العمـــل الأدبي نفسه ، انطلاقاً من العلائق الجدلية التي تربط المقدمة بالعمل ، وهي علائق لها موجهاتها ولها ما يبررها من منظور التشديد على أهمية الخطاب / الجهاز المقـــدماتي في الفهم والتحليل .

٥ – اعتباراً لأهمية الأسئلة التي تبررها المقدمة ، وهي أسئلة عادة ما تلامس جملـــة مـــن القضايا المرتبطة بتصور الأدب والنقد على حد سواء ، ولذلك فإن أسئلة المقدمـــة وتساؤلاتها الظاهرة منها والضمنية ، هي المصدر المنهجي الكامن وراء الهدف مـــن التأليف ، من ثم فإن الوقوف عند طرائق صوغها أمر أساسي .

٦ – أفضل وسيلة لرد الاعتبار للمقدمة هي قراءتها والتحاور معها .

إن الحجمري يضع قيوداً في قراءة مقدمات الكتب النقدية ، إذ لا يعترف بالقراءة العابرة ، بل لابد من مدارسة النصوص المقدماتية ومناقشتها ومحاورتها لأنها سبيل الفهم والتحليل .

وظائف سؤال (كيف ؟) :

يصدر جيرار هذه الوظائف بقوله : ((إن الفصل الذي تمارسه موضوعات لماذا ، على موضوع الاستهلال وكيفية معالجته ، إنطلاقاً من بلاغة التقييم ، نجده قد تخلى عـــن مكانته اليوم شيئاً فشيئاً لسؤال الكيفية وموضوعاتها ، والذي أصبح البديل المفضل عـــن سؤال لماذا ؟، فالكاتب من خلال استهلاله يريد أن يفسر كيف يمكننا قراءة كتابه .)) [1] أراد قوة الطرح في وظائف سؤال الكيفية جعلها تحل بديلاً عن وظائف سؤال "لماذا" .

---

(1) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢١ .

وظائف "كيـــف ؟ " هي :

١ – تكوُّن :

يقول : ((فبسؤال الكيفية ، يستطيع الاستهلال الأصلي إخبار القارئ عن أصـــل الكتاب ، وظروف تأليفه وتحريره ... وعن مراحل تكونه)) [١]

إن هذه الوظيفة تشير إشارة واضحة إلى الهدف التأليفي من الكتـــاب ، والمنـــهج المتبع لقراءته ودراسته ، والفكرة التي ولد منها ونشأ وأُلف وعنون .

من ذلك ما جاء في مقدمة العقد الفريد : ((وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخـــيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ، ولب اللباب ، وإن ما لي فيه هو تأليف الاختيار وحسن الاختصار .)) [٢]

((وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً ، جامعاً ، لأكثر المعاني التي تجـــري على أفواه العامة ، والخاصة ...)) [٣] وقال أيضًا : ((وسميته كتاب " العقد الفريد " لما فيه من مختلف جواهر الكلام ، مع دقة المسلك وحسن النظام وجزأتـــه علـــى خمســـة وعشرين كتاباً ، كل كتاب منها جزآن ، فَتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً ، وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد .)) [٤]

إن هذه الأقوال توضح الكينونة الأدبية للكتاب من حيث المنهج ، وسبب التأليف، وسبب التسمية ، وطريقة تقسيم الكتاب وتجزأته ، وهو مرتبط بظروف التأليف العامة .

((لقد كشف هنري ميتران عن الطابع الديداكتيكي الذي تنصف به أغلب المقـــدمات ، معتبراً أن كل خطاب ديداكتيكي هو خطاب إكراهي وإلزامي لا يقول " هذا هو العمل " فحسب ، ولكن أيضاً (هذا ما يجب عليكم الاقتناع به)، ذلك أن فعل : "وجب " هـــو من منظور ميتران – فعل – مفتاح في الخطاب التقديمي .) [٥]

---

(١) السابق نفسه ، ص : ١٢١ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٦/١ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ١٨/١ .

(٤) السابق نفسه ، ص : ١٨/١ .

(٥) نقلاً من كتاب عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، مصدر سابق ، ص : ٧١ .

ثم إن الافتتاحية مصدر منهجي أساسي لملامسة القصدية العامة المتحكمة في توجيه القراءة ، وهي : ((قصدية لا تعتني بالوقوف عند مصطلح بعينه ، بل تعتني أساساً بشبكة من المصطلحات المتجاورة ، أو المتقابلة فيما بينها ، بهذا المعنى تكتسب الافتتاحية لغة واصفة ، تعدد مستوياتها التركيبية ، غير أنها _ رغم هذا التعدد_ تركز إجمالاً على المنحين التاليين :

١ – المنحى المنهجي للغة الواصفة : القراءة – الكتابة .

٢ – المنحى المفاهيم للغة الواصفة : السرد – الشعر – الشعور بالغربة كوحدة مفهومية في فهم الأدب وقراءته .

ويكتسي كل منحى على حده في خطاب الافتتاحية نوعاً من الاستحضار الموجه الفاتح لمدارك انتظار القارئ ، ويصفها الحجمري بالاستحضار الإقناعي (عبر التمثيل) في ظل السياقات التي يُمظهرها كيليطو في "الأدب والغرابة" ضمن السياقات التالية : " ما أكثر الروايات والأفلام التي تفتتح بمشهد طائرة تقلع ، أو سيارة تندفع ، أو فرس ينطلق، أو قطار يستعد لمغادرة المحطة .")) (١)

٢ – اختيار الجمهور :

((ليس من وظيفة الاستهلال إرشاد القارئ وتوجيهه فقط ، ولكن معرفة ما يريد قراءته أيضاً ، وهذا لا يتأتى للكاتب دائماً ، فهو لا يعرف قراءة ، بيد أن بإمكانه أن يختار جمهوره ، بتعيينه في الاستهلال ، كأن يوجه كتابه لفئة الشباب ، أو أن يوجه قصصه للأطفال ، ورواياته لفئة النساء ، كذلك يمكن للأعراف الأدبية أن تلعب هذا الدور ، والتي أصبحت تعرف وتعين اختيار الجمهور، فالرواية البوليسية لها جمهورها ، والرواية الجديدة لها جمهورها ، إلى غير ذلك .)) (٢)

فتتجلى في هذه الوظيفة الإهتمام بالوقت وتوفير الجهد والمشقة ، فيعرف القاريء من المقدمة إن كان الكتاب موافقاً لذوقه وطبعه أم لا .

---

(١) **عبد الفتاح الحجمري ، عتبات النص : البنية والدلالة ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ – ٥٠ .**

(٢) **عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢١ .**

٣ – التعليق على العنوان :

((إن من وظائف الاستهلال التي يتخذها سؤال " كيف ؟ " هو التعليق على العنوان، وتبرير طوله أو قصره والمراد منه .

فسؤال الكيفية يجي مفسراً العنوان وشارحاً له ، كما يمكن أن يطال هذا التعليق إلى العنوان الفرعي للكتاب ، فالتعليق على العنوان يكون إما دفاعاً عن الانتقادات الموجهة للعنوان والكتاب عامة ، وإما تبريراً للتغيير الذي حدث للعنوان ، كما سبق وأن أعلن عنه في الصحف أو الملاحق الثقافية ، وإما تصحيحاً للعنوان حرصاً على عدم الوقوف في الآراء المفرضة .

كما يمكن لهذه التعليقات أن لاترد في الاستهلال الأصلي ، فيعمل الكاتب على تداركها في استهلالات لاحقة أو متأخرة ، قصد تبرير هذا التغير ، أو الدفاع عن عنوانه، غير أن هذه الوظيفة التعليقية للعنوان التي تتموضع في الاستهلال ، قد أصبحت اليوم توجد في كلمة الناشر ؛ لأنها أكثر قرباً وظهوراً منها في الاستهلال .)) [١]

يقول القزويني في مقدمة كتاب الإيضاح : ((فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها؛ ترجمته بـ (الإيضاح) وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته " تلخيص المفتاح " وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له)) . [٢] فقد بين القزويني سبب حمل الكتاب ووضعه على هذا العنوان الذي هو الإيضاح.

((إن مسألة العنوان في المقدمة تشير إلى أصل هذا الخطاب سواء كان تنبيهاً أو تحذيراً، لذا فالعنوان يبقى أمراً مطروحاً في المقدمات المرتبطة بالنص ، بحيث تأتي مقدمات دون عناوين وأخرى تحقق بعناوينها موضوعاً آخر ، فالعنوان نفسه إشارة في الخطاب المقدماتي يطرح العديد من الأسئلة المتعلقة بالمقدمة المعنونة .)) [٣]

في قوله دلاله على وجود علاقة تركيبية بين العنوان والمقدمة ، واعتماد كل منهما على الآخر في وضوح مغزاه ومضمونه التأليفي ، وهذه الوظيفة تتداخل مع وظيفة تكون في بيان سبب اختيار العنوان ، وتسميته ، وتوضيح معناه إن كان غامضاً مبهماً .

---

(١) السابق نفسه ، ص : ١٢٢ .

(٢) القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق ، ص : ٧ .

(٣) شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٦٨ .

٤ – التصريح بالقصد :

((إن من بين الوظائف المهمة للاستهلال الأصلي التصريح بالقصد ، وذلك لتقديمه تأويلاً للنص من طرف الكاتب ، وفيه يعلن عن قصده ، كأن يقول : هذا ما أريد فعله / قصده (في الكتاب) إلا أن هذا لا يصدق دائماً ، خاصة إذا كنا أمام عمل أدبي يضمر قصدياته أكثر مما يصرح بها .)) [١]

من ذلك قول مصطفى ناصف في مقدمة كتابه " محاورات مع النثر العربي " :
((المؤثرات مبحث لا نفض من شأنه ، ولكنه ليس الهدف المرجو من وراء كتابنا ، هدفنا هو التناول الداخلي ، هذا الفهم يحول النظرات المحتفة بالتأثر والتأثير .)) [٢] . وقال شوقي ضيف عند تقديمه ، لكتابه " الفن ومذاهبه في النثر العربي " : ((وكل ما أرجوه أن أكون قد عرفت – بعض التعريف – بالنثر العربي في مختلف مناهجه ومذاهبه ، وهو تعريف قصدت به في هذا الكتاب – كما قصدت في كتاب ، " الفن ومذاهبه في الشعر العربي " أن أحبب قراءة أدبنا إلى شباب العصر الحديث ، الذين يؤمنون بفكرة المذاهب والمناهج وتطبيقها في الدراسات المختلفة.)) [٣] هذه القصدية تتمحور في الأهداف المقصودة وراء هذا التأليف ، فيعمد إلى توضيح مقصوده باستخدام ألفاظ تدل على ذلك مباشرةً من مثل هدفنا _ كل ما أرجوه _ قصدت ، وهي ألفاظ صريحة في تحديد الهدف والتنبيه عليه .

٥ – التعريف الجنسي :

((وهي من وظائف الاستهلال المضوعاتية والشكلية ، تعمل على التعريف الأولي بجنس العمل ككل ، فالاستهلال يعمل عمل المؤشر الجنسي بتحديده لطبيعة العمل ، هل هو عمل تاريخي أو فلسفي أو روائي أو شعري أو مسرحي.)) [٤]

---

(١) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرارجينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢٣ .

(٢) مصطفى ناصف ، محاورات من النثر العربي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون (الكويت ، العدد : ٢١٨ ، ١٩٧٨م) ص : ٦ .

(٣) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، مصدر سابق ، ص : ١١ .

(٤) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢٤ .

ومن ذلك في مستهل قصص شكسبير يقول : ((كانت مملكة انجلتره – حين وقعت حوادث القصة – تمر بأحداث وخطوب لا عهد لها بأمثالها من قبل ، وإليك ما تقصه عجوز نيفت على خمسين ومائة من السنين))[١] إن هذه المقولة البدائية هي تحديد من قريب للجنس الأدبي ، الذي هو قصة عن الملك لير .

وفي مقدمة رواية " فتاة القيروان " يقول محمد حسن عبد الله : ((قبل أن أتوقف عند " فتاة القيروان " محاولاً تنوير بعض جوانبها الفنية والفكرية ، أستعيد بعض الذكريات القديمة التي تتعلق بسلسلة روايات تاريخ الإسلام))[٢] – إلى أن يقول – ((وربما كان حرصه على التوثيق التاريخي سبباً في محدودية خياله ، ومقدرته على تحليل ، ومن ثم تصوير الشخصيات التاريخية ،))[٣] فالرواية تاريخية بشخوصها وخيالاتها ومكانها .

كذلك المقدمة التي بدأها أحمد شوقي في رواية " مصرع كليوباترا " والتي أهداها إلى الأمير " فاروق " : [٤]

وروعة المقادر العوادي
وماخلون من شعاع هادي
يبين الغي من الرشاد
ومن قصيد مل كل نادى
عف البيوت نزه الأوتاد
تسيفه مسامع الزهاد
وقصص مستحدث في الضاد
يؤلف التمثيل بالإنشاد
في وطن على الفنون غادي
مسرحه كان بلا عماد

---

(١) كامل كيلاني ، قصص شكسبير " الملك لير " ، دار المعارف ، (مصر – ط١٢ – بدون تاريخ) ، ص : ٣ .
(٢) جرجي زيدان ، فتاة القيروان ، تقديم : محمد حسن عبد الله ، دار الهلال (مصر ، بدون ط ، ١٩٨٤م) ص : أ (المقدمة) .
(٣) السابق نفسه ، ص : أ (المقدمة) .
(٤) أحمد شوقي ، مصرع كليوباترا ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة – بدون ط – ١٩٤٦م) ، ص : ٤ .

والدك المعان بالسداد

اقام ركنيه فكان البادي

فإن تقبلت وذا اعتقادي

جزيت إخلاصي واحتشادي

لجيلك الناهض بالبلاد .

فالرواية شعرية كما يقول في إهدائه أنها قصيد وبيوت ، تستقبلها المسامع بديباجة روائية قصصية . ((وقد حاولت الدراسات النقدية الحديثة ، مقاربة هـذا الخطـاب ، انطلاقاً من كونه عنصراً من عناصر النص ، الذي يشكل جهازاً مقدماتياً عاماً ، إذ المقدمة فيه شرط بالضرورة من خلال مساهمتها في الإحاطة بالجنس الأدبي ، وفك بعض رموزه ، التي قد لا يتأتى للكاتب تبسيطها داخل النص ، فهي التي تخبرنا ماكان المؤلَّف رواية أم غير ذلك ، مما يميز الجنس بين الأجناس الأدبية .)) (1)

الاستهلال بين الغياب والحضور :

يقول جيرار جينيت : ((إن الوظائف الكثيرة للاستهلال ستترك الكتاب يفكرون في أهمية وجوده وحضوره ، لأنه بإمكانه التملص فلا يظهر ، وكثيرة هي الأعمال التي لا نجد فيها استهلالاً ، فبعض الكتاب لا يجدون ضرورة في حضور الاستهلال كشـكل أو عنصر مناصي .)) (2).

إن الاستهلال يتأرجح بين الحضور والغياب تبعاً لنظرة الكاتب التأملية والتمحصية في أهمية وجود المقدمات ، ودورها الفاعل من خلال تلك الوظائف التي تقدمها .

لقد اختلفت مواقف الأدباء والنقاد من استحضار أو إقصاء الخطاب التقـديمي في مفتتحات النصوص الإبداعية ، وانقسمت الآراء في هذا الموضوع إلى تصورين اثنين :

التصور الأول : ((لا يرى أصحاب هذا التصور أي حرج في تصـدير الإبـداع بخطاب تقديمي ، إذ يعتقد هؤلاء أن أفضل فضاء مناسب للأديب لتقديم أعماله الفنية ، أو

(1) شعيب خليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق ، ص : ٤٧ .

(2) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢٤ .

توضيح آرائه الإبداعية في كثير من القضايا الفنية والثقافية ، هو : " فضاء المقدمة " .)) (١)

((وللخطاب المقدماتي مرتكزات بنائية تم النظر إليها من منظـــورات مختلفـــة ، فهنري ميتران لا يعتبر المقدمة وثيقة عن نظرية الجنس الروائي فقط ، بل نوعاً من أنـــواع الخطاب، فالخطاب – المقدماتي – هو قول على المحكي الذي هو نص ، وكلاهما يعضد الآخر ويلتزم بالحديث عنه ، فالمقدمة هي المكان الذي يشرح فيه المؤلف الهدف الـــذي اقترحه ، والسبب الذي قاده إلى الكتابة .)) (٢) تشكلت ملامح هذه الأهمية في كثير من المقدمات الأدبية فهذا محمود شاكر في قراءته وتعليقه على كتاب " **أسرار البلاغة** " يقدّم مقدمة مكونة من ثمان وعشرين صفحةً ، عرض فيها صلته بالكتاب ، وآرائه في الشيوخ الذين اتصل بهم ، وكان قد نشر مقدمة " الشيخ محمد رشيد رضا " وتحاور معها ، وهو بذلك الطرح يضع القواعد في طلب العلم وكيفية التعامل مع تراث الأمة العربية الإسلامية وهي مقدمة تصور تلك المسؤولية التي يجب أن يتحملها طالب العلم في تعامله مع التراث العربي ، ويشحذ همته وعزيمته لنيل أساسيات وقواعد علم البلاغة من كتاب الأسرار . (٢)

التصور الثاني :

((لا يرى من يشايع هذا التصور أي جدوى من احتواء الكتاب الإبداعي علـــى محطة التقديم ، أو باقي الأشكال الأخرى للاستهلال ، فهي من زاويتهم عتبة قد تشـــوش على طبيعة النص الإبداعية ، ووشاية – بطريقة غير مباشرة - بأسرار الـــنص المركـــزي الجوهرية ، زيادة على ذلك فإن الفضاء المناسب لتقديم العمل الأدبي عليه أن يتموقع بعيداً عن الفضاء النصي بصفة عامة ، فلا يصح – حسب هذا التصور – أن يسقط الأدباء فيما يتوق الأدب إلى تجنبه وتجاوزه .)) (٣)

---

(١) عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، مصدر سابق ، ص : ٦٠ .

(١) شعيب حليفي ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، مصدر سابق . ص : ٤٩ .

(٢) ينظر : الجرجاني ، أسرار البلاغة ، مصدر سابق ، ص : ٣ _ ٣٠ .

(٣) عبد المالك أشهبون ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، مصدر سابق ، ٦٣ .

من منظور هؤلاء المتصورين يكون الخطاب التقديمي خطاباً اختيارياً ، إذ ليس بالضرورة الملحة الاعتناء بالمقدمة لإخراج الكتاب ، لأن هذا لا يعرقل مسيرة إخراج الكتاب ، لذلك نجدها رهينة تقديرات الكاتب في كونها مطلباً إجبارياً أو اختيارياً ، ولكن تصورهم يختفي وراء مقاصدهم فقط ، فلا يقدمون فعلاً على إلغاء هذا الفضاء المقدماتي من حساب التأليف الكتابي .

يقول يوسف سباعي في تقديمه لروايته "بين الأطلال " : ((سألني أحدهم عما يدعوني إلى هذه المقدمة ، التي تعودت أن أبدأ بها كتبي ، وأنبأني أنها لا فائدة ولا داعي لها، وقد يكون على حق ، فما حاولت من قبل أن اقرأ مقدمة كتاب ، بل أني غالباً ما أتجاوز عن بعض الصفحات الأولى وأبدأ القراءة من أول الكتاب .

ويبدو لي أن هذا ما يفعله الكثير من القراء ، ومع ذلك فإني مصر على أن أكتب المقدمة ، إذ أحس برغبة في التحدث إلى قارئي ، وأكره أن أجهد نفسي في كتابة كل هذه الصفحات ثم ألقي بها إليه بلا كلمة واحدة بيني وبينه .. بل أقدمها في صمت ... وأنصرف عنه في صمت بلا حتى ، سلاموعليكم .. أو " خذ اقرأ هذه ... علها تعجبك!..

وعلى ذلك فأنا أكتب المقدمة لأشعر نفسي أني لا أكتب الكتاب ، ثم ألقي به في بحر خضم متلاطم القراء ... مجهول الحدود ، مبهم التفاصيل .. ، بل أكتب لإنسان مميز معلوم ، أعرفه ويعرفني ، وأحادثه ويجيب عليّ ..)) [1]

هذا التقديم يتأرجح بين الإقرار بوجود وظيفة فاعلة للخطاب المقدماتي ، وأنه لا يمكن أن يؤلف الكتاب ويتركه من غير أن يبث شيئاً لقارئه في مقدمته ، وبين وجودها في سلم التأليف كونها إلزاماً لا مناص منه ، إذ أنها لا تضيف إلى القراءة الروائية شيئاً جديداً فغالباً ما يتجاوزها إلى النص الأصلي .

((رفض وجود المقدمات قد يكون اختيارياً لكنه رفض إلزامي بل عيب وجوده عند ميشو وبيكيت ، وفلوبير الذي وجه خطاباً لـ " زولا" ؛ لأنه كثيراً مايكتب في

---

(1) يوسف سباعي ، بين الأطلال ، دار مصر (القاهرة – بدون ط – بدون تاريخ) ص : ٦ .

استهلالاته أسراره الكتابية ، وتعبيراته عن آرائه الفكرية ، وهذا ما لابد للرواي أن يصون شعريته عنه .)) [١]

تتشكل ملامح هذا الرفض عند شوقي بغدادي أثناء تقديمه لرواية " المصابيح الزرق" حيث يقول : ((لا أدري لماذا نكتب المقدمات ، ومع ذلك فنحن نكتبها ، نكتبها حيناً رسالة نجوى ، وحيناً آخر وخزة مبضع ، ولربما كتبناها حديث معلم ، أو تهويمة مناسبة ، ولتكن ما كانت فهي وليدة نوع من رهبة الكاتب حيال أثره عندما يقدمه للناس ، فهو يحس نوعاً من الخشية إذا ما واجه القارئ وجهاً لوجه دفعة واحدة ، فلابد إذن من ضربات على خشبة المسرح قبل أن يفتح الستار ، ولا غني عن عاصفة من الموسيقى تسبق قصة راقصة من البالية ، أو مسرحية شعرية من الأوبرا، فكيف أصنعها معك ياحنا؟)) [٢]

((إن أبطال رواية حنا ، أحياء يرزقون ، وكلهم من سكان اللاذقية في فترة الحرب العالمية الثانية ، وكثيرون هم الذين يعرفون ، جريس المختار ..)) [٣]

من خلال هذه الأقوال يتضح انعدام النظرة الإيجابية لأهمية المقدمات ، ودورها الفاعل في العملية القراءية ، لكنها مع ذلك تكتب وتتخذ أشكالاً كتابية متنوعة . لكن هذه المقدمة حين قراءتها نجد أنها تتلمس خيوط طريقة الكتابة المقدماتية ، وأنواعها ، فمن ناحية تبتدئ بالمقدم الغيري الذي يقدم لغيره ، ومن ناحية أخرى تضيف قراءة نقدية للنص في تحديد الزمان والمكان للرواية ، والتعريف بالجنس الأدبي الذي هو " رواية " .

لا ريب في وضوح هدف ما تسعى المقدمات إلى تحقيقه ، وهو سعي متقصّد حتى مع انعدام النظرة الإيجابية في تعامل النص الكتابي مع ما يحيط به من النصوص وعلى رأسها النص المقدماتي ، ويبثها مقدمها في بدايات الكتاب ، حتى تتأهب العقول لتلقيها ، وتتحرك بها أثناء استكمال القراءة للكتاب ، وهو مؤشر يومئ من قريب إلى وظيفة إجرائية للخطاب المقدماتي ، تتمحور في السياق الدلالي ومؤشراته المفاهيمية على فهم النص .

---

(١) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، مصدر سابق ، ص : ١٢٤ .

(٢) شوقي بغدادي في تقديمه ، المصابيح الزرق ، حنا مينه ، دار الآداب ، (بيروت –ط ٦ – ١٩٨٩م) ص: ٥ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٨ .

الفصل الثاني

مضامين المقدمات في كتاب العقد الفريد

- المبحث الأول : المضامين الأدبية والنقدية .
- المبحث الثاني : المضامين السيـــــاسية .
- المبحث الثالث : المضامين الاجتمــــاعية .

المبحث الأول :

المضامين الأدبية والنقدية

ليس هذا الفصل الثاني بمعزل عن سابقه ، فإذا كان الفصل السابق يقرر مفهوم العتبة النصية وأهميتها ، فإن هذا الفصل ينطلق من هذه الأهمية ، ويجسد تلك العلائق المقدماتية للكتب بالمتن أو النص الأصلي ، ومن خلال العناوين ومضامينها نحاول الإقتـــراب مـــن العهد الأندلسي اقتراباً أدبياً وسياسياً واجتماعياً من خلال ملامسة أفكار سطورها ، وما تبثها من أخلاق وآداب وأخبار في ثنايا شواهدها ، وهذا يُلزمنا إلى تقسيم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث هي :

١ – الأدبية والنقدية .　　　　٢ – السياسية　　　　٣ – الاجتماعية .

أولاً : المضامين الأدبية والنقدية :

إن استعراض عناوين الكتب يُوجب تقسيمها وفق نمط من الأنماط الثلاثة ، وهذا لا يشترط المساواة العددية بينها ، ونجد أن المضامين الأدبية والنقدية قد حازت على أحد عشر عنواناً من خمسة وعشرين ؛ أي أن المساحة الأكبر من هذه المقدمات هي من نصيب المقدمات الأدبية ، وهذا يدل دلالة واضحة على أدبية ابن عبد ربه ، وتبصُّره بأمور الشعر والخطب والأمثال والمواعظ والزهد ، ولكن ذلك العلم لا يلغي معرفته العلميـــة بعلـــوم أخرى ، لكن الميول الأدبية أقوى حضوراً وظهوراً ، وأحكم علماً عن غيرها من العلـــوم والصناعات ، إذا أخذتَ بالكثير منها وتأدبت به . ومن ذلك الكثير :

١ – المنثـــور :

أ) **الخطب** :

إذا كان ابن عبد ربه قد استفاد في تقسيمه للكتب من ابن قتيبة ، واتبع طريقتـــه في تناولها ، فبدأ بخطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع ،ثم خطب الخلفاء الراشدين ،ثم الأمويين، ثم العباسيين ، إلا أنه خالفه في جعلها قائمة في كتاب يخصها وسماه " كتاب الواســطة في الخطب " [(١)]، في حين كانت عند ابن قتيبة داخلة ضمن مباحث كتاب "العلم والبيان" [(٢)]

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥٧/٤ .

(٢) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، عيون الأخبار ، تحقيق : لجنة من دار الكتب المصرية ، دار الكتب المصرية (القاهرة _ ط ٢ _ ١٩٩٦ م) ص : ٢٣١/٥ .

تميزكتاب الخطب عند ابن عبد ربه على ابن قتيبة وذلك لإضافته فرشًا يبين أقسام الخطب، والأخبار التي تعين على تعلم الخطابة ، وقال فيه :((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقـــه في الخطب التي يتخير لها الكلام ، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم ، ونطقت بها الأئمـــة على منابرهم ، وشهرت بها في مواسمهم ، وقامت بها على رؤوس خلفائهم ، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم ووصلتها بصلواتهم .)) [(١)]

ليست الأسطر حديثاً عن الخطب بقدر ما هي حديث عن أنواع الخطب ، فهناك الخطب الدينية ، وهي التي تكون في الجمعة والعيدين ، وتعقد في المساجد ، لأنها خـــير مكان يجتمع فيه المسلمون ويتعلمون العلوم الدينية والأدبية والتاريخية .

ومن أبرز أنواع الخطب أيضاً :

الخطب السياسية : وهي الخطب التي يتقلدها الخليفة ، ويخاطب بها الرعيـــة ، ويحقـــق مطالبهم بما يراه موافقاً لسياسته ، واجتناباً لتلك الأحزاب السياسية التي يمكن أن تقلـــب الأمور رأساً على عقب . يبدو لي أن ابن عبد ربه يكن تلك المخاوف التي يمكن أن تقـــع في الأندلس بسبب كثرة العناصر المجتمعية ، ويدرك أنها سبب مخيف كما قد حصـــل في العهد الأموي بين الخوارج والشيعة والأمويين ، لذلك يجب أن تكون الخطب السياســـية مقننة بما يخدم الشعب فرداً فرداً وحزباً حزباً . وقد يدخل في هذا النوع الخطـــب الـــتي تقدمها الوفود بين يدي الخليفة مظهرين له الولاء والاعتزاز ، وكان لابد للوافد أن ينطق

([١]) ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥٧/٤ .

بما يتوافق والمكان الذي يقف فيه، أي أن يتضلع في كلامه بأدب وحكمة ومنطق حسن، وقد فصل ابن عبد ربه القول في ذلك في كتاب " الجمانة في الوفود " [١] ، وأحسست في قوله غضباً واستياءً مما يسمعه من قومه عند الخلفاء ، إذ كان له حضور في بلاط الخلفاء والأمراء ، وهذا تفسير ألجأ إليه لتعليل شدة اللهجة في كتاب الوفود.

منها كذلك الخطب المحفلية : وهي نوع من الخطب التي تقال في المواسم والمشاهد والحفلات التي تقام لمناسبة ما ، ويتخير لها الكلام المعبر عن الفرح والسرور ، ويستشهد فيها بالشعر والمثل ، وأكثر هذه المشاهد والمواسم تكون في الانتصارات التي خاضتها الجيوش الإسلامية ، وذلك على اعتبار أنها دولة فاتحة ، تطمح إلى توسيع أرجائها ، وتطهير البقاع من أدران الكفر والعصيان .

ب) الأمثال :

أفرد ابن عبد ربه كتابًا خاصًا بالأمثال ، وهو عنوان لم يذكره ابن قتيبة في عناوين كتبه ، ويرى ابن عبد ربه في الأمثال أنها الشيء اليسير الذي ينقل المتلقين درجات وافرة في العلم والمعرفة ، ذلك لأنه قول موجز يوقفهم على حكم نادرة ، وفطن بارعة ، ما كان لهم أن يعرفوا مرادها ومعناها من غير المثل ، إضافة إلى أن لفظها جزل رصين ومعانيها أدباً وخلقاً ، ويمكن أن تنتقل في أوساط المجتمع بيسر وسهولة ، وهي طريقة أقرب إلى الأنفس بخفة وزنها ، وما وراءها من القصص والخبر ، ثم بصياغتها اللفظية ، ومعانيها البديعة ، وفيها يقول : ((التي هي وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان .)) [٢] فقوله يدل على مسيرة الأمثال بين الناس ، واختيارهم لعباراتها في كلامهم .

يقول ابن عبد ربه : (فأول ما نبدأ به : أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمثال العلماء ، ثم أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي ...) [٣] فالأمثال ليست توقيفية ، بل تصدر عمن أوتي الحكمة ، وحلل الفطنة ، وصاغ الفائدة ، ونقلها إلى الخاطرة ، فوعتها القلوب ، ، وتناقلتها الألسن ، ولا يشترط فيها العروبة بل قد تكون

---

(١) **السابق نفسه ، ص ٥/٢ .**

(٢) **السابق نفسه ، ص ٦٦٠/٣ .**

(٣) **السابق نفسه ، ص ٦٦/٣ .**

يونانية أو فارسية ، إذ الاعتداد بما وراءها من الفوائد الأخلاقية والأدبية ، والتجارب الحَكيمة ، ولا ريب في أن هؤلاء العجم قد يترجمون ما يتعلمون لأقوامهم بلغاتهم الأصلية، مما يساعد على إذكاء الفكر ، وارتقاء التعامل بين أفراد المجتمع ، لذلك نالت من الشرف والبقاء والحضور ما لم ينله غيرها ، ((فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ولا عم عمومها حتى قيل : أسير من مثل .)) [١]

ج) المواعظ والزهد :

يوافق ابن عبد ربه ابن قتيبة في طرحه لكتاب الزهد ، لكنه يخالفه في عنوانه ويسميه " كتاب الزمردة في المواعظ والزهد " وابن قتيبة تناول المواعظ لكن جعلها باب من أبواب كتاب الزهد [١] ، ويقول ابن عبد ربه : ((والموعظة ثقيلة على السمع ، محرجة على النفس ، بعيدة من القبول لاعتراضها الشهوة ، ومضادّتها الهوى ، الذي هو ربيع القلب ، ومراد الروح ، ومربع اللهو ، ومسرح الأماني ، إلا من وعظه علمه ، وأرشده قلبه ، وأحكمته تجربته .)) [٢]

فموضوعها : الدار الآخرة والعمل على كبح شهوات النفس ، وميدانها القلوب الزكية والأرواح النقية والنفوس الطاهرة . ويبدو أن ابن عبد ربه قد واجه نوعاً من الإسراف والبذخ ، إلى حد لا يمكن حصره عند طبقه من طبقات المجتمع الأغنياء كالخلفاء والأمراء ، بل يجد ذلك متفشياً في أكثر طبقاتهم ، و يمكن أن يتجاوز ذلك إلى معظم مدن الأندلس ، خصوصاً وقد استقرت الأحوال بعد طول حرب وفتح لكثير من المدن وهجرة كثير من العرب إليها ، ثم إن الحاجة إلى المواعظ في مثل هذه المواقف لا يعني أن تكون من الأئمة على رؤوس المنابر فحسب ، بل تكون من الأصدقاء والآباء والأبناء والشيوخ الأتقياء والأنبياء والعلماء والحكماء ، بل حتى عوام الناس فيما بينهم إذا عرف عنهم الصلاح والتقوى ، ويتخير لها اللفظ الجزل، والأسلوب المؤثر ،الذي يقرع القلوب فيُوقظها ، ويضرب الأسماع فيعظها .

([١]) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .

د) الرسائل :

لقد قلل ابن عبد ربه من شأن الرسائل فلم يدرج عنواناً يتناولها ويبين خصائصها ، مع أنها وسيلة أدبية شاركت في تيسير كثير من الشؤون الحياتية للبلاد ، وجعل الحديث عن الكتّاب وطريقتهم ، وهو حديث يولجنا إلى نوعين من الرسائل التي كانت موجودة في الأدب الأندلسي وهي :

---

(١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ص : ٣٤٤/٦ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٦٦/٣ .

١ – **الرسائل الديوانية** [١]: التي تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك يوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيوشه ، بل وإلى أعدائه أحياناً منذراً متوعداً .

٢ – **الرسائل الأخوانية** [٢] : التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء ، ومنها أيضاً الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته ، أو يلتمس منه أمراً من الأمور .

فليست التوقيعات التي كان يكتبها كثير من الناس إلا دليلاً على المراسلة فيما بينهم، فالرسائل التي تصدر من الخليفة أو الحاكم إلى أمرائه وقواده هي رسائل ديوانية ، وما كان بين الكاتب وأصدقائه وإخوانه وغيرهم هي الرسائل الإخوانية ، ولكل منها حقها من الأدب والبلاغة بما يكتنفها من الأسلوب الموجز المعبر ، والقول البليغ ، ولم يزهد ابن عبد ربه في حديثه في كتاب " المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة " إلا في الإسهاب والإكثار ، وجعل الكلام موجهاً إلى الإيجاز وشرفه وحسنه ورفعته [٣]، وكلما كان القول كافياً للمعنى الذي يريده المرسل كان إيجازاً ، وليس الإيجاز إلا صدى لذلك الوقت الموجز ، المرهن بالتنفيذ للأوامر الصادرة بأسرع وقت ممكن ، ولا مجال فيه لسماع التعابير وتفصيل القول في الرسائل التي يبعثها الرئيس إلى مرؤوسه . والكتابة ليست حصراً على الكتاب بل هي حق للجميع، من ذلك قول

([١]) عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، مصدر سابق ، ص : ٤٤٩ .

([٢]) السابق نفسه ، ص : ٤٥٤ .

([٣]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٤٦/٤ .

عبد الله بن عباس : ((ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتفعت بكلام كتبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كتبه إليّ : أما بعد :

"فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فاتك منها ، وما نلت من أمر دنياك فلا تكن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعاً ، وليكن همك ما بعد الموت . ")) (١)

علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يكن من الكتاب ، ولكنه يكتب إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وليس الميدان ميدان سياسة بقدر ما هو وعظ وإرشاد ، وحث على الإستزادة من الأخره وأجرها ، والأسف على ما يضيع من أمرها ، وهي رسالة إخوانية تظهر فيها ملامح ودوافع الإخاء والتآخي بين الطرفين ، والأسلوب فيها لا يقل أهمية عن سابقتها إذ إنها تعزف على أوتار القلوب ، وتفتح آفاق الفكر للتبصر في أمر قد انشغل عنه بغيره .

هـ) التعازي والمراثي :

لقد ذُكر هذا العنوان بعد كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " ، إذ إن بينهما صلة وعلاقة قلبية قوية ، فمن وَعَى المواعظ وزهد في دنياه يستطيع أن يعظ من يعزيه في فَقْدِ عزيزٍ له بما يصبره على مصيبته ، ويقوي ثقته بأمر الله وقضائه في الموت ، ولم يتحدث ابن قتيبة عن المراثي لكنه جعل التعازي باب من أبواب كتاب الإخوان (١) ، ثم إن هذا العنوان مهم جداً في وحدة تماسك المجتمع ، والوقوف بين أفراد المجتمع بعضهم البعض من باب التعزية أقوى أثراً على القلوب وتآلفها من غيرها ، لذلك كان لِزاماً على كل من ينتسب إلى الأندلس أن يتأدب بهذا الكتاب ، وهذه الأدبية تتطلب منهم أن يتسلحوا بالموعظة ، ويتقلدوا الألفاظ الشجية ، التي تبعث على الصبر والإنقياد لله، وتنبذ سُبل اليأس والجزع

و) مخاطبة الملوك :

---

(١) عبد الرحمن بن علي الجوزي ، صفوة الصفوة ، تحقيق : محمود فاخوري ، محمد رواس قلعة جي ، دار المعرفة (بيروت ، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، ص : ٣٢٧/١ .

تظل السلطة العليا و على رأسها الخليفة أو الملك حازمةً في الضرب على أيـــدي المخربين للبلاد ، فتنزل بهم شتى أنواع العقوبات بما يتناسب مع أخطائهم ، وتهـــدف إلى الحد من المشاكل التي تواجهها من أمثال هؤلاء عن طريق ممارسة سياستها الحازمة فيمن يقع بين يديها ، ليكون عبرة لمن يحاول محاولتهم أو يسير على نهجهم ، ولا تتخذ معهـــم الرحمة أو العفو، إذ إن القلوب غاضبة والنفوس محترقة بنار عصيانهم للأوامر ، ولا ملامة في ذلك عليهم . ولا سبيل إلى التماس تلك الرحمة إلا مناشدة الاعتذار الـــذي يســـتميل قلب الغضبان ويطفئ جمرة غيظه ، وفي ذلك يقول ابن عبد ربه :((والتزلف إليهم بسحر

(١) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ص : ٣٤٤/٦ .

البيان ، الذي يمازح الروح لطافة ويجري مع النفس رقة . والكلام الرقيق مصايد القلوب وإن منه لم يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفيء جمـــرة غيظـــه ، ويسل دفائن حقده ، وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم وبصره)) (١)

فحسن التنصل برصف ذلك الكلام الرقيق الذي يظهر الاعتراف بالخطأ والزلل ، وفي نفس الوقت يهتك قناع الغلظة والشدة في أوامر الملك حين يأمر له بعقاب ما- قـــد يكون سجناً أو ضرباً أو حرماناً- إلى العفو والصفح وإحلال الثواب بدل العقاب . وفي هذا النص دليل على أن ابن عبد ربه كان يلازم بلاط الملوك وهو يدرك طبيعة الأمزجـــة المختلفة في مسايرة الأمور ، فكل له نظرته الخاصة التي تختلف عن غيره ، ولكن ســـحر البيان باللسان في حضرة الملوك تجعلهم على درجة واحدة في التعامل ، وتستوي عند نقطة الخضوع والرضا أمزجتهم وأفكارهم ، وإن مخاطبة الملوك خاصة بهذا الحسن من القـــول يدل على قدرتهم الأدبية ، وكفاءتهم البيانية ، وأنهم يعلمون عظم منزلة البيان وأصحابه، وأن الاحتفاء بماعندهم من الأدب والبيان أكرم من معاقبتهم ومباعدتهم ، إضافةً إلى ما فيه من تشجيع للأدب والأدباء وتعنيف للجهل والجهلاء .

لذلك يقول : ((وحفظ هذا الباب أوجب على الإنسان من حفظ عرضه ، وألزم له من قوام بدنه .)) (٢)

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٩٤/٢ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٩٤/٢ .

وفي قوله دلالة على وجوب معرفة البيان ، ومخاطبة الملوك ومن دونهم به ؛ لأنك تكون ببيانك في مستوى ملكهم وجاههم .

٢ – *المنظوم :*

وضع ابن عبد ربه كتابين يتناولان الشعر في حين تناوله ابن قتيبه في بضع صفحات من كتاب العلم والبيان (٣) واللافت للأمر أن ابن عبد ربه يتعامل تعاملاً مباشـراً مـع القلوب وأريحيتها ، وغضبها وعنفوانها ، فيذكر من الكتب والعناوين ما يُهـدِّيء مـن غضبها، أو يروح عنها ، أو ينشط من حركتها بما يسعدها ، وفي هذه الأثنـاء حـين تتضارب الأفكار، وتختلط الأهواء ، وتقلق الأرواح والقلوب، يرجعها إلى تلك الألحـان التي لا غنى للعربي عنها ، إذ إنها المتنفس القلبي لوشائج الهمـوم والأحـزان ، والمُحـرك التناغمي لمكامن الأشواق والوجدان ، ففي كتاب " الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم " يقول : ((قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا .)) (١)

فكلا الحياتين – الأندلسية والإسلامية – لها صولات وجولات تفرضـها حيـاة الحرب والانتصار ، لكنها في وقت خلوتها تركن إلى نوع من الحديث تجد فيـه الراحـة والفائدة والمتعة ، ثم إن أيام العرب هي أيام شاقة ، تمتطي فيها صهوات الخيول لترد ظلماً أو تثأر لدم ، وما من يوم من أيامهم إلا وسجله الشعر ووصفه ثم تناقله الناس فيما بينهم فأراد الأندلسي أن يؤدب القوم بعلم فيه من الأخلاق والمآثر والشعر الفـيض الكـثير ، إضافة إلى شحذ نفوسهم إلى الاستبسال والإقدام بالشعر الحماسي الذي رافق أيام العرب وإغاراتهم وسجلها ، هذا الإقدام هو الذي يجعلهم يحفظون مكانهم في تـاريخ العـرب بالأندلس مكتوباً في سجلات الشعر ، مدوناً بدمائهم وأرواحهم على صفحات تـاريخ بلادهم ، لذلك يتحدث عن فضل الشعر بقوله : ((إذ كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيّد لأيامها ، والشاهد على حكامها .)) (٢) مازالت الأنظار تتوجه إلى تلك الفصائل غير العربية التي دخلت في الإسلام وحاربت من أجله، ولم تستوِ

---

(٣) ينظر : ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ٥/ ١٨٢ – ١٨٥ .

(١) السابق نفسه ، ص : ١٢٩/٥.

(٢) السابق نفسه ، ص : ٢٥٣/٥ .

بعد نضوج فكرها العقلي الديني ، لكن باب الشعر باب رائق لها وسابق بها إلى أعلى الدرجات ، إذ لا يقدم شعراً في بحر ووزن وقافية فحسب ، بل اللفظ والمعنى والفطنة والحكمة ، والخبر والفائدة ، والنصيحة والموعظة والزهد ، والتعبير و المثل ، والبلاغة والبيان .

وابن عبد ربه شاعرٌ بارعٌ يدرك تماماً أهمية الشعر ومكانة الشعراء ، لذلك يرى من الأهمية أن يعرف كل فرد كيف يُكتب الشعر، وما هي بحوره وعلله، وما يحسن منه وما يقبح ، فيعُنون لكتاب " الجوهرة الثانية بأعاريض الشعر وعلل القوافي " (1) وهُوَ عنوان يفصل القول في علم العروض تفصيلاً منهجياً تعليمياً ، ويدل دلالة واضحة على أهمية الشعر وتناشده ، ومحاولة قوله والتأليف فيه من جهة ، ومحاولة التجديد في الأغراض بما يتناسب والحياة الأدبية الجديدة ؛ ليكون معبراً لهم أكثر من أي عصر سابق – عنهم – من جهة أخرى .

يقول : ((واختصرت المثال في الجزء الثاني في ثلاث وستين قطعة ، على ثلاثة وستين ضرباً من ضروب العروض ، وجعلت المقطعات رقيقة غزلة ، ليسهل حفظها على ألسنة الرواة ، وضمنت في آخر كل قطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها وداخلاً في معناها من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه ، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها)) (2)

في قوله إثبات لقدرته الأدبية على قول الشعر والتأليف فيه ، فيستطيع أن يصوغ منه السهل الرقيق ، والصعب الثقيل ، لكنه أراد السهل لأنه يريد المنفعة بالحفظ والإستشهاد والرواية ، كما أثبت فضل الخليل (3) في علم العروض وأستاذيته وأنه قد نهل عنه واستشهد بشواهده ، مع أن الانتهال عنه لم يكن مباشراً بل عن طريق كتبه أو ما ورد عنه بالرواية الشفهية .

---

(1) السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥ .

(3) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي الأحمدي ، من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، وهو أستاذ سيبوية ، ولد في سنة ١٠٠ هـ وتوفي سنة ١٧٠هـ في البصرة .
خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين (بيروت _ ط١٥_ ٢٠٠٢م) ص : ٣١٤/٢ .

ومع أن ابن عبد ربه شاعر فحل لكنه لم يذكر شيئاً من شعره في أي مقدمة من مقدمات العقد ، وجميع الأبيات المذكورة أبيات لشعراء جاهليين وإسلاميين ، وقد لا يذكر أو ينسب البيت إلى قائله بل يكتفي بقوله : (قال الشاعر) أو (منه قولهم) من ذلك الشاهد الذي ذكره في كتاب " اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح " وصدره بقوله : قال الشاعر : (١)

إِنَّمَا للنَّاسِ مِنَّا حُسْنُ خُلْقٍ وَمُزَاح
وَلنَا مَا كَانَ فِينَا مِنْ فسَادٍ وَصَلاَح

وترى الباحثة أن ابن عبد ربه لم يرد أن يضيء مقدماته بشيء من شعره لأنه كان يريد أن يُدير الحوار بعصا الأدب المشرقي فقط ، وجعل شعره مبثوثاً في متون الكتب ويصدره بقوله : "ومنه قولنا" ، و"مثله قولنا" هذا رأي ، ورأي آخر أنه كثيراً ما يؤلف القصائد في الغزل واللهو والمجون لكنه تاب وأقلع عن التأليف فيها ومحصها بأشعار في الزهد والوعظ ، وكان ذلك في أثناء انقطاعه لكتابة كتابه" العقد" فكتب المقدمات قبل نظم أبياته في الأغراض الأخرى ،إذ إن الزهد والوعظ ليسا الغرضين الوحيدين فهناك المدح والوصف والرثاء ، بل إنه في كتاب " الفريدة في الحروب ومدار أمرها " يقول : ومن قولنا في صفة الحرب : (٢)

وَمُغْبَرُ السَّمَاء إذَا تَجَلَّى يُغَادِرُ أَرْضَهُ كَالأُرْجُوَانِ
كَأَنَّ نَهَارَهُ ظَلْمَاءُ لَيل كَوَاكِبُهُ مِنَ السَّمَر اللَّدَانِ

ورأي ثالث أن كتابة المقدمات وتأليفها ونظمها كان لاحقاً لتأليف الكتب السابقة عليها، أستدل على ذلك بذكره في بعض المقدمات لنتائج الكتب وفائدها، وسبيل دراستها ، وهذا لا يكون إلا بعد دراسة مستفيضة للعنوان ، والمادة المتصلة به ، والأقوال المجموعة له، وهو الرأي الذي أراه مجانباً للصواب ، وتفسيراً مقبولاً لعدم تصدير شعره في مقدماته.

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤٠٤/٦ ، " البيت مجهول النسب " .
(٢) ديوان ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ص : ١٦٨_ ١٦٩ ، والعقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٢٣/١ .

ويسوق الشواهد الشعرية دون أي تحليل أو تفسير أو تعليل ، ونادراً جداً ما يـــذكر الغرض الخاص بها أو ينسبها لقائليها ، وقد يدلك على الغرض من الخبر الذي ذكر به أو العنوان الذي يُصدره للكتاب ، من ذلك قوله : وقف حكيم بباب بعض الملوك فحجب ، فتلطف برقعة وأوصلها إليه وكتب فيها هذا البيت : [1]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُرْجَى لَــهُ الغِنَــى وَأَنَّ الغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِــنَ الفَقْــرِ

فلما قرأ البيت لم يلبث أن انتحل ، وجعل لاطئة على رأسه ، وخرج في ثـــوب فضال فقال له :((والله ما اتعظت بشيء بعد القرآن اتعاظي ببيتـــك هـــذا ! ثم قضـــى حوائجه .)) [2]

فالبيت ذكر في كتاب المواعظ والزهد ، وسياق الخبر يدل على الاتعاظ ، وأصل البيت العظة في قالب العتاب بين الأصدقاء ، لكن ابن عبد ربه لم يلتفـــت إلا للموعظـــة والزهد ، وإن لم يشر إلى الغرض من هذا البيت ، لكنه في سياق الخبر ذكر اتعاظ الملـــك بالبيت وهو ما يريده من الشاهد ، ويتوصل له الملتقى من غير تحليل للبيت أو تعليق عليه.

وفي كتاب " الجوهرة في الأمثال " يقول : قال الشاعر [3]

مَـــا أَنْـــتَ إِلاَ مَثَـــلٌ سَـــائِر يَعْرِفُـــــهُ الجَاهِـــــلُ وَالخَـــــابِر

وفي كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر يقول : قال أحد المحدثين : [4]

بُـــرْزَةٌ تُـــذْكَرُ في الحُسْـــــــــ ـــــــــن مِـــنَ الشِّـــعْر المُعَلْـــقْ

---

(1) البيت لأبي العتاهية : وهو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، وكنيته أبو إسحاق ، شاعر عباسي، توفي سنة ٢١٣هـ ، حيث كان صديقاً لأحمد بن يوسف ، ولما خدم المأمون وخص به رأى أبو العتاهية منه جفوه فكتب إليه :

أَبَـــا جَعْفَـــرٍ إِنَّ الشَـــرِيفَ يَشِـــينُه تَتَايهُـــــهُ علـــى الأَخِـــلاَّءِ بِـــالْوَفْرِ
أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ الفَقْـــرَ يُرجَـــى لَـــهُ الغِـــنى وَأَنَّ الغِنَـــى يُخْشَـــى عَلَيْـــهِ مِـــنَ الفَقْـــرِ

أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، تحقيق : سمير جابر ، دار الفكر (بيروت _ ط٢ _ بدون تاريخ) ص : ٣/٤ ، ٨٢ ، ١١٦ .

(2) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٣٧/٣ .

(3) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ . (البيت مجهول النسب) .

(4) السابق نفسه ، ص ٢٥٣/٥ (البيت مجهول النسب) .

كُـــلُ حَـــرْفٍ نَـــادِرٍ مِـــــــــــــنْهَا لَـــهُ وَجْـــهٌ مُعَشَّـــقْ

والأبيات في الكتابين تصف ما عليها عناوينها ، وتضيف إلى أهميتها الأدبية ، وهي من الأبيات التي تناقلها الناس فيما بينهم تناقلاً مائزاً بها عن قائليها، إذ إنها أبيات مجهولـــة النسب لم ينسبها ابن عبد ربه ولا من قبله ، بل يُستشهد بها بتراً عن قائليها. والوصـــف كامن في ثنايا الأبيات ، إذ تصف مسيرة المثل ومعرفيته العالمية من الجاهل والخابر ، كذلك المعلقات الشعرية وما لها من جمال وروعة وحسن ، جعلت الشاعر المحدث يصف قصيدته وما بها من حسن بما في المعلقات من حسن على سبيل المشابهة والتمثيل لها. وإذا كان ابن عبد ربه لم ينسب الكثير من الشعر إلى قائله، فإن الأنظار متوجهة لشعراء المشرق الـــذين يحاكيهم في أدبهم ، وكان تبعاً لذلك الاستشهاد بشعرهم ، وقوله :" أحد المحدثين" تقرّب هذه النظرة ، إذ إن المحدثين كثيراً ما تطلق على أدباء العصر العباسي المجددين في الشعر .

هناك مقاربة شديدة بين شخصية ابن عبد ربه التائبة الراغبـــة وحاجـــة المجتمـــع المعيشية من جهة، وبين أغراض أدبية معينة من جهة ثانية ، هـــذه المقاربـــة في كتـــابي "المواعظ" و" الزهد والرثاء" فالغرضان الأدبيان ، وما نُظم فيهما من أشعار خـــير مُعـــين لمجتمع يخوض غمار الحروب ، ويمتطي صهوات الخيول ، يتصبر بهما ، وينشر أنوار الأمل والعمل لدروب حياته ، فإذا كان ذلك ممكناً لأبناء المجتمع ،فكيف بابن عبد ربه الـــذي أقلع عن حياته (من قريب) ، وزهد بما كان فيها من غزل ولهو وصبابة ، ورغـــب في الآخرة والعمل الصالح ، وبذكره الأحبة الذين يرثي لهم يتذكر الموت ونهايـــة الإنســـان؛ ليستزيد في الزهد ودروبه، وينجو من شهوه النفس وهواها .

وإذا وقفنا على الأبيات الشعرية في مقدمات العقد نجد "المواعظ والزهد" تســـتأثر بعدة مقاطع على خلاف جميع الكتب في مقدماتها ، فهي بذلك مرآة تعكـــس صـــورة لنفسية ابن عبد ربه الأدبية والدينية معاً ، فيقول في كتاب " اللؤلؤة في السلطان " : قـــال الشاعر : [1]

فَكُلُّكُـــمُ رَاعٍ وَنَحْـــنُ رَعِيَّـــةُ وَكُـــلٌّ يُلاَقِـــي رَبَّـــهُ فَيُحَاسِـــبُه

([1]) السابق نفسه ، ص : ١/٢٠ (البيت مجهول النسب) .

فليست الموعظة حصراً على مقدمة في كتاب يحمل عنواناً يخصها ، بل تتجلى في مقدمات أخرى ، لأنه يدرك تماماً أهميتها في المجتمع ابتداءً من خليفتها أو سلطانها ، وأنه متى عجز اللسان عن البيان عن مطالبه السياسية ، فالصيرورة الحتمية إلى الله وعنده تكون المحاسبة.

فإذا كان ابن عبد ربه لا يحلل الأبيات إلا أنه يذكرها بعد ذكر الشواهد النقليـــة؛ حتى يستدل بها جميعاً على قوله في حق السلطان من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتنـــاء بمرافق أهل طاعته . ولا أرى ذلك عذراً في عدم تحليله للبيت بقدر ما أرى المباشرة المعنوية واضحة وكأنها نثر في قالب نظم لا غموض فيه ، ولا تعقيد يزيغ المعنى أو يـــذهب بـــه بعيداً، ثم إنه نهج متبع في عدم تحليل الأبيات ، أو تفسير معنى عام أو خاص ، لأن نهجـــه يعترف بالمباشرة المعنوية الواضحة جداً للأبيات .

ويقول في كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " ومنه قولهم : [1]

أَحَبُّ شَيءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مُنِعا [2]

كان الاستشهاد بالبيت عن ثقل الموعظة على الأسمـــاع ، وجنـــوح الـــنفس إلى مخالفتها بالبحث وراء الأهواء والملذات ، وأصل البيت في الغزل ، لكن الحاجة إلى عجـــز البيت جعلته ينساق في باب الموعظة، ويكتفي بالعجز ويترك صدره لعدم انصياعه للعنوان، بل إن هذه الأبيات تصبح حِكماً تتداولها الألسن وتتعظ بها في حياتها ؛ لأنهـــا أصـــبحت حِكماً زهدية وعظية .

وفي كتاب " الجمانة في الوفود " يقول : [3] ولما توفي قيس بن عاصم[4] قال فيـــه الشاعر : [5]

([1]) السابق نفسه ، ص : ١٣٦/٣ .

([2]) البيت للأحوص وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت، لقب بالأحوص لحوص كان في عينيه، وهو شاعر إسلامي أموي ، ويقول : وَزَادَنِي كَلَفاً بالحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ أَحَبُّ شَيءٍ إِلَى الإِنسَانِ مَا مُنِعَا .
أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، مصدر سابق ، ص : ٢٢٤/٤ ، ١٢/ ١٤٧ .

([3]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢ .

([4]) قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر ، شاعر فارس شجاع ، كثير الغارات، أدرك الجاهلية والإسلام وقد حسن إسلامه.
أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، مصدر سابق ، ص : ١٤/ ٧٠ .

([5]) الأبيات لعبدة بن الطبيب ،وهو يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس، أدرك الإسلام فأسلام ،وهو شاعر مجيد ليس بمكثر، وقال هذه الأبيات في تأبين قيس بن عاصم .

عَلَيكَ سَلاَمُ اللهِ قَيْسَ بنَ عَاصِـــم وَرَحْمَتُـــهُ مَـــا شَـــاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَـــا
تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسْـــتَهُ مِنْـــكَ نعْمَـــةً إذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بـــلاَدَكَ سَـــلَّمَا
وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِـــدٍ وَلَكِنَّـــهُ بُنْيَـــانُ قَـــوم تَهَـــدَّمَا

فالغرض من الأبيات هو الرثاء الذي يذكر بالموت وما بعده في الآخره من الرحمة والمغفرة ، والهلاك الدنيوي الذي هو نهاية كل إنسان ، والأبيات تعكس انكسار القلوب وحزنها على فقيدها ،لأن القلوب أصدق ما تكون في هذه المواقف ، لذلك كـــان مـــن الأهمية التأليفية أن يضع كتاباً بعنوان " كتاب الدرة في النوادب والتعازي والمراثـــي" [1]، وإذا كنت ذكرت بأن المجتمع في حاجة ماسة إلى هذين الغرضين ، فإني استدل على هذا القول بدليلٍ وهو تتابع البابين في التأليف ؛ أي أن المـــواعظ والزهـــد يتبعـــه النـــوادب والتعازي، فالعنوان تتولد فكرته من عنوان سابق له، ويتصل به اتصالاً ضِمنياً جزئياً؛ لأنه ينطلق من أهمية الفكرة الرئيسة التي تؤمن بضرورة تلبية حاجات المجتمع الأدبية بالنســبة للأغراض الشعرية ، قال الأصمعي : قلت لأعرابي : ما بال المراثي أشرف أشـــعاركم ؟. قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة . [2] فالشاهد لم يذكر بعيداً عن إيمانية مؤكدة بشـــرف الأشعار المؤلفة في باب الرثاء ، بل تتفق معها وتسير بمسيرتها وتضيف إلى أهميتها؛ لأنها لا تنفس عما إزدحم في قلوبهم من الحزن والأسى فحسب ، بل الهدف أكبر من ذلك وهـــو الوعظ بالحياة الآخروية ، والزهد بالحياة الدنيوية وملذاتها .

٣ – *البيان :*

تحت هذا العنوان يضيق الكلام حول البيان الأدبي الذي تتحدد فيه معالم بلاغيـــة ونقدية ، فالإبانة على هذا النحو تختلف عن الإبانة الإفهامية التي لا تـــؤدي دوراً ســـوى الإفهام عما في نفسها باللسان أو الكتابة ، لتتجاوز هذه المعايير إلى استخدام طرق أكثـــر مهارة ، وأساليب تنطق عن فطنة وبراعة ، وتنم عن حذق وذوق ، وتكشف عن أفـــانين بديعة تتلاعب بالكلمات وتبلغ بها حد البلاغة والفصاحة . يبدو أن ابن عبد ربه في إبانته

أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، مصدر سابق ، ص : ٣٠/١٠ .

([1]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٦٦/٣ ..
([2]) السابق نفسه ، ص : ٢٦٦/٣ .

عن منهجه ، وإفصاحه في معرض حديثه، وتسلمه يد الكتابة الأدبية، يتحرك بعصاً جعفرية ، وهي أفكار قدامة بن جعفر[1] في كتابه "نقد النثر "، فلقد بث كثيراً من القضايا البلاغية والنقدية التي عالجها في كتابه ، و لم يشر إلى ذلك في أي مقدمة من مقدماته ، لكنه أفصح عن ذلك بمشابهته ومقايسته لكثير من الأمور البيانية ، واستقى الشواهد المناسبة التي تعضد كثيراً من الأقوال والآراء ؛ لتقوم الحجة بها.

ووجوه البيان تُبينُ من عدة وجوه :

أ – البلاغة :

ليس للأديب غِنًى عن البلاغة ، فهي الباب الذي يخرج ما في الفكر من فطنة وبراعة ، إلا أنها لم تشتمل على كتاب خاص بها من كتب العقد الفريد ، لكنها ظلت حاضرة في ثنايا سطورها التأليفية ، فقد ذُكرت في ستة مواضع متفرقة ، إذ ذكرت في الخطب ، والتوقيعات والفصول ، والمواعظ والزهد ، والنوادب والتعازي والمراثي ، وفي كلام الأعراب ، وفي أخبار زياد والطالبيين والبرامكة .

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأساليب الأدبية لا يمكن أن تبين عن كينونتها الأدبية ومواضع الإجادة بدون أفانين بلاغية ، إذ الهدف هو الإبانة بأحسن الأساليب ، وأفصح الطرق ، ويعرفها تعريفاً حصرياً في الإيجاز حيث يذكر شاهداً في كتاب " العسجدة في كلام الأعراب " جاء فيه : ((تكلم ربيعة الرأي يوماً بكلام في العلم فأكثر ، فكأن العجب داخله ، فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه فقال : ما تعدون البلاغة ياأعرابي ، قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تعدون العيّ ؟، قال : ما كنت فيه منذ اليوم . فكأنما ألقمه حجراً .)) [2]

إن ابن عبد ربه ينبه على التكلم في قالب مختصر، وافٍ بالكثير من العلم والمعرفة، بأقل لفظ يدل عليه ، فكأن تعريف البلاغة هو الإيجاز، الذي عرفه في كتاب " الأجوبة "

---

(1) قدامة بن جعفر صاحب كتاب نقد النثر ، (٢٦٠ – ٣٢٧هـ) ، تحقيق طه حسين بك ، عبد الحميد العبادي ، الطبعة الأميرية بولاق (القاهرة – ط١ – ١٩٤١م)

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤٢٠/٣ .

من غير تصريح أنه تعريف للإيجاز أو أنه سبيل البلاغة ، إذ يقول: ((وأحسن الجواب كله ما كان حاضراً ، مع إصابة معنى وإيجاز لفظ .)) [(١)]

إن اهتمامه بالإيجاز وانشغاله به ، جعله يذكـــر الإطناب ذكراً ســـريعاً في كتـــاب "التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة " فيقول : ((ومن كلام العرب الإختصار والإطناب، والإختصار عندهم أحمد في الجملة ، وإن كان للإطناب موضع لا يصلح إلا له.)) [(٢)]

فلكلٍ من الإطناب والإيجاز موضع لا يصلح إلا له ، ولكن الإهتمـــام بالإيجـــاز واضح على الأقل في هذا الكتاب ، إذ إنه ساق الشواهد التي تبين شرف الإيجاز ومحموده وميزته، من غير ذكر أي شاهد على الإطناب ، والمواضع التي ينبغـــي أن تؤلـــف فيـــه، والإيجاز فيها عيّ ، فكان الكلام على درجتين إما بلاغة بأحسن طريقة له من الإطناب أو الإيجاز وإما عيٌّ.

وفي كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " يقول : ((فأبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد.)) [(٣)] ثم يسوق ثلاث آيات من القرآن الكريم يقول بعدها : ((فهذه أبلغ الحجـــج وأحكـــم المواعظ.)) [(٤)] فوصف القرآن بالبلاغة من غير تحليل للآيات، أو بيان للسبب ، وكانت الآيات التي عرضها ذات أساليب إنشائية طلبية تفيد الأمر ، أو الإستفهام بكيف ، أو لم ، وهي أساليب يستشهد بها القرآن في إقامة الحجة على المشركين ومقارعتهم ، وعن طريق الحجة تنكشف الأدوات البلاغية ، إلا إنه لم يفصل القول في كيفية بلاغة الحجة المقامـــة عليهم. كذلك الحال في كتاب "الدرة في النوادب و التعازي والمراثي " يقول: ((و نحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النوادب والمراثي والتهاني والتعازي ، بأبلغ ما وجدناه مـــن الفطن الذكية ، والألفاظ الشجية ، التي ترق القلوب القاسية ، وتذيب الدموع الجامدة ، مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب ..)) [(٥)] فذكاء الفطن ، وشـــجاء الألفـــاظ ،

---

(١) السابق نفسه : ص ٦/٤ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ١٤٧/٤ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .

(٤) السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .

(٥) السابق نفسه ، ص ٢٦٦/٣ .

وتأثيرها في هذه الأحوال التي يمحى فيها التركيز والتأليف والتفنن، والأخذ بتعابير القلوب ونحيبها وتفجعها، حين تكتوي بحرقة الموت للأحبة ، وتأجج نوادبها في مصابها بألفـــاظ معبرة ،ممّا يعتلج النفوس والقلوب المكتوية ، فيرق لها قلب قاسٍ، وعين جافة، ومشـــاعر ساكنة ، هو في ذلك لفظ بليغ ، استحق ذلك لقوة تأثيره ، و صرخة تأبينـــه ، وصـــدق تعبيره . إن قول ابن عبد ربه قول عام يُوقفك على القاعدة ،ويتركك لتطبق بمـــا تحســـه وتتأثر به ، فترى بعينك الكاشفة أنه بليغ أم لا .

وفي كتاب " الواسطة في الخطب " يقول : ((ثم نذكر بعض خطـــب الخـــوارج الجزالة ألفاظهم وبلاغة منطقهم .)) [1] فالبلاغة هنا متوجهة إلى المنطق ، والمنطق لا يُبين إلا بحجة ظاهرة تقرع الخصم ، ويتوفر لها العلم والفكر ، ومن ثمّ القبول ، فقوة الحجـــة تفصح عن منطقية معرفية واضحة المعايير ، تقبل المجادلة ، قوية الأدلة ، عميقة العقليـــة ، مرنة التفكير ، كل ذلك يشكل منطقاً بيناً يعزز الموقف للمحتج عليه ، ويفرض الســـيادة المعرفية وأسبقتيها إلى الرسوخ والثبات والبلاغة .

ب – بيان العبارة :

إن العبارة الظاهرة غير محتاجة إلى التفسير أو الشرح ، وإنمـــا تســـاق التفاســـير والشروح في كل معنى لَطُفَ وخفي معناه ، وتكون التفاسير خير مفتاح لمغاليق معانيها ، وقد يشكل شيء من الشواهد والأخبار التي ساقها ابن عبد ربه في مقدمات العقد الفريد، خصوصاً إذا كانت الألفاظ تستعمل في معنى لم يكن هو المراد منها ، وحتى يؤمن اللبس يفسر المعنى ويوضحه بعد ذكر الخبر أو الدليل ، من ذلك ذكره حديثاً للنبي ﷺ في كتاب " المرجـــانة الثانيـــة في النساء وصفاهن" [2] ((أوصيكم بالنساء فإهن عندكم عَوان.)) [3] وبعد ذكره للحديث يقول : يعني أسيرات[4] ، ففسر كلمة "عوان " لأن المعنى غائب عن

([1]) السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

([2]) السابق نفسه ، ص : ٨٧/٦ .

([3]) " فاتقوا الله في النساء فإهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً " تخريجه من كتر العمال في سنن الأقوال والأفعال ، لعـــلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي ، تحقيق : بكر حياني ، صفوة الســـقا ، مؤسســـة الرســـالة (بـــيروت – ط٥ – ١٤٠١هـــ / ١٩٨١م) ، ص : ١٣١/٥ .

([4]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، السابق نفسه ، ص : ٨٧/٦ .

ظاهره ، ولكون الحديث لا يحتمل التأويل أو التفسير على غير حقيقته ؛ لأن ذلـــك قـــد يطعن في الدين ، وأذكر أيضاً حديث النبي ﷺ ((حفت الجنة بالمكاره وحفـــت النـــار بالشهوات)) [(١)] . فالحديث يحتاج إلى الإبانة والتفسير اللذين لم يغفل عنهما ابن عبد ربه فيقول : ((يريد أن الطريق إلى الجنة احتمال المكروه في الدنيا ، والطريق إلى النار ركوب الشهوات .)) [(٢)] وفي موضع آخرمن كتاب " المجنبة الثانيـــة في التوقيعـــات والفصـــول والصدور وأخبار الكتبة " [(٣)] يقـــول : قال الـــنبي ﷺ : ((أبغضـــكم إليّ الثرثـــارون المتشدقون)) [٤)] ، يريد أهل الإكثار والتقعير في الكلام .

لا يوجد إلا ثلاثة مواضع يفسر ابن عبد ربه فيها الحديث كله أو لفظةً منه ، وهذا يدل على صعوبة فهم بعض الآيات والأحاديث على كثير من الناس لقرب عهدهم به. أو لمعانيه الخاصة كالجنة والنار ، وفي الوقت نفسه لا يكون التفسير بعد ذلك إلا في موضـــع آخر لقول أحد الحكماء ، وهو من كتاب " المواعظ والزهد "، قالت الحكماء: ((السعيد من وعظ بغيره ، لا يعنون من وعظه غيره ، ولكن من رأى العبر في غيره فاتعظ بهـــا في نفسه .)) [(٥)]

هذه أربعة مواضع ، كان البيان فيها لا غنى له عن التفسير المُعنى بالحديث والخبر ، والتوصل له عن طريق الإستدلال والقياس ، والأخبار الأخرى التي تكون خير معين على فهم المغزى من النص ، فيما عدا ذلك كان البيان بالعبارة ظاهراً ، ومعتمداً على اللفـــظ الفصيح ، الدال على المعنى الصريح ، وهذا يدل على سهولة تناول الكتـــاب، وتَفهمـــه وتقبله، ومسيرته الترددية على الألسنة – بعد ذلك – أسهل وأحفظ ،وأسير في التناقل بين الناس ، إذ إنه لم يجنح فيه إلى نوع من التعقيد أو الغموض مما يَنْفُر منه الناس، خصوصـــاً المبتدئين في العلم والتعلم .

([١]) عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحد زمرلي ، خالد السبع العلمي ، دار الكتاب العربي (بيروت ، ط الأولى ، ١٤٠٧هـ) ، ص : ٤٣٧/٢ .

([٢]) ابن عبد ربه، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٣٦/٣ .

([٣]) السابق نفسه ، ص : ١٤٧/٤ .

([٤]) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبكم وأقربكم مني مجلساً في الجنة أحاسنكم أخلاقاً ، وأبغضكم إليّ الثرثارون المتشدقون المتفيهقون " تخريجه من كتر العمل في سنن الأقوال والأفعال ، لعلاء الدين الهندي ، مصدر سابق ، ص : ٦٦٥/٣

([٥]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٣٥/٣ – ١٣٦ .

ج – أدب الجدل :

عادة ما تختلف الأمزجة العقلية في نظرتها العلمية تجاه موضوع معين تبعاً للزاوية التي تتحرك منها ، والعِلل التي تدعمها ، والحجج التي تقوم بها ، هذا الاختلاف قد يخلق نوعاً من المصادمات والمناظرات كنوع من الجدل العلمي بين العلماء ، لكن هذا الجدل له أدبه وسياسته وطريقته ، إذ لا يسرع في إثبات الحجة إلا بعد التأكد من صحة قوله ، وفي الوقت نفسه لا يقبل قولاً إلا بحجة واضحة عليها ، ولا يرده إلا لعلة قوية تكون في حجتها أقوى و أوثق وأصح .

من هذا المبدأ كان ابن عبد ربه يدون مقدماته خاصةً الأدبية منها ، وكثيراً ما يتحدث وكأنه يرد على خصمه ، ويعلل له القول الأظهر ، والحجة التي منها يتحرك لإظهار هذا القول وتصويبه عن غيره ، مما يدل على أن ثمة خلافاً بائناً بين العلماء ، ويريد أن يشارك في هذا الخلاف، ويثبت رأيه في هذه القضية ، والحجة التي من أجلها كان هذا الرأي أجل وأقدر على حسم هذا الخلاف ، كقوله في كتاب " المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة " ، وبعد أن تحدث عن فضل الإيجاز[1] ((أليس أن الإشارة تبين ما لا يبينه الكلام ، وتبلغ ما يقصر عنه اللسان ،ولكنها إذا قامت مقام اللفظ وسدت مسد الكلام ، كانت أبلغ ، لخفة مؤنتها ، وقلة محملها .))

كان هذا القول بعد حديثه عن فضل الإيجاز وشرفه وحسنه وعظم قدره ، ودلالة ظاهره على باطنه ، وأن تقل حروفه وتكثر معانيه ، واستدل على أن الإشارة تبين ما لايبينه الكلام ، وهي إيجاز بالنسبة إلى إطناب الكلام ، مع قلة وخفة مؤنتها ، وكان هذا الدليل الذي فسره ووضحه ، يرد به على كل من يري في الإيجاز ما هو أقل من الشرف والقدر والحسن ، أو يرى أن الإطناب له صفة الشرف الدائمة ،التي لا مجال فيها إلى الاستغناء عنها بالإيجاز إن كان الإطناب عيّاً .

وابن عبد ربه لم يعرض مسألة الخلاف وتعدد الأقوال ، ولكنه تعرض لها بصورة غير مباشرة في توجيه أسلوب إنشائي ، يفيد الإستفهام عن سبب مخالفة القول بما هو

(1) السابق نفسه ، ص : ٤/١٤٦ .

مجانب للخطأ، ومباعد عن الصواب ، ورد قولهم لعلة بائنة رادة لعلتهم التي ينطقون عنها، وهذا هو أدب الجدل .

وفي قوله في كتاب " الجمانة في الوفود " ((وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته ، أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة ، فهو يوطد لقومه مرة ويتحفظ من أمامه أخرى ، أتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة ، أو مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة ، أم تظن القوم قدموه لفصل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللّسن ، ومجمع الشعر والخطابة .)) [1] مثال آخر على وجود الخلاف والتضارب الفكري ، الذي يثبت ابن عبد ربه فيه الرأي الرشيد ، والقول الحكيم ، وفي هذا المثال دليل على وجود الخلاف بين القوم (أنفسهم) في الوافد الذي يقدمونه عليهم ليتكلم بألسنتهم ، وهو خلاف نابع عن خلافهم حول شروط الوافد ،التي لابد أن تكون موجودة فيه ؛ حتى يقدَّم ويتحدث بحديث جمع جوامع الحكمة ، وصنوف الأدب والفطنة، وابن عبد ربه يبرز الخلاف بطريقة غير مباشرة، فيرد على الرأي المخالف بعلة فسرها ووضحها واستدل على تفسيره بدليل لتقوم الحجة على من خالفه أو رد قوله .

وقد يختلف الأمر في معارضة الأفكار وتصويب الأفهام إلى وجهة أخرى ، إذ يذكر نصاً ويفصل القول فيه ، ثم يرى في هذا النص ثغراً قد يصل إليه بعض الناس فيذكره ويرد عليه ، حتى تستوي الفكرة كاملة تبعاً للعنوان الذي يفصل القول فيه ، من ذلك ما جاء في كتاب " الياقوته في العلم والأدب" إذ يقول فيه : ((إن العاقل إذا لم يعلّم شيئاً كان كمن لا عقل له ، والطفل الصغير لو لم تعرفه أدباً وتلقنه كتاباً كان كأبله البهائم وأضل الدواب.)) [2] فالحديث يدور حول العلم وأهميته ، وانقسامه بين ضرر حمله فقط ، ونفع استعماله ، فقد يخالف هذا الرأي مخالف في أن صاحب العلم القليل قد يكون رأيه أصوب من كثير العلم، فيذكر هذا الزعم أو الرأي المخالف ثم يرد عليه فيقول : ((فإن زعم زاعم فقال : إنا نجد عاقلاً قليل العلم ، فهو يستعمل عقله في قلة علمه فيكون أشدَّ رأياً ، وأنبه فطنة ، وأحسن موارد ومصادر من الكثير العلم مع قلة العقل ، فإن حجتنا

---

(1) السابق نفسه ، ص : ٢/٥ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٢/١٧٧ .

عليه ماذكرناه من حمل العلم واستعماله ، فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب .)) [1]

إن قوله " فإن حجتنا " دليل على إقامة الحجة على الأقوال المردودة ، ولا يكفي أن تعلل بدون أن تكون العلة واضحة ومعللةً لها أيضاً بدليل يدل عليها ، وقد بث الأندلسي المسألة التي يمكن أن تكون على وجه الحقيقة بعد قراءة الكتاب ، ورد عليها واستدل عليها أيضاً بدليل ، إذ يقول : ((قيل للمهلب : بم أدركت ما أدركت ؟ قال بالعلم. قيل له : فإن غيرك علم أكثر مما علمت و لم يدرك ما أدركت. قال : ذلك علم حمل وهذا علم استعمل .)) [2] فالشاهد ليس إلا دليلاً على وجه العلة التي ذكرها ، ودليل أيضاً على الحديث الذي ابتدأ به في تقسيم العلم إلى علمين ، وأنه لا يقول قولاً إلا بعد التثبت والتأكد من صحته ، ويذكر الأدلة التي منها تحدث ووقف على هذا القول دون غيره .

٤ – النقد الأدبي :

أ – اللفظ والمعنى :

((اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته .)) [3] تناول ابن رشيق في باب اللفظ والمعنى مذاهب العلماء في نظرتهم التأليفية الأدبية ، فهناك من لا يفصل بينهما لعدم الانفصال بين الروح والجسد ، وهناك من يؤثر اللفظ ، والمعنى يؤثره فريق ثالث .[2] وإن كان ابن عبد ربه لم يجعل كتاباً يطرح هذه القضية ويفصل القول فيها، إلا أنه يتحدث عن اللفظ والمعنى من خلال

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١٧٧/٢ .

(2) السابق نفسه ، ص : ١٧٨/٢ .

(3) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق ، ص : ١٢٤/١ .

(٢) ينظر : السابق نفسه ، ١/ ١٢٤ _ ١٢٧ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢ .

(٤) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .

المقدمات في أثناء طرحه للعناوين ، التي تتطلب الاعتناء في اختيار الألفاظ والمعاني؛ لكونها يهتمان بالأدبية النظمية للنثر والشعر . وحديثه فيه تأييد للمذهب الأول الذي يرى بضرورة اللفظ والمعنى في بناء الجملة النظمية ، وينظر لها على أنها شيء واحد ، ففي كتاب "الوفود" يقول : ((ومشاهد حفل يتخير لها الكلام ، وتستهذب الألفاظ ، وتستجزل المعاني .)) [٣] وفي كتاب " الجوهرة في الأمثال " : ((التي هي وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني .)) [٤]

في هذين القولين يكون الحديث عن الكلام الذي هو النظم في صورته العامة ، ثم تفنيد القول إلى شقين هما اللفظ والمعنى ، فالألفاظ يجب أن تكون مهذبة ، وذات قيمة جوهرية ، تضيء النص في حدود المعاني التي تحملها ؛حتى تكون هذه المعاني ذات قيمة أيضاً ، ومستجزلة الفيض ، وحلوة التناول . وهو في ذلك يوافق ابن قتيبة حين قسم ضروب الشعر في الألفاظ والمعاني إلى أربعة أضرب ، ويؤيده في الضرب الأول الذي حسن لفظه وجاد معناه [١] ويوافقه عليه ، لأنه أحسن الضروب وأسماها وأشرفها .

وفي مقدمات أخرى قد يدور الحديث عن اللفظ دون المعنى وذلك كقوله في كتاب " النوادب والتعازي" ((والألفاظ الشجية ، التي ترق القلوب القاسية ، وتذيب الدموع الجامدة ، مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب ، فنادبة تثير الحزن من ربضته ، وتبعث الوجد من رقدته ، بصوت كترجيع الطير ، وتقطع أنفاس المآتم ، وتترك صدعاً في القلوب الجلامد .)) [٢]

وقوله في كتاب " الواسطة في الخطب " ((نذكر بعض خطب الخوارج ، لجزالة ألفاظهم ، وبلاغة منطقهم ..)) [٣]

والحديث عن الألفاظ وجزالتها وشجاءتها دون المعاني وحلاوتها وانتقائها ، لأن المعاني واضحة في مثل النوادب والتعازي ؛ إذ إن الاهتمام يجب أن يكون نحو الألفاظ التي تناسب الموقف ، وتعبر عنه في مثل هذا النحيب والعزاء ، كذلك الحال في مذهب الخوارج ، فلوضوح مذهبهم و المعاني التي يحاولون بثها وطرحها ،جعل الحديث عن

([١]) ابن قتيبة الدينوري ، الشعر والشعراء ، مصدر سابق ، ص ٨/١ – ١١ .

([٢]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٦٦/٣ .

([٣]) السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

ألفاظهم فقط ، فخصوصية الموقف والمعنى الذي يؤطره جعل التركيز يلتفت إلى الألفـــاظ الخاصة ، التي تتعامل مع الموقف بدقة وحزم ، مع موافقتها لعمق المعنى وحدوده ، كـــي تستطيع التعبير عنه بطريقة مؤثرة.

ب – الحكم النقدي :

لا يكون إطلاق الأحكام النقدية إلا بعد إقامة مقايسات ومناظرات بين شيئين أو أكثر ، وعلى هذه الطريقة دأب ابن عبد ربه في إطلاقه للأحكام النقديـــة علـــى بعـــض الكتب، وبين سبب حوزها على نصيب من التأليف بمقارنتها مع غيرها ، وبـــين وجـــه مفاضلتها لأقرانها التي منها كانت الأفضل ، وذلك مثل قوله في كتـــاب " الجـــوهرة في الأمثال ": ((فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء سيرها ولا عـــم عمومها ، حتى قيل : أسير من مثل .)) (١)

إن قوله " أبقى وأشرف " دليل على المفاضلة بأسماء تفضيل تنسب الفضل إلى أحد المفاضلين مع وجوده في الآخر ، ووجه المفاضلة في الشرف والبقاء ، وهذا لا ينتقص من حق الشعر والخطابة ، وينزل من قيمتهما عنده ، بدليل تأليف كتابين في كل منهما ، وقد وضح العلة التي من أجلها كان للمثل شرف وبقاء ، وهي مسيرته وعموميته السريعة بين الناس عن طريق التناقل والتداول .

وقوله في كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " : ((فأبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعز الذي لا يأتيه البطل من بين يديه ولا من خلفه .)) (٢) فإذا كانـــت هنـــاك مفاضلة تفاضل كلام الله تعالى مع كلام غيره أو من دونه ، فالحكم الفاصل لن يكون إلا لكلام الله تعالى ، وذلك لبلاغة الحجة وحكمة الموعظة .

ومن جهة ثانية يفاضل بين كلام الأعراب وكلام غيرهم ، ويبين السبب الذي من أجله كان كلام الأعراب خاصة دون غيرهم بقوله : ((إذ كان أشرف الكلام حســـباً ، وأكثره رونقاً ، وأحسنه ديباجاً ، وأقله كلفة ، وأوضحهُ طريقة ، إذ كان مدار الكـــلام

(١) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .

كله عليه ، ومنتسبة إليه .)) (١) فأحكامه النقدية نابعة من الشرف، والوضوح والحسن، وقلة الكلفة، وكثرة الرونق . وفي " التوقيعات والفصول والصدور " تحدث عن فضل الإيجاز وكأنه يقارن بينه وبين الإطناب فيقول ((إذ كان أشرف الكلام كله حسناً ، وأرفعه قدراً، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقله على اللسان عملاً : ما دل بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه وتكثر معانيه.)) (٢) فبين سبب استحقاقه للشرف والرفعة، والعظمة الموقعية في القلوب ، وقلة عمله على اللسان، في دلالته وكفايته وشهوده ، وهذا لا يدل على وضاعة وكلافة الإطناب، وإنما حق الموضعة التأليفية هي التي تثبت رفعة الإيجاز أو الإطناب ، لكن في الإيجاز صنعه لا تكون إلا فيه ، يوضح الكثير ، ويدل على الكفاية بقليله ، ويشهد على باطنه بظاهره ، ويؤمى إلى معانيه بإشارته ، إضافة إلى خفته الوزنية ، وبلاغته الفطنية .

في النقد الأدبي البدائي كان النقد يطرح نفسه بدون معللات أو أسباب ، وإنما يبني أحكامه وفق الذوق الخاص ، إلى أن بدأ يستوي في تحديد معالمه وحدوده بالتخلي عن الصمت الحكمي، المجرد من التفسير أو التعليل ، خاصةً في القرن الرابع الهجري، إذ استقى لنفسه معايير أدبية يتحرك من خلالها ويقبل ويرفض تبعاً لها ، ومن المعايير التي نظر ابن عبد ربه من خلالها :شرف الكلام ورونقه، وحسنه، وقلة الكلفة، ووضوح الطريقة، والبقاء ، وهذه المعايير ليست ثابتة ، بل يمكن أن تُبنى أحكاماً على ما يسير بخلافها ، فوضوح الطريقة مثلاً معيار نقدي لا يطلب أكثر من وضوح مسالكه في الإفهام ، وإذا ما كان في الكلام ضيق وغموض فإن النقد لا يتقبله؛ لتباين الطريقين في الفهم والفكر ، ولكن ابن عبد ربه يقلب الأمر في كتاب " المجنبة في الأجوبة " : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام كله مركباً ، وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً ، وأضيقه مسلكاً ، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة ، واستعمال القريحة ، يروم في بديهته نقض ما أبرم القائل في رويته ، فهو كمن أخذت عليه الفجاج ، وسدت عليه المخارج ، قد اعترض الأسنة ، واستهدف للمرامي .)) (٣)

---

(١) **السابق نفسه ، ص : ٤/٤٢٠ .**

(٢) **السابق نفسه ، ص : ٤/١٤٦ .**

(٣) **السابق نفسه ، ص : ٤/٥ .**

فصعوبة الكلام، وضيق المسلك، وغموض المذهب، معايير لا يمكن أن تبنى عليها مميزات تحسب في سلم النقد الجيد بين المنتقدين ، لكنه أراد به الموقف الذي يُخرج ما في حفيظة الفكر مع سرعة بديهة، وإصابة جواب، وكفاية معنى وإيجاز لفظ ، وهو في جوابه أجوب ممن تروى وتفكّر واجتهد، وأخذ كفايته في استحضارالجواب ، الذي يرد به على سؤال السائل، وإن كان جوابه شافياً وافياً لا يعتريه خطأ أو نقص .

ويذهب هذا البحث إلى أن المعايير النقدية في جميع هذه الشواهد تعـــود إلى أصـــلين مائزين هما : اللفظ والمعنى من غير تفضيل لأحدهما على الآخر ، أو تفكيك بينـــهما ، أو استئثار بلفظ على معنى ، أو بمعنى على لفظ ، ونعوت الصفات في النقد تعود إلى دورهما في النص ، وإن لم يقل بذلك ؛ لأن الوضوح والحسن وقلة الكلفة لا يمكن أن يكون إلا في معنى هُدي إليه بدلالة لفظه عليه ، ولذلك يقول : ((وأحسن الجواب كله ما كـــان حاضراً ، مع إصابة معنى وإيجاز لفظ .)) [1] فحسن الجواب يعود إلى اللفـــظ والمعـــنى ، والأحسن منه ماكان حاضراً في سرعة بديهيته ، لكن لا غنى له عن مائزة في الفظ الموجز والمعنى الصحيح الصائب

([1]) السابق نفسه ، ص : ٤/٦ .

المبحث الثاني

المضامين السياسية

إن الحياة الأدبية هي مرآة للحياة السياسية ، وهي صورة لمعانٍ ومفـــاهيم سياســـية شاركت في تلوين حياها ، وتجسيد أحاسيسها المتخوفة ونفوســـها القلقـــة ، وســـطرت بمنثورها ومنظومها وبيالها مشاعر تلك الغربة ، التي فرضت نوعاً من المقارنة بينها وبـــين المشرق ، ذي المجد التليد الذي تركوه وهاجروا عنه ، فلم ينعموا بعد بالاستقرار والأمن ، لكن مشاعرهم وآمالهم لم تنزو عن ديارهم المشرقية وباتت متعلقة بها ، لذلك نجد ابن عبد ربه يسطر تلك الأحاسيس المغتربة، والنفوس المحترقة ، ويؤلف عدة كتب من كتاب العقد في المجال السياسي المتعلق بالسلطان وحُكمه وأخباره ، ويمكن الحديث في هذا المبحث عن عدة نقاط رئيسية تفصله وتوضحه وهي :

١ – السلطان :

إن للمجتمع الأندلسية سلطة عليا تقوم على شئون الناس وحكمهم ، وتكون في يد السلطان ، وذلك لأنه ((زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا . وهو حمى الله في بلاده ، وظله الممدود على عباده ، به يمتنـــع حريمهم، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .)) [1] إن إفراد أول كتاب من كتب العقد بعنوان " اللؤلؤة في السلطان " يدل على عظم مكانته ، وأهمية وجوده ، ويبدو أن الأنظار كانت متوجهة إلى هذا الكرسي دون أن يكون لها فيه وجه حق ، لذلك أراد أن يُعرف مهام السلطان التي يجب أن يتقلدها الحاكم في نفسه قبل أن يتقلـــد هـــذا المنصب ، ثم إن التنازع على هذا المنصب أمر راجع إلى تعدد الأجناس البشرية ،إذ تسعى كل واحد منها إلى فرض سيادة سلطانية على كافة الشعب الأندلسي ، هذا التنازع يؤدي إلى هضم حق الرعية في بعض الأحيان ، فيكثر الظلم ويعم الخوف ، وتسوء الأحـــوال ، ولا سبيل إلى التخلص من ذلك إلا بتقليد إمام عادل في حكمه ، يستوي الشعب تحـــت

(1) الأندلسي ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٠/١ .

إمرته إستواءً واحدً ، فيعم الأمن والأمان ، ويرتدع الظالم، وينتصر المظلوم ، لذلك كانت الشواهد في هذا الباب عن العدل والاهتمام بمصالح الرعية وشؤونها كثيرة ، ومن ذلك :
قول النبي ﷺ: " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " (١)
وقال عبد الله بن عمر : ((إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.)) (٢) فالعدل والاهتمام بمصالح الرعية من حقوق الرعية على راعيهم ، وبينهما علاقة أزلية ، فلا يمكن أن يهتم بمصالح الرعية إلا بالعدل ، ولا يمكن أن يعدل إلا في رعايته لشؤونهم ، وقيامه على حقوقهم الداخلية من الأمن والأمان ، والسعي على تحقيق جميع مطالبهم .

يقول ابن عبد ربه : ((فحق على من قلّده الله أزمة حكمه ، وملكه أمور خلقه ، واختصه بإحسانه ، ومكن له في سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه الله من الكرامة ، وأجرى عليه من أسباب السعادة.)) (٣)
فحق على السلطان الذي تقلد الحكم ، وله من فضل الله عليه مفاتيح الخير وأسباب السعادة ، أن يكون معتنياً بأهل طاعته ، ومهتماً بمصالح رعيته ، وهذا الحق قد لا يلقى عند الرعية إلا الانتقاص والتخطئة حتى لو كان الحاكم يؤدي حكمه على أكمل وجه ؛ لأن ذلك من الأمور العامة التي تعترض الحاكم وتنطوي على ألسنة الأغلب من الناس لذلك يقول : ((من شأن الرعية قلة الرضى عن الأئمة ، وتحجر العذر عليهم ، وإلزام اللائمة لهم ، ورب ملوم لا ذنب له ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة ، إذ كان رضى جملتها ، وموافقة جماعتها من المعجز الذي لا يدرك ، والممتنع الذي لا يملك .)) (٤)
وقول ابن عبد ربه يدل على حضوره في البلاط السلطاني ، ومعرفته لطريقة الملوك في تدبيرهم لشئون بلادهم ، ونواياهم الصادقة في إقامة العدل ، وتيسير شؤون ومصالح الرعية ، واستحقاقهم لذلك التقدير الذي يجدونه من الرعية ، أو التضجر الذي ينم عن

---

(١) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، دار العربية (بيروت ، بدون ط وتاريخ) ،في باب : "العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه "، ص : ٨٧/٣ .
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٢/١ .
(٣) السابق نفسه ، ص : ٢٠/١ .
(٤) السابق نفسه ، ص : ٢٢/١ .

الإحساس بالذل والهوان والظلم والحرمان ، ثم حضوره بين أفراد الشعب واستماعه إلى آرائهم الإيجابية والسلبية التي هي صدى للحكم السياسي ، وقد يوافق هذا ويعارض ذلك لكنه في النهاية يجد العدل والاهتمام بمصالح رعيته حقاً لهم وإن كانوا مخالفين له جميعهم أو بعضهم ، ومن حقه عليهم الطاعة العامة التي لا تسفر عن ما في نفوسهم من البغض والحقد والكراهية ، ((كما قال زياد لما قدم العراق والياً عليها : أيها الناس قد كانت بيني وبينكم إحن ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان محسناً فليزدد في إحسانه ، ومن كان مسيئاً فليترع عن إساءته ، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً و لم أهتك له ستراً حتى يبدي صفحته لي.))[1] فالحقوق قائمة ، وما في الصدرو ليس له قانون يعاقبه أو يوبخه ، لكن محاولة نزع هذه الإساءة أولى من تركها ، وليس على السلطان إلا إعانة رعيته على طاعته بما يقربهم منه ومن حكمه ، ولا ينفرهم منه فينقلبوا عليه بغيره .

((ولكل حصته من العدل ، ومترلته من الحكم ، فمن حق الإمام على رعيته أن يقضي عليهم بالأغلب من فعله والأعم من حكمه ، ومن حق الرعية على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها ، وإضرابه صفحاً عن مكاشفتها .))[2] فإذا كانت العدالة سمة يتطلبها الحكم السياسي ، فإن هذا النص يوقفنا على صفة القضاء بين الرعية ، بأن يبث حكمه فور سماعه للقضية ، أو عند الاختصام بين يديه في أمر دنيوي ، وهذا يدل على أن القضاء كان في بلاط الخلافة والسلطان هو القاضي .

إن القضاء من أهم الحقوق التي توقف الرعية على صدق الحاكم وعدالته ، وما عنده من حكمة يتبصر بها في الأمور المعقدة ، ليكشف وجه الحقيقة ، ويرد الظالم ويردعه وينصر المظلوم ويؤيده ، يقول ابن عبد ربه : (وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلص من أنشوطة الهلاك ، وتفلت من حبائل المنية بحسن التنصل ، ولطيف التوصل ، ولين الجواب ، ورقيق الاستعتاب ، حتى عادت سيئاته حسنات وعيض بالثواب بدلاً من العقاب .))[3] فإذا كان الحاكم يرسل أوامره إلى من تحته ، لتنفيذ أمر قد قضى به في

([1]) السابق نفسه ، ص : ٢٢/١ .

([2]) السابق نفسه ، ص : ٢٢/١ .

([3]) السابق نفسه ، ص ٩٤/٢ .

شخص ما قد أذنب أو أساء ، فإنه قد يرجع عن ذلك ويعود عنه ، متى ما استطاع هـذا الشخص أن يحسن الاعتذار ، أو يبدع في التوصل ، أو يسل دفائن الرحمة من قلبـه ، أو يستأثر على عفوه برقة استعتابه ، وهذا يدل على الأخذ والرد في لغة حوار راقيـة بـين الخلفاء والرعية ، يسمع فيها الخليفة ثم يحكم ، بل إن مسامعه لا ترد أصوات من نزل بهم حكم يفضي بالهلاك والعقاب ، بل قد يتراجع عن حكمه ويكون الثواب والسلام .

٢ – الشخصية السلطانية :

تختلف الألقاب السلطانية عند ابن عبد ربه وذلك واضح من خـلال العنـاوين المعنونة للكتب ، فهناك كتاب " اللؤلؤة في السلطان "[١]، وهناك كتـاب " المرجانـة في مخاطبة الملوك "[٢]، وهناك كتاب " العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيـامهم "[٣]، فالسلطان والملك والخليفة ألقاب يعرف بها الحاكم ، ولم يستخدم لقباً ويـدع آخـر ، لاختصاص الألقاب عند الأجناس البشرية المؤلفة للمجتمع الأندلسي ، كملوك الفـرس ، وخلفاء بني العباس أو بني أمية ، وأيّاً كان اللقب المستخدم إلا أن المهام السلطانية لا تتأثر بالألقاب ، ولا تفرض سياسة متقلدة بلقب معين أو ترتبط به إرتباطاً خاصاً ، هذا التنويع يتقصده ابن عبد ربه في تأليفه للمقدمات ، ومن ذلك قوله : ((السلطان زمـام الأمـور ونظام الحقوق))[٤]، ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الخلفاء والملوك))[٥]، فهذا التنويع يدل على الفرق اللفظي فقط على حسب اللقب المستخدم في هذا الشعب أو ذاك ، أما المهام السلطانية فقد قررها في أول كتاب من كتابه ، وهي لكل حاكم يحكم شعباً أو دولة ، ويريد أن يسود الوئام والتفاهم بينه وبين شعبه ، فيرضى عنهم ويرضون عنه .

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٢٠/١ .
(٢) السابق نفسه ، ص : ٩٤/٢ .
(٣) السابق نفسه ، ص : ٢٣٣/٤ .
(٤) السابق نفسه ، ص : ٢٠/١ .
(٥) السابق نفسه ، ص : ٥/٢ .

قد يجد الحاكم أو الخليفة صعوبات وعقبات في بداية الحكم ، لكن خبرته الخاصة وتدبيره الدقيق أمور يرتكن إليها ؛ لتبرز ما عنده من أفكار سياسية ، تقوي مكانته ، وتكشف أعوانه ، وترد أعداءه .

وقال : ((هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقها ، حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان .)) (١) جاء هذا القول في تقديمه لكتاب " اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة "، فاحتمال الأعباء ، وسكون الشوارد ، وممارسة الأمور ، وتجريب الدهور ، لا تكون إلا من قيادة حكيمة قوية لمجموعة من الحكام لهم السلطة والسيادة عينها ، فلا تذكر قياداتهم إلا باسمهم كالبرامكة ، وقد يكون حاكم فذ استطاع أن ينقش على صفحة التاريخ دولة إسلامية بخط سياسته ، كزياد والحجاج ، وهما من دهاة وجبابرة العرب، اللذان وطدا ملك بني أمية ، وكانا من الفصاحة والبلاغة ما بين موقفهما ، ودعّم حجتهما .

يبدو لي أن ابن عبد ربه كان يريد أن يختار من هؤلاء أنموذجاً حسياً لمتطلبات السلطان العلمية والأخلاقية والشخصية ، عن طريق الوقوف على سيرتهم السياسية والبلاغية ، ومعرفة تصرفهم في بعض المواطن التي تعترض كل ذي سلطان في سلطانه ، وهذه المتطلبات يجمعها قول ابن عبد ربه : ((إذ كان هؤلاء الذي جردنا لهم كتابنا هذا ، قطب الملك الذي عليه مدارس السياسة ، ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان .)) (٢) فمن خلال هؤلاء أراد ابن عبد ربه أن يقوم السلوكيات الأسلوبية لدى السلطان ، حتى تكون معه في هيلكة سلطانية مندمجة ، ومتزاوجة لشخصيته .

لا يمكن أن يكون السلطان في سلطانه منفرداً دون وجود من يعينه أو يساعده من خدم وحشم ، أو من يوليه بعض المهام كالوزراء والسجان والحجاب والكتاب ، ولا يعين السلطان إلا من يجد فيه الأحقية لهذا المنصب، لكن ابن عبد ربه لم يفصل القول إلا في كتاب " العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم " إذ يقول : ((وهذا كتاب

(١) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

ألفناه في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وأسماء كتابهم وحجابهم))[1] وكان التفصيل في هذا الكتاب عن الكتّاب والحجاب دون غيرهم ممن يعمل في هذا القصر ، وهذا يدل على عظم قدرهم ، وأهمية صنيعهم ، وثقل مكانهم في الدولة ، والعناية أشد العناية باختيارهم ، فهم واجهة الدولة وسلطانها، ومستودع أسرارها ، وحفظة أخزانها ، ومفاتيح تدبيرها ، ورافقت أسماؤهم أسماء خلفائهم ، فإذا ما ذكر الخليفة أو السلطان ذكر كاتبه وكتاباته، وحاجبه وإدخاله ورده عن سلطانه ، بل إن الخليفة يوكل إلى كاتبه مايكتب ، من ذلك ما ذكره ابن عبد ربه من الشواهد : ((بعث إلى مروان بن محمد قائد من قواده بغلام أسود، فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يلحاه ويعنفه ، فكتب وأكثر ، فاستثقل ذلك مروان .))[2]

فالشاهد يدل على أن الكاتب يتلقى من رئيسه الغرض الذي من أجله يكتب ، سواء كان للتهنئة أم التعنيف أم لإرسال دعوة ، فيختار من حفيظته ما يناسب الغرض ويؤدي معناه في الكتابة ، ويبعث بها إلى المرسل إليه دون الرجوع إلى مرؤسه فيما كتب .

٣- الأوضاع السياسية :

إن الأوضاع السياسية هي أوضاع واقعة في المجتمع الأندلسي ، وتصف ماعليه من السلطان من الإهتمام في ثبات الأوضاع الداخلية والخارجية ، لذلك ينطوي تحت هذا العنوان محوران أساسيان هما : الأوضاع السياسية الخارجية والأوضاع السياسية الداخلية :

أ – الأوضاع السياسية الخارجية :

لم تكن الأوضاع السياسية في خارج البلاد مستقرة ، إذ البلاد ما زالت توطد حكمها وقوتها عن طريق خوص المعارك والحروب ، التي تهدف إلى نشر الإسلام ، وفتح المدن ، وزيادة مساحة الرقعة الإسلامية ، ولا شك أن ذلك يستنزف من وقتها وقوتها الشيء الكثير ، إذا كانت الحروب هي تقابل جيشين واحتدام الصراع الدموي بينهما ، فإن ذلك يكون إما محموداً أو مذموماً ، وذلك من معرفة الهدف من هذه الحروب ، هذا الهدف يتحدد بمعرفة أنواع الحروب ، وهي كما بينها ابن خلدون في كتابه " المقدمة "[3]

([1]) السابق نفسه ، ص : ٢٣٣/٤

([2]) السابق نفسه ، ص : ١٤٧/٤ .

([3]) عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم (بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١م) ، ص : ٢٧٠-٢٧١.

منها ما يكون بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة بغرض الانتقام والعصبية ، وقد تكون بين الأمم المتوحشة الساكنين في الفقر بغرض العدوان والسلب والنهب ، وهناك الحروب التي تجري غضباً لله ودينه وهي الجهاد في سبيل الله ، وأخيراً ما يكون من الدولة ضد الخارجين عليها والمانعين لطاعتها ، وهي العدل في حكمها . فالنوعان الأولان يراد بهما البغي والظلم ، والآخران هما الجهاد وبسط العدل ، والآمان في البلاد والانتصار للحق والدين ، والحد من الشغب والعدوان والبغي والظلم .

وقد ألف ابن عبد ربه كتاب "الفريدة في الحروب ومدار أمرها" بعد كتاب "السلطان" مباشرة ، وكأنه يريد أن يوضح أهمية السلطان في الإمساك بزمام الأمور ، وأهمية السلطان في توجيه الحروب ، وإذا كان السلطان يستحق أول رسالة بتأليف أول كتاب، فإن الحروب وخوضها رسالة كبرى ، وهي عصب السياسة ، وعنوان الرئاسة ، بها تعبر الدولة عن قوتها وهيبتها ومرادها، و عن طريق خوض هذه الحروب تتحقق الآمال ، وتُؤَمّن الأرجاء ، وترد عنها المطامع ، ويهابها الرجال .

يقول : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ، ومدار أمرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبر لها من أعمال الخدمة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة، وإذكاء العيون وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات ، هذا بعد معرفة أحكامها، وأحكام معرفته ، وطول تجربته لها ، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش.))[1]

ففي قوله ما يدل على ذلك العبء الملقى على عاتق السلطان من أعمال الخدمة ، وتدبير الجيوش وقيادتها ، وانتهاز فرصة إنشغال العدو عنه ، وإذكاء العيون حتى لا ينكل به وبجيشه ، وهي مهام يتدبر السلطان أمرها حتى لو لم يخرج بنفسه على قيادة الجيش ، وهذا يعني أنه يتحمل عاقبة المعركة من الانتصار والفتح ، أو الخسارة في حين لم يقر جيشه على خطة يرتسمها لهم ، حتى يسيروا عليها فينتصروا ، وهو كذلك مسؤول عن جنده وحالهم في المعركة ومعاناتهم ، ومقاساتهم التي يمكن ألاّ يتحملوها ، كأن يتعرضوا

(1) الأندلسي ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٢١/١.

لجبال ، أو أمطار ، أو برد قارص خلال خروجهم للحرب ، فيضع في حسبانه كل هذه الأمور ويتعامل معها تعامل الحكيم المواجه للأمور الشديدة والصعبة .

وإذا كانت الجيوش تضم عناصر وفصائل دخلت إلى الإسلام من جديد ، فهذا يعني أن يتعلموا أمور الإسلام في الحروب قبل الإنضمام للجيوش ، وهي أن يقاتلوا من قاتلهم ، ولا يقتلوا امرأة ولا صبياً ولا هرماً ، ولا يقطعوا شجراً مثمراً ، ولا يصلبوا أو يحرقوا أحداً ممن قتلوهم ، وأن يبدؤوا حربهم بتخيير عدوهم بين الإسلام والجزية والحرب. من هذه المباديء الإسلامية يتبين نوع الحرب التي من أجلها سيرت الجيوش وامتطيت الخيول ، وهي نشر الدين الإسلامي من خلال الجهاد في سبيل الله ، والضرب على المانعين الخارجين عن حكم الدولة ، والمتحصنين في البلاد مكنين الحقد والعداوة للمسلمين في البلاد الإسلامية ، ويدبرون المكائد ، ويَدسون الدسائس ، وينظمون الخطط التي يغزون بها البلاد ، فيفرقون العباد . لذلك كانت مع البلاد الإسلامية في حروب مستمرة ، مما أطال مدة الأمان فترة من الزمن في الأندلس ، وكان لابد من الصبر على هذه المعاناة، ومواجهة الخصم بلقائهم في المعركة وحربهم وكسر شوكتهم ، وفي ذلك يقول : ((نذكر كرم الإقدام ومحمود عاقبته ، ولؤم الفرار ومذموم مغبته .))[١] فالعاقبة المحمودة ستكون بكرم الإقدام ، ومذموم العاقبة ستكون من لؤم الفرار ، وكان هذا القول بعد ذكره لمعاناة الجيوش ، ومقاساة الحروب ، وهذا يدل على صعوبة الموقف وشدة الخطب ، ومهما كانت الأسباب فلا بد من الصبر في المعركة حتى ينجو الجميع وينتصروا ، فهو يحثهم على الاستبسال والإقدام والشجاعة مما يحمد عقباه ، وينهاهم عن التخاذل والتجابن والخوف الذي يزدريهم إلى الفرار مما يذم عقباه .

وكأنه بكلماته يستحضر أمجاد أجداده ، التي ضاعت واضمحلت بين الأمجاد المفقودة، بعد أن رسخت وقامت على أعباء الأمويين وتاريخهم وسيرهم البطولية ، لكن الأسباب والضعف قد اجتمعا فيها وأضعفاها وأنهياها ، لذلك كان عنوان الكتاب

" الحروب ومدار أمرها " ، فهو عنوان يوقفك على النتائج النهائية ، وينهاك عن الإغترار في بداية المعركة بما أنت فيه من القتال ، والتعنيف بعدوك ، ويقينك بإنتصاركم وهزيمتهم،

---

(١) السابق نفسه ، ص : ١٢١/١ .

فربما تقلب الأمور رأساً على عقب ، وتتحول المعركة لصالح عدوك من حيث لا تشعر ، وتدور رحى الحرب على المسلمين وبلادهم .

ب – الأوضاع السياسية الداخلية :

كانت الأوضاع السياسية في داخل البلاد مستقرة إلى حد ما ؛ لأن الدولة كانت تتمتع بقوتها، يدل على ذلك تلك العناوين العريضة التي تخفي ورآءها تلميحًا وترميزًا ، فيقول في كتاب "الجمانة في الوفود": ((ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته يترعون ، وعن رأيه يصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة.)) [١] وقد جرت العادة أن تتقدم القبائل لتعلن عن بيعتها بين يدي الحاكم ، ويقدمون أحسنهم قولاً وأصوبهم رأياً، حتى يتكلم بلسانهم جميعاً ، فإذا كان هناك أمر يجبرهم على تقديم الولاء والطاعة فهو مهابة أمره وقوته ، وقد تضمر الأنفس تطلعها نحو مقام الرئاسة ، فتختلف عليها ، وتكثر المناوشات والثورات بين المجتمع من أجل الحصول على السيادة السلطانية ، وإذا كانت القبيلة تثق برأي واحد فيهم ، فهذا يعني قدرته على إقناعهم ، وتشييد نفوسهم وتأليبها على السلطان ، إذا كان لا يرى فيه أهلاً للولاية ، من ثم يدخل مع السلطان في إغارات وثورات قد يستطيع بها سحب البساط من تحت قدميه ، والظفر بالرئاسة ، لكونهم يرون صلاح البلاد في حكمهم وقيادتهم .

وهذا الخلاف مرده إلى طبيعة النفس التي اعتادت على حب التملك والترؤس ، كطبيعة ليس لها هم سوى التغلب والمكاثرة ، والمنافسة المفروضة على الخصم من باب الحقد والعداوة له ، لذلك يقول : ((فمنهم من نفسه غضبية ، فإنما همة منافسة الأكفاء ، ومغالبة الأقران ، ومكاثرة العشيرة .)) [٢] فالرغبة في السلطة ليست إلا للسيادة الاسمية ، والتغلب على الجميع من باب الإذلال والتطويع والانقياد لأوامره ، والتكثير لهؤلاء

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٥/٢.

(٢) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .

الإنقياديين المطيعين ، فتتحرك نفسه الغاضبة القابضة لكل هذه المهام ، مما يعني أن الخروج عن طاعته ومحاربته أمر يوجله إلى تصَرفٍ غير مشروع ، لايفسره سوى الظلم والعدوان ، والتجبر على الضعفاء .

يظهر لي أن ابن عبد ربه كان ينظر بعين قارنة ، فارقة بين المشرق والمغرب ، من حيث اختيار الخليفة أو السلطان ، فإذا كان البلاط المشرقي يستأثر بالخلافة على نظـــام الوراثة ، فإن المغربي يرفضه ويزجره ، وترى ذلك من خلال ما ذكره ابن عبد ربه في باب السلطان وقدرته على بسط العدل والرفق بالرعية .

ويظهر أيضاً أن ابن عبد ربه كان يكتب وهو يضع يده على تلك الأنفس الطامعة الطالبة بغضب ، والمنافسة بظلم ، والفارضة للدم العربي أو العجمي ، الرافضة لصــــلاح المجتمع العام لرفض همتها النفسية ذلك ، فهم على هذه الحال لا يطمعون في كرامة عيش، و محاربة ظلم ، وبسط عدل .

لذلك فقد آذنوا أنفسهم بحرب شعواء لخروجهم عن جماعة الكلمة ، وتفرقهم عنها ولذلك يقول ((هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها .)) [١] كان من مهام السلطان أو الخليفة مواجهة الصعاب وتذليلها ، وكســـر شوكة المتمردين ، وخزم أنوف العاصين الذين بين يديه ، حتى يكونوا عـــبرة لأولئـــك الشوارد النافرين عن الطاعة ، والخارجين عن رأي الجماعة ، يصـــوبون رأيهـــم بـــرأي سلطانهم ، ولا يحيدون عنه ولا عن حكمه .

فإذا كان ابن عبد ربه يحضر بلاط الملوك ، ويعلم ما يدور فيهـــا مـــن أحكـــام وقرارات داخلية وخارجية ؛ فهذا يدل على علمه الأسبق إلى خطر هؤلاء النافرين، وعظم فتنتهم الداخلية ، وينبغي محاربة سلوكهم ، والتأهب لشرورهم ، والإحاطـــة بخطـــرهم والإيقاع بهم، والتخلص منهم .

وضع ابن عبد ربه كتاباً في " المتنبئين والممـــرورين والـــبخلاء والطفيلـــيين " [٢] وأوضح فيه أن أخبارهم ((طرفة ونادرة ، فكأنها أنوار مزخرفة أو حلل منشرة ، دانيـــة

([١]) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

([٢]) السابق نفسه ، ص : ١٥١/٦ .

القطوف من جاني ثمرها ، قريبة المسافة لمن طلبها.)) [1] و لم يذكر في مقدمةالكتاب مـــن الشواهد إلا ما يتعلق بالمتنبئين الذين ادعوا النبوة ، ولا شك أن هذا أمر خطير ، ومصاب جلل ، إذ لا دين لدى هؤلاء ومن اتبعهم ، ومن الشواهد في هذا الكتاب قال أبو الطيب اليزيدي : ((أخذ رجل ادعى النبوة أيام المهدي فأدخل عليه فقال له : أنت نبي ؟ قال : نعم ! قال : وإلى من بعثت ؟ قال : أو تركتموني أذهـــب إلى أحـــد ؟ ســـاعة بعثـــت وضعتموني في الحبس ! فضحك منه المهدي وخلّى سبيله)) [2] فإذا كان ابن عبد ربه قد أوضح في مقدمته أن أخبارهم طرفة ونادرة ، فهذا الشاهد يثبت تلك النادرة حين تـــرك المهدي هذا المتنبئ بعد مساءلته واستجوابه ، وعلمه بوهن ما يدعو إليه ، وتعامـــل معـــه وكأنه جاهل أو غبي ، أو خفيف الظل متندر وممازح ، أو عالم بكذب نفســـه قبـــل أن يكذبه الناس .

((تنبأ رجل بالكوفة وأحل الخمر ، ولقي ابن عياش وكان مغرماً بالشراب، فقال له: أشعرت أنه بعث نبي يحل الخمر ؟ قال : إذا لا يقبل منه حتى يبرئ الأكمة والأبرص . وأتى به عامل الكوفة فاستتابه فأبى أن يتوب ويرجع ، فأتته أمه تبكي، فقال لها : تنحـــي ربط على قلبك كما ربط على قلب أم موسى ! وأتاه أبوه يطلب إليه ، فقال له : تـــنحَّ ياأزر ! فأمر به العامل فقتل وصلب .)) [3]

بين الشاهدين مفارقة كبيرة ، إذ يقتل العامل المتنبئ ويصلبه ، ويترك الخليفة المتنبئ ويخلي سبيله ، وهذا راجع إلى الفتنة التي فتن بها هؤلاء ، وتعاملهم مع الموقف بطريقة تدل على تصديقهم كذبتهم ، وأنهم منصورون حتى لو حبسوا أو قتلوا ؛ ولن ينهاهم ذلك عن نشر النبوة في مظنونهم ، وترك المهدي المتنبئ لعلمه أنه يعلم أن حجته ضعيفة، ولا يمكـــن أن يتأثر به الناس ، ويبدو أنه تركه حتى يجد من الناس سخفاً وازدراءً لصنيعه ، فكأنـــه وكل أمره إلى الناس وقولهم ورأيهم فيه .

يظهر لي أن ابن عبد ربه يضرب على أوتار الإيمان ، حتى تترسخ القلوب بالإيمان واليقين اللذين ينصفان الإنسان في هذا المجتمع ، والإمالة عنهما هو بداية هلاك الأمـــة ،

([1]) **السابق نفسه ، ص : ١٥١/٦ .**

([2]) **السابق نفسه ، ص : ١٥١/٦ .**

([3]) **السابق نفسه ، ص : ١٥٥/٦ .**

وإذا ما نظر الناظر إلى الدول التي سقطت فإنه يجد ضعف الوازع الديني هو السبب الذي يستتبع باقي الأسباب ، فابن عبد ربه يحلم كفرد يعيش وينتمي إلى هذا المجتمع بالاستقرار والاستيطان الذي يحلم به كل فرد أندلسي ، ولن ينعم وينعموا بهذا القـــرار إلا بالأمـــان الداخلي ، واستقرار الأوضاع السياسية في الداخل أولاً ، ثم الخارج ، وضـــرب رؤوس الفتنة وقمع شر كل ذي شرٍ ودِعةٍ .

٤ – الأدوات الحربية :

ينبغي على كل فرد ينتمي إلى الجيوش الإسلامية ، أن يتعلم العلوم و المباديء الدينيـــة في الحروب ، ويتحلى بأخلاق المسلمين الحربية في التعامل مع العدو ، والصبر والجلد ، اللذين يعينان على تحمل المصاعب ومجاوزة الشدائد ،((وعلمه أن لا درع كالصبر ، ولا حصن كاليقين.)) [١] ليس هذا القول إلا توثيقاً لصفتي الصبر واليقين ، وهما عصبتا الانتصـــار والفتوح ، وزيادة رقعة الدولة الإسلامية ، لذلك ينبغي أن لا يحيد ذلك عن علمه وإدراكه وفهمه . وذكر أيضاً : الدرع .. وهي أداة من أدوات الحرب . يقال : درع سابغة ودرع سابغ ، وهو لباس الحديد [٢] يكون واقياً له من سهام ورماح العدو ، ويكتسب الـــدرع قوةً وبأساً بإضافته إلى صفة الصبر، ليتذاوب الصنفان في قالب رجل واحد . وفي موضع آخر يقول : ((قد اعترض الأسنة ، واستهدف للمرامي.)) [٣] فالأسنة جمع سنان ، وهو الاسم من يَسُنُّ وهو القوة ، وهي أسنة الرماح . [٤] فذكر الرماح لكنــه لم يـــذكرها صراحة ، بل ذكر أسنة الرماح ونصلها ، فلا يعتد بالرماح من غير سنان ، وهـــذا يعـــني التركيز على قوة الآداة والآلة ، والاعتناء بها وبعملها . أما المرامي فهي ما ترمـــى إليـــه السهام ونحوها والمقصد [٥]

والأدوات الحربية المذكور هي أدوات تقليدية عرفها العرب الأوائل ، ولم يـــذكر غيرها ، فهو يريد أن يركز على القوة الحقيقية في داخل النفس الإيمانية ، وليست الأدوات

---

(١) السابق نفسه ، ص : ١٢١/١ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة درع ، ص : ٨١/٨ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٤ .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ص : ٢٢٠/١٣ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ١٤ /٣٣٥ .

الحربية إلا معيناً على تحقيق النصر ، وليست هي النصر بذاته ، وعلى الرجل الحقيقـــي أن يكون مدرعاً بالدرع ، ومرمحاً بالرمح ، ومسلحاً
بالسلاح ، ولا يكون أعزل أو أجم[1] أو حاسر ؛ حتى لا ينشغل عن تحصـــين مدينتـــه والدفاع عنها إذا ما باغتها العدو ، أو ارتجت بارتجاج الثائرين .

---

[1] يقال : رجل أجم ، أي لا رمح معه في الحرب .
السابق نفسه ، ص : ١٢ / ١٠٤ .

المبحث الثالث

المضامين الاجتماعية

تسلط المضامين الاجتماعية الضوء على الحياة البيئية المجتمعية ، وما يتصل بها من البشرية العنصرية، والأخلاق والطبيعة ، والعلم والدين ، فكل ذلك له مآثره على الحياة وبنائيتها ومسيرتها الحضارية ، والحياة الاجتماعية هي مناخ عام ينخرط فيه المجتمع بأكمله ويتأطر بأطره ، ويتشكل بتشكله ، وتبعاً لهذه المضامين الاجتماعية في المقدمات تقسَّمت دراستها إلى عدة أقسام تفصلها وتشرحها وهي :

١ – عناصر الشعب الأندلسي :

يتكون المجتمع الأندلسي من العرب ، والمولدين وغيرهم ، والعرب هم أفضل سكان الأندلس ، مع أنهم دخلوها إما فاتحين ثم استوطنوها ، وإما مهاجرين لها بعد الفتح الإسلامي ، وهذا يعني أنهم ليسوا سكانها الأصليين ، وهذه الأفضلية جاءت من فضل العربي وما يميزه عن غيره من الناس ، وذلك بما عنده من العلم والأدب اللذين تحدث عنهما ابن عبد ربه في كثير من المقدمات ، وكانت لدى العربي وحده دون غيره ، ففي مجال الأدب وضع كتباً كثيرة منها : "الخطب"[١] ، " الأمثال "[٢] ، " فضائل الشعر" [٣]

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥٧/٤ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٢٥٣/٥ .

" أعاريض الشعر وعلل القوافي"[1]، " علم الألحان واختلاف الناس فيـــه "[2] ، " أيـــام العرب ووقائعهم "[3]، "النسب وفضائل العرب "[4].

و لم تكن هذه المقدمات للكتب السابقة تمييزاً لأفضلية العربي فحسب ، بل إثبات لعلم مؤصل ينبغي الأخذ به ، وتعلمه وتطبيقه، بعد دراسته وتفهمه تفهماً مستوعباً ، من ذلك قوله : ((ومن كلام العرب الاختصار والإطناب))[5] وقوله : ((وتحب العـــرب التخفيف والحذف))[6] ، ((إذ كان الشعر ديوان خاصة العرب ، والمنظوم من كلامها ، والمقيد لأيامها ، والشاهد على حكامها))[7] ، ((ونحن قائلون بعـــون الله وتوفيقـــه في الخطب التي يتخير لها الكلام ، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم ، ونطقت بها الأئمـــة على منابرهم ، وشهرت بها في مواسمهم ، وقامت بها على رؤوس خلفائهم))[8] ، ليست ليست هذه الأقوال إلا توثيقاً لما عند العربي من علم وأدب دون سواه من العناصر البشرية الأخرى ، حتى وإن كان الكتاب مشرقياً ،فإن ذلك لا يلغي شخصية العربي، ولا ينتقص من وجوده أو عروبيته ، ويستحيل أن يكون جميع العرب في الأندلس على درجة عاليـــة من الأدب في جميع فنونه من الأمثال والشعر والخطاب ، لكن يمكن أن يأخذ من كل فن بطرف ، أو يجيد في فن دون آخر ، لذلك أراد ابن عبد ربه أن يتم الـــنقص ، ويكمـــل الآخر ، ويعدد الواحد . والعرب الخلص في الأندلس هم الذين تعود أصولهم إلى القبائـــل القحطانية أو العدنانية ، وعاشوا في الأندلس أيام الفتح وبعدها .

ظهر عنصر جديد في المجتمع شارك ف تكوينه دم عربي ودم غير عربي ، وذلـــك عن طريق زواج العرب الفاتحين والمهاجرين بنساء أندلسيات ، فـــأنجبوا أبنـــاء يعرفـــون "بالمولدين" ، وهم امتداد لسلالات ذات أصول عربية ، وتستمر في الامتداد حتى يتناقص

([1]) السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥ .

([2]) السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .

([3]) السابق نفسه ، ص : ١٢٩/٥ .

([4]) السابق نفسه ، ص : ٣١٢/٣ .

([5]) السابق نفسه ، ص : ١٤٧/٤ .

([6]) السابق نفسه ، ص : ١٤٧/٤ .

([7]) السابق نفسه ، ص :٥/ ٢٥٣ .

([8]) السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

الدم العربي شيئاً فشيئاً ، ويصبح الانتساب إلى الأندلس ، وهذا يدل على حاجة العربي إلى هذه المصاهرة ، إذ تحركوا من بلاد المشرق في شكل جيوش مسلحة ، ومُعَـدّة إعـداداً عسكرياً، و لم يخرجوا بأزواجهم وأسرهم ، إذ الهدف هو الامتداد بالفتح الإسلامي أولاً ، ثم الاستيطان الذي أجبرهم عليه أرض الأندلس وطبيعتها ومناخها .

ابن عبد ربه لم يصرح في حديثه عن المولدين من عناصر الشعب الأندلسي ، لكنه تحدث عن النساء وصفاتهن ، إذ يقول : ((إذ كان كله مقصوراً على الحليلة الصـالحة ، والزوجة الموافقة ، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء ، التي لا تسكن الـنفس إلى كـريم عشرها . ولا تقر العين برؤيتها)) [١]

ويقول : ((قال الأصمعي : حدثني ابن أبي زناد عن عروة بن الزبير قال : ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح الصدق ، ولا وضع أحد نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء . ثم قال : لعن الله فلانة ألفت بني فلان بيضـاً طـوالاً ، فقلبتـهم سـوداً قصاراً))[٢] هذان الشاهدان وغيرهما يقرران أهمية النكاح وفضله من الزوجة الصـالحة ، ويبدو أن المفارقة الشكلية والجسدية أمران لم يأخذا بعين الاعتبار في بدايـة الأمـر ، إذ الظروف لم تكن مواتية للتفكير والتروي ، بل فرضت نوعاً من السرعة والعجلة وضـيق الوقت ، و لم يتنبه للنتائج الوراثية إلا في وقت متأخر .

ويضع كتاباً آخر في " النسب وفضائل العرب " يتحدث فيه عن فضل النسـب وتعلمه ومعرفته ، وهو من فضائل العرب التي لا ينبغي أن تندثر بتغير مكـانهم وبيـوتهم وأسرهم ، فتلك مخاوف تتبدى من بين سطور الكتابين ، تحمل قلقاً وهماً حول أمور من الأهمية بمكان أن لا تغيب عن العرب ، وأن يورثوا أبناءهم هذه المعارف،حتى تظل متوالدة ومستمرة في مفهومها وحضورها وأهميتها على حد سواء عند العربي وغـيره ، لـذلك يقول: ((فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس ، ومن لم يعرف النـاس لم يعـد مـن الناس))[٣] ويستدل بقول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : ((تعلموا النسـب ولا

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٨٦/٦ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٨٦/٦

(٣) السابق نفسه ، ص : ٣١٢/٣ .

تكونوا كنبيط السواد[1]: إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا وكذا .)) [2] فإذا كان قول عمر بن الخطاب وأمره بتعلم النسب وهو عربي بَين عرب من الناس ، فكيف بالعرب بين غيرهم ، لا شك أن تعلمهم أولى وأهم في هذه الحالة ، وإذا كان نبيط السواد قوماً من العجم ، فإنه يذكرهم كمثال على العجم جميعهم ، وأن النسب فضل يتميز به العربي على العجمي ، لأنه يعرف أصله ونسبه ولا يغيب ذلك عنه ، حتى لو صاهرهم وعايشهم . يظهر لي أن تأليف هذا الكتاب يكتنفه الخوف من غياب نسب العرب لحضور أعراق جديدة تمزج معه ، ويختفي بامتزاجها الدم العربي ، الذي يستحضر نسبه وأصله باستحضار دمومية العربية .

٢ – الأديان والعقائد :

كان المجتمع يضم أخلاط دماء عربية وغيرها ، وهذا يعني أن الحياة الدينية مختلفة ايضاً ، فالسيادة السياسية وإن كانت في يد المسلمين إلا أن انتشار الإسلام كان تدريجياً ، وهناك من ظل على دينه وملته المسيحية أو اليهودية ، لكن الدين القومي السائد هو الإسلام ، والمضامين تكثر من الاستشهاد للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، بما يدل على الإحتكام بها وبأمرها ، ويكثر الوعي الديني في المساجد عن طريق الوعظ والإرشاد، والخطب التي تقال في الجمعة والعيدين والمناسبات الدينية . يقول ابن عبد ربه في كتاب " الواسطة في الخطب " ((نطقت بها الأئمة على منابرهم ، وشهرت بها في مواسمهم ، وقامت بها على رؤوس خلفائهم ، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم ، ووصلتها بصلواتهم ، وخوطب بها العوام)) [3] ليس في هذا القول أكثر من سيادة الدين الإسلامي وممارسة المسلمين لشعائرهم الدينية بكل أريحية في المساجد دونما مضايقة أو تعدٍ ، إضافة إلى كثرة المساجد التي يعلوا منابرها الخطباء في الجمعة والعيدين وأعقاب الصلوات ،

---

(1) النبط : قوم من العجم كانوا يترلون بين العراقيين ، والسواد : هو سواد العراق .

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣١٢/٣ .

(3) السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

يستوي في المسلمين الحاضرين العوام والخواص ، لأنهم مستوون في عقيدتهم الإسـلامية ، ويدل أيضاً على كثرة أعداد المسلمين لكثرة الداخلين فيه .

إن وجود مجتمع جديد إضافة إلى وجود آليات جديدة ، قد يفرض نوعـاً مـن الاختلاف خاصة الاختلاف الديني ، مما يولد خلافات وردوداً بين العلماء ، تنـبني مـن النظر والقياس للأدلة النقلية ، من ذلك كتاب " الفريدة الثانية في الطعام والشـراب " إذ يقول فيه: ((وما اختلف الناس فيه من الأنبذة ومحمود ذلك ومذمومه ، فإنا نجد النبيذ قد أجازه قوم صالحون ، وقد وضعنا لكل شيء من ذلك باباً فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصيله ، ومنتهى نظره ، فإن الرائد لا يكذب أهله .)) [1]

فاختلاف الناس لاختلاف العلماء في الحكم بين الإجازة والتحريم، وفقاً لقيـاس النبيذ بمشروب الخمر الذي وضعت فيه الأحاديث الدالة على تحريمه ، أو اعتباره مشروباً مغايراً . وفي كتاب " الياقوته الثانية في علم الألحان " يقول : ((ونحن قائلون بعـون الله وإذنه في علم الألحان واختلاف الناس فيه ، ومن كرهه ولأي وجه كره ، ومن استحسنه، ولآي وجه استحسن .)) [2]

فالكره والاستحسان راجع إلى اختلاف العلماء في علم الألحان تبعاً لأوجه معينة ساعدت على إطلاق هذه الأحكام ، وإذا كانت الأحكام تستمد مرجعيتها الدينية مـن القرآن والسنة والإجتهاد بالرأي ؛ فإن هذين المثالين يوضحان مبدأ القيـاس في إطـلاق الأحكام ،كضرورة فقهية لكل جديد ليس فيه حكم صريح على جوازه أو مكروهيته أو تحريمه ، وتعدد الأقوال والاختلاف بين العلماء يدل على تعدد المذاهب الفقهية ،التي توثق الأحكام بالأدلة النقلية والعقلية ، وتعلل لمذهبها دونما تعصب لرأي أو حكم ، بدون إقناع أو تفسير أو تعليل ، واللافت أن ابن عبد ربه يذكر الوجهين المختلفين بالأدلة التي يوثقها الطرفان ،و لا يبدي أي نوع من الموافقة لفئة على غيرها ، أو استحسان لمـذهب علـى آخر، فهو يحترم الحكمين المؤيدين بالأدلة احتراماً يجعله لا يجانب حكماً ويلغي آخر ، وفي الوقت نفسه يوقف المتلقي على الحكمين طالباً منه أن يرى بعينه وبعقله الأصح ، الـذي

(1) السابق نفسه ، ص : ٣١٣/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .

يتوافق مع فهمه وقناعاته فيحتاط به وله ، ولا يؤثر في رأيه أحد حتى الكاتب نفسه ، لأنه سيحتكم بقدر اقتناعه بالعلل .

٣ – الناحية العلمية :

بلغت النهضة العلمية في عهده أوج عهدها وازدهارها ، وكان الاعتماد في تثبيت دعائمه على العلم أمراً لا مناص منه ، لأهميته على الفرد والمجتمع ، نلمس هذه الأهمية في تأليفه لكتاب " الياقوتة في العلم والأدب " حيث يقول : ((فإنهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا ، وفرق ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية ، وهما مادة العقل وسراج البدن ، ونور القلب ، وعماد الروح ، وقد جعل الله بلطيف قدرته ، وعظيم سلطانه ، بعض الأشياء عمداً لبعض ، ومتولداً من بعض .)) [1] فكتاب " العلم والأدب " باعتباره ضرورة بنائية ترفع المجتمع وترقيه ، هو أول باب يؤلف في هذا المجال العلمي الذي يتصل بالقوة العقلية ، التي تفكر وتعمل في حدود تفكيرها وقدرتها العقلية ، وكل الكتب السابقة ألفت في السلطان والحروب والوفود ومخاطبة الملوك ، بما يعني أن الأجواء السياسية كانت مسيطرة على المناخ التأليفي العام ، وانعكست عليها ملامح التأليف الأدبي في العناوين الأولية لكتاب العقد الفريد ، لأن الأنظار متوجهة إلى السياسة بسلطانها ، وأوامره في تسيير الجيوش للحروب ، والهيكل الشكلي لمجلسه في الوفود القادمين ، والطالبين ، والمحتاجين لعفوه أو كرمه بين يديه ، فإذا ما تحولت تلك الأنظار كانت النفس ذات الطبيعة الملكية أولى بأن تحظى بهذا الاهتمام الذي برقيه يرقى المجتمع ، وبوعيه يتقدم ، وذلك عن طريق التعليم والتأدب ، لا يخص عربي على عجمي ، ولا أبيض على أسود ، يشترك في ذلك جميع الأجناس ، يربطهم رابط التربة والأرض التي يعيشون عليها ، والهواء الذي يتنفسونه ، والهدف الذي يناضلون من أجله ، يقول : ((والعلم علمان : علم حمل ، وعلم استعمل ، فما حمل منه ضر ، وما استعمل نفع .)) [2]

---

(1) **السابق نفسه ، ص : ١٧٧/٢ .**

(2) **السابق نفسه ، ص : ١٧٧/٢ .**

إن للعلم ومتعلميه شروطاً وهي : العقل الواعي الذي يقبل العلم ويفهمه ، وتدارس العلم وتعليمه للغير بقصد المنفعة والتعلم ، فإذا كانت الأندلس يقطنها أكثر من جنس ، وكل جنس منهم له علومه وآدابه وعلّمها غيره ؛ فإن ذلك يفتح آفاقاً جديدة عليهم جميعاً ، وهو نوع من المثاقفة التي تلعب دوراً في ثقافات الشعوب ، وتفتح أواصر وعلاقات بينها عن طريق التأثر بعلومها ، ونقل ما عندهم إليهم ، وهي البذرة التي تساعد في نشر العربية وعلومها ، وتنقل إلى العربية العلوم اليونانية والفارسية وغيرها . يقول ابن عبد ربه : ((قال ابرويز[1] لكاتبه : اجمع الكثير مما تريد من المعنى في القليل عما تقول.))[2] فإذا كان ابن عبد ربه قد بذر البذره في كتاب " العلم والأدب " ، فإنه يحصد ثمرتها حين دخلت بينهم ثقافات فارسية ، وأصبح يعتمد عليها في تبويبه وكتابته للعنوان ، وهذا يدل بدلالة واضحة على استفادتهم أيضاً من العلوم العربية ، ويقول في كتاب "الأمثال" : ((والتي تخيرتها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها كل زمان وعلى كل لسان .))[3] فتقديم العجم للأمثال العربية يدل على فهمهم لها ؛ لتداخلهم أولاً في تعلم العلم ، ثم الحفظ والأخذ ، ثم التأثر والنقل .

من زاوية أخرى لابد أن تنشط تبعاً لذلك حركة الترجمة التي تنقل للعربية ، وتنقل عنها إلى الفارسية واليونانية ، والترجمة ضرورية تفرضها المثاقفات العلمية بين الشعوب ، وتزيد من نقاط الالتقاء بينهم ، وفهم الآخر من فهم فكره وعلمه وأدبه ، فتزيد التأليفات والمراسلات لزيادة الحاجة إلى التعليم من الآخر مادام نافعاً ، وإلى النهضة سائقاً ، وإلى الفكر والإستنباط مضيفاً ومسدداً ، يقول في كتاب " الفكاهات والملح " : ((وفي بعض الكتب المترجمة : أن يوحنا وشمعون كانا من الحواريين ، وكان يوحنا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله ، وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلا بكى وأبكى من حوله ، فقال شمعون ليوحنا : ما أكثر ضحكك كأنك قد فرغت من عملك . فقال له يوحنا : ما

---

(1) ابرويز بن هرمز ، يعرف بكسرى ، أقبل على رعيته بالعسف والخبط بعد قتله لمن قتل أباه .
شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مصدر سابق ، ص : ١٨٣/١٥ .

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ١٤٦/٤ .

(3) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .

أكثر بكاءك كأنك قد يئست من ربك ! فأوحى الله إلى المسيح : إن أحب السيرتين إليّ سيرة يوحنا .)) [1]

إن في قوله "بعض الكتب المترجمة" ما يدل دلالة صريحة على وجود علم تُرجم إلى العربية، ونقل إليها بلفظها ، وقد يكون خبر مترجم في أكثر من كتاب أو مصدر ، وقد يكون عن أكثر من لغة غير عربية ترجم الخبر ، وفي هذا فتح روح المشاركة الثقافية ، التي لا تتعارض مع المبادئ والأفكار الدينية والفكرية والعربية ، بل يستشهد بها في المواقف المشابهة لها ، ويدل أيضاً على سيادة الروح الدينية وتوافقها في الأفكار بين الأديان .

فالخبر عن المسيح – عليه السلام – ، و لابد أن تكون الترجمة عن قوم لهم صلة بالدين المسيحي ، والمقدمات حين تدون خبراً مترجماً ،وتستفيد من الخبر الذي يتوافق مع عناوينها ، لتؤكد على شمولية العنوان لجميع الأزمان والأماكن ، إذا أُخذ ودرس على الوجه الصحيح، وتنمحي كل الفوارق الدينية والاجتماعية واللغوية ، إذ الفائدة هي المحصلة والمبتغى الذي يراده .

يبدو الاهتمام بالجوانب التاريخية واضحاً لدى ابن عبد ربه ، فقد وضع عدة عناوين تدل على ذلك ، وتنبه إلى دراسة التاريخ المتمثل في الخلفاء وتواريخهم ، وقواد التاريخ وأخبارهم ، وهي دراسة عميقة تمتد من سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، مروراً بالدولة الأموية ، وانتهاء بالخلافة العباسية ، وقد خص بالذكر أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

يقول : ((إذ كان هؤلاء الذين جردنا لهم كتابنا هذا ، قطب الملك الذي عليه مدارس السياسة ، ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقها ، حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان .)) [2] فدراسة التاريخ مهمة لأنها العدسة التي تفتح الطريق للوقوف على السياسة وتدابيرها ، والبيان وبلاغته ، وتنير الطريق لاحتمال الأعباء، واستفتاح المغاليق ، وتذليل الصعاب ، وركوب المصاعب . فابن عبد ربه

---

(1) السابق نفسه ، ص : ٤٠٣/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

يستنهض الهمم الأندلسية ، بإذكاء روح الحماسة والشجاعة ، في دراسة واستحضار أخبار قواده الأبطال ، الذين سطروا بدمائهم وهممهم سطور التاريخ ، ولم يتوانوا عن البذل المعطاء ، حتى استقامت لهم مملكتهم ، وصنعوا بذلك مجدهم ودولتهم ، وفرضوا في ذاكرة التاريخ مالا ينساه لهم ما بقي .

يبدو أن ابن عبد ربه يرى من التاريخ خير معين لهم على الاستمرار في تثبيت الدعائم وعدم التوقف ، ويظهر لي أنه استقى من هذا المعين حين وجد الأنفس حائرة بين الأمل واليأس ، الأمل الذي يدفعهم إلى تحقيق مآربهم في ركوب الحروب ، وفتح المدن ، ونشر الإسلام ، واتساع أرجاء الدولة الإسلامية ، واليأس الذي خيم على قلوبهم وآمالهم حيث ينجرفون وراء إحساس الغربة ، واحتراق القلوب على مفارقة الديار والأرض والأهل ، وهي مفارقة لكل الذكريات والأهواء والآمال التي تركوها خلفهم بأجسادهم ، ولم ينسوها بل ظلت محفورة في أعماق فؤادهم وذاكرتهم ، وهذا أمر صعب لا يمكن لأي بديل أن يصفي تلك الأفكار الآيسة إلا إذا كان مرّ بنفس الحرقة والحنين ، لذلك كانت أخبار الفوارس والقواد الذين صنعوا مجدهم بأيديهم أقوى مؤثر ينفض عنهم غبار اليأس والإحساس بالغربة ، ويدفعهم لاستكمال البداية التي بدؤوها ، ويمكن أن يكونوا دولة يشهد لها التاريخ ، وينقلون لها ذكريات جديدة ، وآمالاً طامحة ، يأنسون بها ، ويسعدون لها ، وتكون فاتحة الاستقرار ، والاطمئنان النفسي ، في ظل الرسوخ السياسي الثابت الأقدام ، ومنفذ الأحكام ، ومحقق الأحلام .

٤ – العادات والتقاليد :

وهي((القواعد الحياتية المعبرة عن الثقافة)) [١] وتلك القواعد ((تشمل القيم والأخلاقيات والمبادئ الأساسية الحاكمة)) [٢] وهي عبارة عن مظاهر عامة ترتبط بالشخصية الإنسانية أوالعلاقات الاجتماعية ، لتصبح ضمن الصفات الأساسية التي تتحرك في هذا الشخص أو في هذا المجتمع ، وهي مكتسبة بفعل الظروف التي صنعتها ، والأجواء الحاملة عليها ، ومن أهم ما وجده الباحث عند المصنف ما يلي :

---

(١) رفيق حبيب ، إحياء التقاليد العربية ، دار الشروق (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) ص : ١٠ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ١٠

أ – الأخلاق :

إن الأخلاق ((علم يوضح معنى الخير والشر ، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا ، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها الناس في أعمالهم ، وينير السبيل لعمل ما ينبغي .))[١] لذلك تنقسم إلى قسمين: أخلاق حسنة وسيئة، والأخلاق الحسنة هي الصفات الحميدة التي تحلى بها الإنسان ، وتتحكم في تعامله مع الآخرين ، وابن عبد ربه حين يتحدث عن الأخلاق الجليلة، والصفات الحميدة، التي يريد أن يكون الاهتمام متروياً إليها ، والخلق متحلياً بها ، يضع باباً فريداً في كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاء " ، ويجعل الحديث منصباً نحو الكرم والجود ، ويتمثل لها بالشواهد المناسبة من الأحاديث النبوية والقرآن والأخبار . ويقول : ((أشرف ملابس الدنيا وأزين حللها وأجلبها لحمد ، وأدفعها لذم ، وأسترها لعيب : كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري ، والجواد السخي ، ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى ، تسمى بها ، فهو الكريم عز وجل . ومن كان كريماً من خلقه ، فقد تسمى باسمه ، واحتذى على صفته))[٢]

وكان قد استفاد من كتاب " الطبائع والأخلاق المذمومة " الذي وضعه ابن قتيبة في كتابه " عيون الأخبار " [١] لكن ابن عبد ربه جعل حديثه تحت باب واسع من الأجواد والأصفاد .

فالحياة على أرض الأندلس تواجه البناء المجتمعي المؤسس على البذل والسخاء والعطاء بين أفراد المجتمع . وإن كان ابن عبد ربه قد وضع هذا الباب الفريد من الأخلاق وشرح فيه قيمة الكرم ومعناه ، فقد أبلغ فيه من حيث النعوت والصفات التي لا تدل إلا عليه ، حيث يقول : سخي ، جواد ، سمح ، سري وكأنه يقول : أجود وأكرم وأسمح وأسخى ما عندك ، وفي أي باب أردت ، فإن شئت كان علماً أو مهنة أو مالاً أو بيتاً أو أرضاً ، وهي لفتة كريمة نلمح فيها المؤاخاة بين أفراد الشعب المختلف الأجناس ، وتعكس نوعاً من الحاجة الماسة إلى كل شيء في ظل سيادة الحياة الجديدة ، وقد يوصف الخُلُق

---

(١) أحمد أمين ، الأخلاق ، دار الكتب العصرية (القاهرة ، ط٣ ، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م) ص : ٢ .

(٢) الأندلسي ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٤٢/١ .

العالي بأنه كرم ، من ذلك ما ذكره في كتاب "الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم " (٢) قال بعضهم : وددت أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهلي : ألا ترى أن عنترة الفوارس جاهلي لا دين له ، والحسن بن هانئ إسلامي له دين ، فمنع عنتره كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه فقال عنترة في ذلك : (٣)

وَأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا

يقول عنترة : أنه إن رأى جارته ، فإنه سرعان ما يغض طرفه أدباً وحياءً أن ينال منها بنظرة ، ويبقى على تلك الحال حتى تدخل بيتها ومأواها ، فيكون بذلك قد أعطاها حقها من المرور والولوج إلى بيتها باطمئنان وراحة .

إذا كان عنترة جاهلياً لا دين له ، وقد منعه من التعدي على حرمة جاره كرمُ أخلاقه ، فإن هذا يعني أن الأخلاق صفات مكتسبة تخلق نوعاً من التعامل الراقي بين الأجناس والشعوب ، وأستدل من هذا الشاهد على أن الأخلاق العالية ، والصفات الراقية قد تكون مثالاً على الكرم الذي يبذله الواحد لأخيه ، إن لم يجد ما يقدمه من علم ومال

(١) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، مصدر سابق ، ص : ١/٤ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ١٢٩/٥ .

(٣) الخطيب التبريزي ، ديوان عنترة بن شداد العبسي ، قدم له : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي (بيروت – ط١ – ١٤١٢هـ ١٩٩٢م) قافية الهاء .

وملبس ومأكل مما يعين على الحياة في الأندلس ، تحت باب واسع من البذل هو باب الأجواد والأصفاد .

ب – أوقات الفراغ :

مهما كانت الحياة مليئة بالمشاغل فلابد لها من وقت يعتريها ترتكن فيه إلى الراحة والسكون ، وقد يكون لها فيه عادة وتقليد تتقلده بقصد الاستئناس ، وإدخال السرور على النفس من جهة ، والترويح عنها من ذلك الحنين ، الذي لا يكتم هناته وزفراته لمجد قديم عاشت فيه حياة هانئة من جهة ثانية ، و لم تتصور أن تتخلى عنه إلى مكان آخر تبني فيه من جديد و لم تتكيف فيه بعد ، وظل يتحمل منها مشاعر الغربة والإغتراب ، لذلك كانت لهم من العادات ما يدخل السرور على النفس ، ويقلل من نسبة الاغتراب الذي بات مع الأيام يتحول إلى الانتساب لهذه الأرض الأندلسية ، يقول : ((قيل لبعض

أصحاب رسول الله ﷺ : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر ونتحدث بأخبار جاهليتنا .)) [1] فإذا كان أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في أيام حروبهم ، وبناء الدولة الإسلامية ينعمون بأوقات وخلاوات ، ثم يجدون من الشعر وأخبارهم في أيامهم الجاهلية خير ما يتحدثون به ليخفف عليهم وطأة الحرب ومشقة العناء والجهد ، فإن لكم فيهم أسوة حسنة لتتحدثوا عن أيامكم في المشرق وتتذكروا ما كان لكم فيها ، حتى تعبروا عن أشواقكم ، وتنفسوا عن ما يعتلج النفوس المغتربة من الحرقة والحنين ، وتفيدوا غيركم بما عندكم وما عرفتم به من الأخلاق والأمجاد

كان لعلم الألحان دور في بهجة الأنفس ، وإدخال السرور عليها ، وتسليتها بترانيم وأصوات شجية ، ينظمها اللحن والغناء الذي يدق أسوار القلوب ، ويدخل عليها ويطلقها على عالم آخر ، ويقول فيه : ((هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس .)) [2]

فحق الغناء أن يكون بصوت حسن ، ويعمل على الأسماع والنفوس والقلوب ، ويدخل الأنس على الوحيد ، ويستزيد به الراكب ، ويدخل السلوى على الكئيب ، ويأخذ بمجامع النفس ومكنوناها ، فحرصه على سلامة النفس من الكآبة والملل والسآمة كحرصه على البناء والعمل لتقوم دولة قوية ، وهذا يدل على أن بناء المجتمعات وسلامتها مرتبط بسلامة الأنفس وراحتها ، وهناك علاقة طردية بينهما ، إذ إنه كلما كانت الأنفس قد ارتاحت من عثرات الكدر والحزن والملل، ازدادت في العمل والجهد والذب عن ديارها وتحصينها ، فازدادت تعلقاً بمكانها ، وأسست فيه مجدها ، وتناسلت منها أخبار سعيها وكفاحها ، لتورثه لمن بعدها فيحافظوا على ما سعى لهم فيه أجدادهم .

وقد تجد الأنفس نوعاً من الترويح يختلف عما سبق ، حين تلجأ إلى الطرائف والنوادر، فتأخذ من أخبار المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين . ويقول فيه : ((فإذا تأملها الناظر ، وأصغى إليها السامع ، وجدها ملهى للسمع ، ومرتعاً للنظر ، وسكناً

([1]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،مصدر سابق ، ص ١٢٩/٥ .

([2]) السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .

للروح ، ولقاحاً للعقل ، وسميراً في الوحدة ، وأنيساً في الوحشة ، وصاحباً في السفر ، وأنيساً في الحضر .)) [1]

هذا موضع آخر يلعب فيه ابن عبد ربه على الحواس والأحاسيس التي تلتهي وتتسلى بتلك النوادر والأخبار، بما عندها من التأمل والإصغاء ، ليكون الإثراء العقلي والأنسي والنفسي أنفع لها وأقوم ، وفي قوله : "سفر وحضر" دلالة على اتساع رقعة الأندلس ، وكثرة السفر بين البقاع ، وهذه الكثرة تستدعي نوعاً من الملل والمشقة والتعب على دورب الطريق ، فإذا ما أخذت الأسماع تصغي إلى طرف ونواد هؤلاء ، فإنها تنفض عن الأنفس والأجساد ما بها ، وتدخل السرور والبهجة والأنس عليها .

ج – النعمة والسرور :

كان اختيار هذا العنوان تبعاً لتعامل ابن عبد ربه معه في عدة عناوين يؤلف لها ، ويصرح بالنعمة والسرور كهدف يسعى له العنوان ، ويقرر شواهده بموجبه ، ويستفيد من كتاب " الطعام " [2] من كتب " عيون الأخبار " ويتحدث فيه عن صنوف الأطعمة ، ومضارها ، وما يقيم صلب الأبدان ، كما فعل ابن قتيبة في كتابه .

((إذ لم يكن مدار الدنيا إلا عليها ، ولا قوام الأبدان إلا بها ، وإذ هي نمو الفراسة ، وتركيب الغريزة ، واختلاف الهمم ، وطيب الشيم ، وتفاضل الطعوم)) [2] وللنعمة والسرور معالم ومفاهيم تختلف من شخص لآخر تبعاً لاختلاف طبيعته وهمته ، وحالته وميوله ، وعلى أساس هذا الاختلاف يتحرك بغرائزه الكامنة وهمته الدافعة ، ويأخذ من النعمة والسرور ما يشبع ذلك ويرضيه ، لذلك يقول : ((وقد تكلم الناس في النعمة والسرور على تباين أحوالهم ، واختلاف هممهم وتفاوت عقولهم ، وما يجانس كل رجل منهم في طبعه ، ويؤالفه في نفسه ، ويميل إليه في وهمه ، وإنما اختلف الناس في هذا المذهب لاختلاف أنفسهم .)) [3]

([1]) السابق نفسه ، ص : ١٥١/٦ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ص : ١٩٧/٩ .

([2]) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .

([3]) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .

فالنفس هي التي تحدد القَدْرَ والحاجة من السرور والنعمة ؛ لأن ذلك مرهون بطبيعتها ومبتغاها وإرادتها منه ، وهي لذلك غير متكافئة عند بني الإنسان لاختلاف هممهم ، فمنهم من نفسه غضبية تدفعه الهمة المنافسة المغالبة ، ومنهم من نفسه ملكية ، ينظر في الحقائق ويتعامل باليقين ، ومنهم من أردى نفسه عن هذا وذاك وطلب الراحة والسكون ، وانهمك في الطعام والشراب والنكاح بنفس شهوانية بهيمية لا ترى أبعد من ذلك . [1] ، ليس هذا الاختلاف إلا بمثابة قاعدة نفسية للتعامل ، لكنه في الوقت نفسه لا يصرح بالنفس التي ينبغي أن يتضافر القوم على التحلي بهممها وفراستها ، والغرائز التي تحركها إلا في حدود اللقب على هذه النفس حين يسميها النفس الملكية ، وكأنها تصل بك إلى الملك النفسي الذي هو أهم مُلك تنعم وتسر بعرشه .

إن في الفكاهات والملح سروراً وراحةً لمن يطلبها ، لكن الأنفس بطبائعها تختلف في تحديد مستوى هذه الراحة وفقاً لغرائزها التي تستدعي نوعاً وترد آخر ، لكن الأنفس تستوي في الحاجة الماسة لها ، لذلك يقول : ((هي نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور)) [2] فالأنفس والأحاسيس تجد في الراحة طلباً وفي السرور معدناً ، وساق الشواهد الكثيرة في هذا الباب من : الأحاديث النبوية ،وأخبار الصحابة والخلفاء ، وكلها تدل على أن في الفكاهات والملح ما يروح القلوب وتُسَرُّ به الأنفس ،كقوله ﷺ : "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت " [3] وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : ((أجموا هذه القلوب ، والتمسوا لها طرف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان ، والنفس مؤثرة للهوى ، آخذة بالهويني ، جانحة إلى اللهو ، أمارة بالسوء ، مستوطنة للعجز ، طالبة للراحة ، نافرة عن العمل ، فإن أكرمتها أرضيتها ، وإن أهملتها أرديتها .)) [4] في قول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – إثبات لسآمة وملل يتسرب إلى القلوب والأبدان، ويطرق على أوتار الهوى واللهو والراحة ، حتى تجنح النفوس إلى نفض الجد والعمل وتستجيب لنداء الراحة والسكون ،

---

(1) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٤٠١/٦ .

(3) " روحوا القلوب ساعة فساعة " ، البرهان فوري ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مصدر سابق ، ص : ٣٧/٣.

(4) (أجموا هذه القلوب ، فاطلبوا لها طرف الحكمة ، فإنها تمل كما تمل الأبدان) ، السابق نفسه ، ص : ٦٦٩/٣.

وهي حالة طبيعية لا ينكرها ، ولكنه يرى من ذلك مخرجاً، حين تلتمس القلـوب مـن الطرف المحتوية على الفطنة والحكمة ما يريحها ، ويفتح لها دروب الأمل والعلم والأريحية ما تنعم به وتسر ؛ حتى لا تستجيب لأهواء الكسل والملل المتجددة على هذه الأنفس .

وفي قول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وما يتخيره من الفكاهة والملـح معارضة لغيره ، ومنهم : عمر بن العاص حين قال له : ((ما ألذ الأشياء ؟ فقال : ليخرج من ها هنا من الأحداث . فخرجوا فقال : ألذ الأشياء إسقاط المروءة ! . وقيل لمسلمة بن عبد الملك : ما ألذ الأشياء ؟ فقال : هتك الحيا ، واتباع الهوى .)) [1] فالراحـة الـتي يجدان فيها ما يريحهما من العمل والجهد حين تأخذ النفس حقها من الأريحية والسكون، وتركن إلى شيء فيه من اللذة والانبساط ما لايكون لها في غيره ، يختلف عن ما ذكـره علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – الذي دعا إلى الأريحية وسعادة القلوب في التماس طرف الحكمة ، لكن مرد هذا وذاك إلى طبيعة النفس المؤاربة للميول والأهواء ، وهـذا يعني أن النقص والكمال محسوب في هذه القضية ، ومأخوذ فيها برأي صائب أو مجانـب للصواب، وقد علق ابن عبد ربه على ذلك حين قال : ((وهذه المترلة من أعمال الـنفس وهتك الحيا قبيحة ، كما أن المترلة الأخرى من الغلو في الدين والتعسف في الهيبة قبيحـة أيضاً ، وإنما المحمود منها التوسط ، وأن يكون لهذا موضعهُ ولهذا موضعهُ .)) [2] ينتقص ابن عبد ربه من أعمال النفس ولذاذتها في هتك الحيا وإسقاط المروءة ، ويصفهما بـالقبح الذي هو ضد الحمد ، ويضيف صنفين آخرين لا يرى فيهما بعداً عن القبح وهما : الغلو في الدين والتعسف في الهيبة ، فالمحافظة على الواجبات الدينية والهيبة أمران محمودان ، لكن الغلو والتعسف يوجهما إلى القبح من ناحية مجاوزة الحد المشروع ، وفي ذلك تأثير علـى النفس التي تفر من ذلك إلى ماهو أشنع وأقبح من القبح نفسه ، وكان فرارها له لإكـراه النفس على قالب واحد تتمثل فيه ولا تحيد عنه ، وقد تعودت على التنويع والتعدد بأكثر من قالب . وقد ورد (أن عيس ابن مريم لقي يحيى بن زكريا عليهم الصلاة والسـلام ، فتبسم إليه يحيى ، فقال له عيسى : إنك لتبسم تبسم آمن فقال له يحيى: إنك لتعبس عبوس

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤٠٢/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٤٠٢/٦ .

قانط! فأوحى الله إلى عيسى : إن الذي يفعل يحيي أحب إليّ .) [١] فالتبسم مطلب إيماني نفسي لا مناص منه، وقد ينقلك من حياة إلى حياة أخرى في نفس اللحظة ، ولا شك أن ذلك من النعمة والسرور ، وإذا كان ذلك بين نبيين من أنبياء الله تعالى يحض فيه يحي — عليه السلام — نبي الله عيسى بالتبسم والسرور، وترك اليأس والقنوط والعبوس، فكيف بمن دونهما .

كتب يحيى بن خالد إلى الفضل ابنه وهو بخرسان : ((يابني ، لاتغفل نصيبك من الكسل .)) [٢] ثم قال ابن عبد ربه معلقاً : ((هذا جزء جامع لكل ماقصدنا إليه من هذا المعنى ، لأن بالكسل تكون الراحة ، وبالراحة يكون مثاب النشاط ، و يصفوا الذهن ، ويصدق الحس ، ويكثر الصواب.)) [٣] .

فالكسل يفتح ابواب النشاط من خلال الراحة التي تصفي الذهن ، وترفه عن الإحساس ، فيعبر ويعمل بصدق وحق . إن الاجتهاد والعمل مطلوبان إلى حد يَنعدم فيهما ذكر الراحة والكسل ، وفي قوله مطالبة واضحة إلى الكسل والراحة ، وكيف أنه طريق النشاط والحركة والعمل ، وهذا يعني أن بين القولين مناسبة ومعنى خفياً ، وهو راجع إلى النفس وميولها الطبيعية وكيفية تعاملها وتفهمها لحقيقة النشاط والكسل ، وهذا الفَهْمُ تترجمهُ بحركتها ؛ أي أن النفس العاملة المجهدة المثابرة تحتاج إلى قليل من الراحة ، الذي هو كسل وخمول تستطيع أن تستعيد فيه نشاطها من جديد ، وبالعكس إن كانت كثيرة الكسل والخمول فهي عادة نابعة من نفس بهيمية تستوي عندها المطالب والأهواء في الشهوات والملذات ، ولذلك هي لا تحتاج إلى الكسل أبداً ، وقد أورثها الكآبة والملل الذي هو ضد النعمة والسرور الذي هو المراد ، والموضع الذي من أجله كان هذا الكتاب لهذا المجتمع الذي كابد فيه شعبه أعباء وهموماً ، إلى جانب عملهم تحت راية الفتح والانتصار وبناء المجتمع الإسلامي بناءً منعماً مسروراً هانئاً بما وصل إليه ، فإذا سعوا إلى التوسط والاعتدال في حياتهم بين العمل والكسل والنشاط والراحة فلن يؤثروا جانباً ويفرطوا في آخر .

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٤٠٣/٦ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٤٠٤/٦ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٤٠٤/٦ .

قال ابن عبد ربه : ((إذ كان أشرف ملابس الدنيا وأزين حللها ، وأجلبها لحمد، وأدفعها لذم ، واسترها لعيب))[1] من خلال هذا القول أقف على معرفة المجتمع للملابس والحلل والزينة ، وهو قول عام لا يدقق النظر ، أو يفصل القول في طريقة لباسهم وألوان حليهم ، لكن يمكن أن تنعت بالمدح أو الدم أو السترة للعيب ، وهذا يدل على وجود ترف في اللباس ، ووجود مخالفة لما يفترض أن يكون عليه اللباس من السترة والوسع ، والتلون بألوان مناسبة ، والسمك والثقل ، يستوي في ذلك الرجال والنساء ، والكبار والصغار ، من غير تحديد أو تخصيص ، ومن ذلك أيضاً قوله في كتاب " العسجدة في كلام الأعراب " عن قول رجل من منقر : ((تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح، لم يسمع الناس كلاماً قبله مثله ، وإذا بأعرابي في بت، ما في رجليه حذاء ، فأجابه بكلام وددت أني مت قبل أن أسمعه ، فلما رأى خالد ما نزل بي قال لي : ويحك ! كيف نجاريهم وإنما نحاكيهم ؟ أم كيف نسابقهم وإنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم ؟ قلت له: أبا صفوان والله ما ألومك في الأولى ، ولا أدع حمدك على الأخرى .))[2]

في الشاهد دليل على معرفة المجتمع للحذاء ، وهو ما يلبس في الرجلين ، بل إنه من الغرابة أن يرى أحداً يسير على قدمين حافيتين ، وربما وضع شيئاً غريباً بدلاً من الحذاء وكان بديلاً غريباً عليهم . وهذا يدل على أن الحذاء متوفر لجميع الطبقات الاجتماعية ، وجميع الأصناف والأخلاط البشرية ، ومتوفر كثيراً في الأندلس . البت هو كساء غليظ مهلهل مربع أخضر ، وهو من وبر أو صوف[3] ، وقيل هو طيلسان من خز .[4] ويبدو أن الكساء هو نوع من اللباس الذي اعتادت الأندلس على وجوده واسمه ، لكنها تعرف أن الكساء حين يصنع من الصوف أو الوبر يلبس في أزمنة محددة كالشتاء مثلاً ، أوعند اشتداد البرد ، وأجد من ذلك تفسيراً في سبب تفصيل لباس الأعرابي وكأنه كان غريباً عن لباس الباقين ،أو مميزاً عنهم ، ويبدو أن الكساء قد دل على حالة الأعرابي من فقر

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١/٢٤٢ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٣/٤٢٠هـ .

(3) أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي ، المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية (بيروت – ط١ – ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ، ص : ٩/٤٦٨ .

(4) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، ص : ٢/٦ .

وحاجة إذ لم يجد ما يستره غير هذا الكساء . ومن هنا يمكن القول أن اللباس يفسر ما عليه الناس من الفاقة الفقر ، أو التوسط ، أو الترف ، وذلك نوع من أنواع النعمة والسرور الظاهرة على الإنسان ، وفي الشاهد دليل على تعامل الناس بمقامات لباسها وما عليه شكلها ، وربما يصل الأمر إلى الازدراء أو الاحترام ، لكن قيمة المرء في ما يرتدي عقله من العلم والأدب والحكمة ، وقد أسمعهم الأعرابي حتى أوجع علمهم وأدبهم .

٥ – الطبيعة البيئية :

إن للأندلس طبيعة بيئية خاصة ، وإن كان ابن عبد ربه لم يتحدث عنها في كتبه ومقدماته إلا أن لها صدى في تعبيراته وأساليبه ، حيث يستقي من ألوانها وحدائقها تشبيهات لأشياء يصفها ويتحدث عنها ، حتى يستطيع أن يتمثل وجه الشبه ويبرزه ويوضحه . من ذلك قوله في كتاب " الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين" : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كتابنا هذا ذكر المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين ، فإن أخبراهم حدائق مونقة ، ورياض زاهرة ، لما فيها من طرفة ونادرة ، فكأنها أنوار مزخرفة أو حلل منشرة ، دانية القطوف من جاني ثمرتها ،قريبة المسافة لمن طلبها .)) [1] فالأندلس ذات حدائق ورياض زاهرة ، قطوفها دانية لمن يطلبها وتعلوها أنوار مزخرفة ، هذه الحدائق والرياض تحتوي ثماراً يانعة ناضجة ، وهذا يدل على معرفتهم بالزراعة ، التي تتطلب وجود التربة الخصبة الصالحة للحرث والزراعة ، ويدل على أن المناخ ملائم حيث يكثر نزول الأمطار ، فالماء متوفر دائماً لنمو هذه الحدائق والرياض التي تكثر بها الزهور ذات الألوان البهيجة ، والروائح الزكية التي تملأ المكان وتعطر أجواءه .

وفي مكان آخر يقول : ((فهو كمن أخذت عليه الفجاج ، وسدت عليه المخارج.))[2] فالفجاج جمع فج وهو الطريق الواسع البعيد [3]، وهذا موضع يقتبس فيه صورة الطرق الواسعة البعيدة ، والمخارج الضيقة أو المسدودة ، قد يكون الانسداد والضيق في المخارج راجعاً إلى وعورة سطحها ، أو إلى وجود القمم الجبلية المرتفعة

---

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٥١/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٥/٤ .

(3) محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان (بيروت ، بدون ط ، ١٩٨٩م) مادة فجّ .

الشاهقة . وفي ذلك مشهدان يمثلان الأندلس ، فلا يشترط في المدينة الأندلسية أن تكون خضراء مزهرة فقط ، أو جبلية فقط ، فقد تأخذ من الطبيعتين على حسب جغرافيتها ، فإذا كانت واقعة على الأنهار فالأخضرار مرسوم على ضفافها ، أو السهول الساحلية على المحيط الأطلسي ، أو البحر الأبيض ، في حين تكون المناطق الوسطى البعيدة عن البحار والمحيط مناطق جبلية أو وعرة . وفي قوله : ((كسحابة لبدت عجاجة)) [1] يدل على كثرة السحب الممتلئة في السماء ، وعلى وجود الغبار، الذي قد يكون بفعل الرياح القادمة من المحيط على المناطق الصحراوية والجبلية منها ، فتثير معها الأتربة التي تسير معها على شكل غبار متطاير . بيوتهم مبنية من الجندل والحديد ، وتضيئها الأسرجة والمصابيح والأنوار ، ويستخدمون الحطب في إشعال النار للتدفئة والطبخ ، وذلك من قوله :

((يطبق المفاصل ، وينفذ إلى المقاتل ، كما يرمي الجندل بالجندل ، ويقرع الحديد بالحديد فيحل به عراه ، وينقص به مرائره ، ويكون جوابه على كلامع كسحابة لبدت عجاجة ، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر ، ولا أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه ، ويصرع منازعة، بقول كمثل النار في الحطب الجزل .)) [2] فأراد أن يصف الجواب الحاضر الذي ينساب على الخصم فيقرعه ، ويشتعل على سؤال خصمه فيصرعه من اشتعال الحطب في النار ، فقرب المعنى بتشبيه تمثيلي من محيط فكره ، وواقعه المنصب على قلمه حين يكتب الكتاب.

وعرفت الأندلس المساجد ، وهي من المآثر الدينية العمرانية التي شيدها العرب في الأندلس وتدل على انتشار الإسلام ، ومن منابرها انطلقت الخطب والتوعية والإرشاد والتوجيه ، واجتمع فيها المصلون ، وهي من صلات التعارف بين الناس ، وفيها التعليم وحفظ القرآن وتلاوته وتعليمه ، وكان العقل أداةً من أدوات التعليم،فبه يكون التأدب والتثقيف ، وفي ذلك يقول ابن عبد ربه : ((أن العاقل إذا لم يُعلم شيئاً ،كان كمن لا عقل له . والطفل الصغير لو لم تعرفه أدباً وتلقنه كتاباً كان كأبله البهائم وأضل الدواب)) [3] فالتعليم للصغار كان عن طريق التلقين بالأدب ، والكتب الدينية والعربية، والتاريخية الشاملة

([1]) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٤ .

([2]) السابق نفسه ، ص ٥/٤ .

([3]) السابق نفسه ، ص ١٧٧/٢ .

للأخبار، والعلوم والمعارف ، وهي سبيل الذكاء والفطنة ، وسداد الرأي ، وقوة العلم . في قوله إشارة إلى وجود الدواب والبهائم ، وهي تنقسم إلى وسائل نقل كالخيول والجمال وتستعمل في الحروب ، والانتقال من مكان إلى آخر ، وإلى المواشي التي يعتمد عليها في الأكل والشرب ، مما يعني أن للعرب فيها مهنة الرعي التي تعد بمثابة الأساس الغذائي والمالي لهم ، ومادامت هناك زراعة فهذا يدل على وجود حيوانات تساعد على الحرث كالبقر والثور ، وبما أن طبيعة البلاد ذات وعورة وجبال شاهقة فهذا يدل على وجود حيوانات تعيش في الجبال خاصة لتكيفها مع هذا النوع من التضاريس ، إن تنوع التضاريس يوحي ويدل على تنوع النبات الطبيعي ، وتنوع النبات يدل على وجود طعام وشراب متنوع أيضاً ، ويقول فيه : ((فالذي في الطعام منها مستقص جميع ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام من المنافع والمضار ، وتعاهد الأبدان بما يصلحها من ذلك في أوقاته وضروب حالاته ، واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلي المعدة ، وما لا يكظها ، فقد جعل الله لكل شيء قدراً .)) [1] فالأطعمة قد تغيرت عما كان لهم بها عهد وهناك صنوف جديدة قد تكون ضارة أو نافعة ، فأراد أن يبين في كتابه ما يقيم صلب الأبدان ويصلحها بصلاح الطعام حسب وقته وحالته ، ثم ينصح ويرشد إلى الأخذ من الطعام بما يملأ المعدة امتلاءً كافياً لحاجتها فلا يخلي ولا يكظ . في قول ابن عبد ربه ما يدل على مخاوفه الشديدة من الافتتان بالطبيعة الأندلسية ، وما تنعم بها من خيرات وثروات رعوية وزراعية ، والسعي وراءها ، والانغماس في ملذاتها ، تاركين الذب والدفاع عن مدينتهم ، التي قد ينتهز الأعداء فرصة انشغالهم بها فيغيرون عليهم ، ويترلوا بهم أشد الهزائم ، وتتحول مفاتنهم الجميلة إلى ركام وحطام الحرب الضارسة المدمرة .

---

(1). السابق نفسه ، ص : ٣١٣/٦

الفصل الثالث

البناء الفني للمقدمات

- المبحث الأول : وصف البناء : (مقدمة _ عرض _ خاتمة)
- المبحث الثاني : السمات الفنية للمقدمات.

المبحث الأول : وصف البناء

- مقدمـــة .
- عـــرض .
- خاتمـــة .

مدخل:

البناء الفني له مراحل وأطوار يمر بها حتى يستوي على سوقه في الشكل العام، وهذه المراحل هي : مقدمة – عرض – خاتمة، وهذا خاص بالأدب النثري، والكاتب البارع هو الذي يستطيع أن يقدم أدباً له مراحله وأطواره ، ويحسن التخلص والخروج فيما بينها من غير إملال أو قطع . وقد حرص النقاد حرصاً شديداً على وحدة البناء ، فاهتموا في دقة الخروج من جزء إلى جزء خروجاً يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها وإن اختلفت أغراضها، ويقول ابن طباطبا معلقًا على " التخلص " ((ومن الأبيات التي تخلص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك ، ولطفوا في صلة ما بعدها بها ، فصارت غير منقطعة عنها .)) [1]

ومن هنا جاءت العناية بالتخلص من المقدمة إلى الغرض الرئيس مع اشتراط الدقة والعناية في هذا التخلص منه وإليه . ولم يفرق القدماء في التخلص بين شعر ونثر ، ففي كليهما يرون أن يصل الشاعر أو الناثر كلامه – على تصرفه في فنونه – صلةً لطيفةً بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون ((متصلاً به وممتزجاً معه دون اختلال في النسق أو تباين في أجزاء النظم ؛ لأن النفوس والمسامع إذا كانت متدرجة من فن مباين له دونما جامع بينهما وملائم بين طرفيهما ، وجدت نفوراً من ذلك ونبت عنه .)) [2] وكانوا يرون أن ((التخلص في النثر أسهل منه في الشعر ، لأن الشاعر يراعي القافية والوزن وهنا تكمن الصعوبة ، وقد أرجعوا التخلص إلى مقدرة الأديب نفسه وآمنوا بتفاوت الأدباء فيه، والتخلص عند النقاد يدل على قدرة الشاعر أو الناثر ، وقوة تصرفه وقدرته ، وطول باعه .)) [3] إن الحديث عن التخلص حديث يوقفنا على عناصر البناء التي ينتقل منها الكاتب أو الناثر أو الشاعر من مرحلة إلى أخرى لنقف بعد ذلك على مكامن الوحدة والتلاحم ، والترابط بين الأجزاء ، وعناصر البناء النثرية ، التي تُفَصِّل ما عليها

([1]) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، تحقيق : عباس عبد الستار ، مراجعة : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية (بيروت _ط٢_ ٢٠٠٥ م / ١٤٢٦ هـ) ص : ١١٥ .

([2])حازم قرطاجنى، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجه ، دار الكتب الشرقية (تونس – ط ٢ – ١٩٦٦ م) ، ص : ٣١٩ .

([3]) ابن الأثير الجزري ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، تحقيق : مصطفى جواد وجميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي (بغداد – بدون ط – ١٩٥٦م) ، ص : ١٨١ .

مقدمات العقد الفريد وهي : المقدمة والعرض والخاتمة . ويبسط هذا الفصل القول في هذه العناصر البنائية .

أولاً : المقدمة (للمقدمة) :

((الفطن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها ، وينظر في أحـــوال المخـــاطبين ، فيقصد محابهم ويميل إلى شهواقم ، وإن خالفت شهوته ، ويتفقد ما يكرهـــون سماعـــه ، فيجتنب ذكره .)) [1]

وفي ذلك تطبيق للقاعدة البلاغية : مطابقة الكلام لمقتضى الحـــال . فالمخاطـــب يعرف المقصد من الخطاب من مقدمته ، لذلك كان لا بد من افتتاح الكلام بما يوجـــب استماعهم له إلى نهايته ، فالمقدمة تتحمل هذا الجزء من المقصدية والغرضية ، فالاهتمام بالمطالع من الأمور التي نالت عناية واهتماماً من قبل النقاد ، وذلك لأن المطلع بمترلة الغرة من الوجه ، فإذا كان بارعاً حسناً بديعاً ، ومليحاً رشيقاً، وصدر بما يكون فيـــه التنبيـــه والإيقاظ لنفس السامع ، أو ابتدأه بما يؤثر فيه ، أو يُثير له تشويقاً أو تهويلاً أو تعجباً كان داعياً إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده ، وهذا اعتبار نفسي محض يحسب حساباً كبيراً للمتلقين القارئين والمستمعين ، ويضعهم نصب عينيه ، ويقدم لهم الفائدة من البداية ، حتى لا يملوا أو يستقلوا المتعة في داخل الفائدة المقدّمة لهم أو يستثقلوها حين لا تصل مبكراً إلى أفهامهم .

ومقدمات العقد الفريد مقدمات تندرج تحت نوعين من أنواع الاستهلال همـــا : الاستهلال التأليفي ، الذي يتحدد بذاتية وواقعية المستهل للعمـــل ، ويعرفـــه "جينيـــت" بالاستهلال الواقعي ، وهو الاستهلال الذي يكون فيه المستهل شخصاً واقعياً مثل : كاتب العمل . [2] والنوع الآخر هو الاستهلال الغيري ، إذ نجد في بعض المقدمات عبارة ((قال

---

(1) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق، ص : ٣٢٣/١ .

(2) عبد الحق بلعابد ،عتبات جيرار جينيت ، مصدرسابق، ص : ١١٦ .

(٣) ينظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥ ٢٥٣ ، ٦/ ٤٠١ .

الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه – رحمه الله – أو – تغمده الله برحمته –)) مما يدل على احتمال أن يكون الاستهلال من وضع أحد النساخ . (٣)

وتختلف المقدمات في الطول والقصر وتتفاوت تفاوتاً بائناً ، فأقلها ثلاثة أسطر وهو ما عنوانه " في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم " (١)، ثم تزيد – هذه الأسطر – بين العشرة والأربعة عشر ، ثم تأخذ في الزيادة حتى تصل إلى صفحة أو صفحتين أو ثلاث ، لكنها لم تصل إلى خمس صفحات إلا في كتاب " الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين " (٢). إن الاختلاف بين المقدمات لم يكن خاضعاً لمنهجية نظامية تحكمه ، بل هو ذاتي تأليفي بما يراه مناسباً من البسط والتحليل للعنوان ، يتضح ذلك من التفاوت الترتيبي للمقدمات ، فكتاب "اللؤلؤة في السلطان" يضع له المؤلف مقدمة من صفحتين ، ثم يتبعه كتاب "في الحروب ومدار أمرها" الذي يقدم له مقدمة بثمانية أسطر ، ثم كتاب "في الأجواد والأصفاد" يقدم له بمقدمة من صفحة تقريباً، وهكذا تختلف كل مقدمة عن سابقتها أو تزيد عليها حسب ما يراه الأندلسي مناسباً للتقديم والتأليف .

وهذه المقدمات وإن اختلفت في حجمها إلا أنها استوت في تحديد معالم الشكلية البنائية من مقدمة وعرض وخاتمة . صدر المؤلف كتابه : العقد الفريد بمقدمة بدأها بقوله : ((الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المنفرد بقدرته ، المتعالي في سلطانه الذي لا تحويه الجهات ، ولا تنعته الصفات ، ولا تدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادئ بالإحسان العائد بالامتنان ، الدال على بقائه ، بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه ، المغتقر إساءة المذنب بعفوه ...)) (٣)

فالمقدمة مبتدئة بالحمد والثناء ، وهي مقدمة أطال فيها التحميدات على طريقة الكتابة النثرية في العصر الأموي ، حيث جاء عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر حلفاء بني أمية، فأطال التحميدات في صدور الكتب مع الإتيان بـ"أما بعد" ، وتبعه الكتاب على ذلك ، ثم توسعوا فيه حتى كرروا الحمد لمرات في الكتاب الواحد . (٤) وإذا

---

(١) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،مصدر سابق، ص : ٢٣٣/٤ .

(٢) السابق نفسه ،ص: ١٥١/٦ .

(٣) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٥/١ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مصدر سابق، ص : ٣٢٠/٦ .

ما انتقلنا إلى مقدمات الكتب وجدنا المقدمات تدخل إلى الغرض أو موضوع العنوان دونما الابتداء بالتحميد ، وكأنه يريد أن يبين أن مقدمة الكتاب هي المقدمة الأم لجميع مقدمات الكتب ، وهي أولى بالتحميد في استهلالها من غيرها ، والخطاب فيها عام لجميع الكتب بمقدماتها وعناوينها ، ولكنه تحميد خاص في موضعه التأليفي والاستهلالي .

ويقول ابن عبد ربه : ((قد مضى قولنا في كذا ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كذا))[1] كانت هذه المقولة هي البداية المقدماتية التي يبدأ بها ابن عبد ربه حديثه ، وفيها جملة اعتراضية – بعون الله وتوفيقه – تفيد الاستعانة بالله وتوفيقه على ما يريد أن يقوله في هذا الكتاب ، وهي تشبه تلك الألفاظ التي يستخدمها الكاتب المشرقي وهي – أسعدك الله – و – أبقاك الله – [2] ، من ذلك قوله في كتاب " الفريدة في الحروب ومدار أمرها " ((قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها .)) [3] ثم في كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاد " يقول : ((قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال ، وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد والعُدّة والعدد ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد))[4] وهكذا في جميع الكتب يذكر ما سبق تأليفه – وأحياناً الكلمة الموجزة التي توضحه – ، ثم ما العنوان الذي سيتحدث عنه ، وفي هذا إثبات لحقيقة ترتيب الكتب على ما أراده المصنف من غير تقديم – من بعده – أو تأخيرهم أو إسقاطهم لشيء من الكتب، ودليل على انتظام حبات العقد ، وأنها آخذة بعضها برقاب بعض ، ونظمت نظماً واحداً ، وسبكت سبكاً واحداً ، ورصفت رصفاً واحداً . وهنا تتعين وظيفة من وظائف المقدمات وهي الوظيفية الصدقية التي تقرر صدق حقيقة الكاتب السياقية في العنوان والعرض وما وراء ذلك من الأخبار والآداب والأخلاق ثم تتعين وظيفة أخرى وهي وظيفة التصريح بالقصد، وهي وظيفة لاحقة للمقدمة التي تلي

(1) ينظر : مقدمات العقد ، الحروب ومدار أمرها على سبيل المثال . ١٢١/١ .

(2) مثل الجاحظ في كتابه " البيان والتبيين " .

(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص: ١٢١/١ .

(4) السابق نفسه ، ص: ٢٤٢/١.

مقدمة الكتاب السابق، وذلك ككتاب الأجواد والأصفاد الذي يذكر فيه قصده صراحةً لكتاب الحروب ومدار أمرها ، فهنا وظيفتان تنحصران في مقدمة المقدمة وهما: التصريح بالقصد والصدقية، وهناك أيضاً وظيفة ثالثة وهي التعليق على العنوان، ومن ذلك قوله في كتاب " السلطان " : ((السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا ، وهو حمى الله في بلاده ، وظله الممدود على عباده ، بـــه يمتنع حريمهم وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .)) [1]

فهذا التعليق على العنوان يقرر أهمية العنوان ويوضحه ويبسط القول فيه بسطاً يساعد على تعيين المراد منه ، ومن ذكره في هذا الكتاب ، وهو تعليق يساعد في تحديد النمط الـــذي يمكن أن يندرج هذا الكتاب تحت بابه ، إذ يمكن عند معرفة هذا التعليق - على العنوان- أن يتقرر إدراج السلطان في النمط السياسي ، الذي يتضح بدخول السلطان في تصنيفه

وقد يكون التعليق على العنوان المراد تعليقاً مباشراً كما سبق ، أو يكون الحديث والتعليق منصباً على المراد من العنوان ، ثم يأتي في العرض بالاستشهادات الشـــعرية والقصصـــية والإخبارية في حدود المراد وبيانه وتفصيله ، من ذلك قوله في كتاب " المجنبة الثانيـــة في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة " : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقـــه في التوقيعات ، والفصول والصدور ، وأدوات الكتابة ، وأخبار الكتاب ، وفضل الإيجـــاز إذ كان أشرف الكلام كله حسناً وأرفعه قدراً ، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقلـــه علـــى اللسان عملاً : ما دل بعضه على كله وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه وتكثر معانيه .)) [2].

فالحديث عن الإيجاز وشرفه وتعريفه في مقدمة المقدمة ، وذلك لأنه المـــراد مـــن العنوان، وفي ذلك دليل على ميل ابن عبد ربه للإيجاز والاختصار ، إذ يعلق على المـــراد بدون تعليق على العنوان بل عن المراد منه ، وذلك لأنه يضع في حسابه الفائدة من أقصر الطرق ، وأوفر الجهد .

([1]) السابق نفسه ، ص: ٢٠/١ .

([2])السابق نفسه ، ص: ١٤٦/٤ .

وفي كتاب " الجمانة في الوفود " يقول : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي ﷺ وعلى الخلفاء والملوك فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام وتستهذب الألفاظ وتستجزل المعاني .))[1] فالمقدمة تقرر المراد في أقوال الوافدين ، وما يجب أن يكون عليه حديثهم من تخير اللفظ ، واستجزال المعاني بدليل نمذجة ابن عبد ربه لبعض أقوال الوافدين على النبي ﷺ مما يدل على بلاغة منطق القائل ، والتخير لها ، لتكون من شواهد الكتاب ، كأنموذج إفهامي للمراد من كتاب الوفود.

وفي كتاب " العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم " يقول : ((قد مضى قولنا في التوقيعات والفصول والصدور والكتابة ، وهذا كتاب ألفناه في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وأسماء كتابهم وحجابهم .))[2] فهذه المقدمة في هذه الأسطر تُوضح العنوان الذي يسبق إليه التأليف ، والعنوان المراد بيانه في هذا الكتاب ، ويكتفي بذلك ولا يزيد عليه في تأليف المقدمة ، وكأنها ستتكفل بتقديم الكتاب وحدها ولا حاجة لها بعرض وخاتمة تشترك معها في ذلك ، فهذه الأسطر تبين أهمية المقدمة في المقدمة وتجسد ملامح هذه الأهمية في تقدمها وإقرارها بعنوان سابق وعنوان حاضر في تأليفه . ومن زاوية أخرى إذا كانت المقدمات في عرضها وخاتمتها لا تضيف جديداً وإنما هو ضرب من التكرار والإعادة فإن تركها أوجب من بثها ، وفي هذا دليل على أن المقدمات من العتبات النصية التي لها وظيفة تسعى إلى توظيفها في تقديمها .

ثانياً : العـرض :

لا يخرج ابن عبد ربه في عرضه لموضوع ما عن العنوان الذي عُنون بـه الكتـاب ، فيذكر من الآيات والأحاديث والأخبار ما ينساق في سياق العنوان الخاص بالكتـاب ، مؤطراً بإطار الوحدة الموضوعية الجامعة لتأليف هذا الكتاب أو ذاك ، ثم إن ابن عبد ربه لا يعرض موضوعاً معيناً في هذا الكتاب فحسب ، بل يعرض فكره وأدبه وثقافته بما يستدل

---

(1) السابق نفسه ،ص: ٢/٥ .

(2) السابق نفسه ،ص: ٤/٢٣٣ .

به من الآيات والأحاديث والقصص والأخبار التاريخية الممتدة من عهد رسول الله ﷺ حتى العهد الأندلسي ، فهو يقدم أدباً خالصاً نابعاً من أربعة قرون في كتاب .

ويختلف العرض الموضوعي من كتاب لآخر وفقاً لهدف تربوي كـامن في عنوانـه ، فهناك عرض منهجي للكتاب وما تحدث عنه ، فهو أشبه بفهرس سريع قصير لما هو داخل الكتاب ، ليستعين به القارئ بما يتوافق مع ما يبحث عنه في داخل هذا العنوان . كقوله في مقدمة كتاب " الفريدة في الحروف ومدار أمرها " : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبر لها من أعمال الخدمـة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ في البيان ، هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفته ، وطول تجربتـه لهـا ، ولمقاساة الحروف ومعاناة الجيوش ، وعلمه أن لا درع كالصبر ولا حصن كـاليقين . ثم نذكر الإقدام ومحمود عاقبته ، ولؤم الفرار ومذموم مغبته .))[1] وكذلك قوله في مقدمة كتاب " الجوهرة في الأمثال " : ((فأول ما نبدأ به : أمثال رسـول الله ﷺ ، ثم أمثـال العلماء ثم أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي ؛ وهي التي كان يستعملها جعفر بن يحيى في كلامه ؛ ثم أمثال العرب التي رواها أبو عبيد ، وما أشبهها من أمثال العامـة ؛ ثم الأمثال التي استعملها الشعراء في أشعارهم في الجاهلية والإسلام .))[2]

فالعرض المنهجي يوضح طريقة قراءة الكتاب ، وكيفية ترتيبـه ، ويرصـد دور الأدب وحركته تحت هذا العنوان أو الكتاب ، وكيف يتمازج معه ويوضحه .

وقد يكون العرض موضحاً لعنوانه ، فيقول في مقدمـة كتـاب " الزبرجـدة في الأجواد والأصفاد " (إذ كان أشرف ملابس الدين وأزين حللها وأجلبها لحمد ، وأدفعها لذم ، وأسترها لعيب : كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري ، والجواد السخي . ولـو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى ، تسمى بها ، فهو الكريم عز وجل . ومن كان كريماً من خلقه ، فقد تسمى باسمه واحتذى على صفته .)[3] فكأنه يجيـب عـن

([1]) السابق نفسه ، ص: ١/١٢١ .
([2]) السابق نفسه ، ص: ٣/٦٦ .
([3]) السابق نفسه ، ص: ١/٢٤٢ .

سؤال استحضره من نفس القارئ حين يقرأ الكتاب، فيقول لماذا هذا الموضوع –الكرم – وهو متعارف عليه وقديم بالنسبة لي .

يقول في كتاب "اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة " :((إذ كان هؤلاء الذين جردنا لهم كتابنا هذا ، قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها واستفتحوا مغالقها ، حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان .)) [1] وهو هنا يجيب عن سؤال مضمونه: لماذا هؤلاء دون غيرهم ؟

فالإجابة تطرح نوعاً من فكر غير معهود في التناول ، لموضوع معروف متداول ، ولكنها تضيء جانبًا تراه أحق في تسليط الأضواء عليه ، والانتصار له بالبحث والعلم .

وهو ما عبر عنه جيرار جينيت بقوله الجديد والقديم : وهي من الموضوعات التي تظهر أهمية سؤال "لماذا" الاستهلالي ، أي: لماذا هذا الاستهلال الجديد لموضوع قديم ، لأن تناول الموضوع نفسه سيختلف حتمًا ، وهذا للخلفية المعرفية والتاريخية والثقافية للكاتب ، فهو استهلال على استهلال يجيب عن سؤال لماذا ؟ [2]

إن أهمية الإجابة عن هذه الأسئلة لا تبرز الخلفية المعرفية والفكرية والتاريخية والثقافية للكاتب فحسب ، بل تثبت وبقوة حركة الأدب في صورة مُتجددة متطورة ، لكونه القالب الذي يقدم هذا العلم ، ولا يسير على وتيرة واحدة حتى في عرضه لموضوع متعارف عليه ، ومسبوق التناول .

يقول ابن عبد ربه في مقدمة كتاب " الياقوتة في العلم والأدب " : ((العلم علمان علم حُمل وعلم استعمل ، فما حمل منه ضر وما استعمل نفع .)) [3]

فإنه عرض تعليمي بحت ، إذ لا يقدم خبراً أو فكراً بقدر ما يقدم لك العنوان في مسالك وأنواع ، وعاقبة كل نوع مع الإقناع الذي يعينك على الاختيار ، فتحتاط

---

(1) السابق نفسه ،ص: ٥/٥ .

(2) عبد الحق بلعابد ، عتبات جيرار جينيت ، السابق نفسه ، ص: ١١٩ .

(3) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدر سابق ،ص: ١٧٧/٢ .

لنفسك على قدر اقتناعك بهذا العرض ،إذ يقول : ((إن العاقل إذا لم يعلم شيئاً كان كمن لا عقل له ، والطفل الصغير لو لم تعرفه أدباً وتلقنه كتاباً كان كأبله البهائم ، وأضل الدواب، فإن زعم زاعم فقال : إنا نجد عاقلاً قليل العلم ، فهو يستعمل عقله في قلة علمه فيكون أشدَّ رأياً وأنبه فطنة ، وأحسن موارد ومصادر من الكثير العلم مع قلة العقل . فإن حجتنا عليه ما قد ذكرناه من حمل العلم واستعماله ؛ فقليل العلم يستعمله العقل خير من كثيره يحفظه القلب .)) [1] .

وتتبدى من خلال النص ملامح الشخصية الأستاذية لابن عبد ربه في ثقته بما يكتب ، ويقينه فيما يعرضه من علم ، وتأهبه للرد على الاحتجاجات الرافضة لمنهجه العلمي ، ثم هو يبين لك الطريق ويأخذ بيدك على خطى الصواب بالحجة والإقناع، ثم لا ينتظر منك إلا أن تكمل الطريق من غير تصريح منه ، متأثراً في ذلك بطريقة الجاحظ وأسلوبه في العرض التعليمي للبيان والتبيين والحيوان .

يقول في مقدمة كتاب" الواسطة في الخطب " : ((اعلم أن جميع الخطب على ضربين: منها الطوال ومنها القصار ، ولكل ذلك موضع يليق به ومكان يحسن فيه)) [2] ليست الخطب التي تقال على منابر المساجد وتدون أيام العرب ومواسمهم بمعزل عن الأدبية العلمية ، إذ هي صناعة لها شروطها وأنواعها ومجالها وموضع تليق به وموضع لا تصلح له .

وفي مقدمة كتاب "الجمانة في الوفود" : ((لابد للوافد على قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته ينزعون ، وعن رأيه يصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة .)) [3] فقبل الحديث عن وفود العرب في متن الكتاب يعرض الشروط التي ينبغي أن تكون في الوافد عند قومه .

ثم إن العرض الموضوعي التعليمي يسلحك بالعلم الموضوعي، وبخيوطه العامة قبل أن يولجك عالم النص في الكتاب ، ويعرفك ما الهدف الذي من أجله ذكر القبيح والحسن

([1]) السابق نفسه ،ص: ٢/١٧٧.

([2]) السابق نفسه ،ص: ٤/ ٥٧ .

([3]) السابق نفسه ،ص: ٥/٢ .

لتجد الفارق في ذلك القبيح فتقف عليه ولا تتخذه ، وتتبين مدارج الذوق فترتفع به بوقوفك على الإحسان .

وقد يتمحور العرض في محور واحد خاص بالعنوان ، ولا يكون الحديث إلا عنه ؛ لكونه عاملاً هاماً والوقوف عليه أولى من غيره ، كالحديث عن العدل في كتاب "اللؤلؤة في السلطان " إذ يقول : ((إمام عادل خير من مطر وابل . وإمام غشوم ، خير من فتنة تدوم ، ولما يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .)) [١]

وقال عبد الله بن عمر : ((إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا كان الإمام جائراً فله الوزر وعليك الصبر .)) [٢]

فلم يتحدث عن مقومات السلطان وملكه، وكيف يتصرف مع الرعية، ومواقفه في الحروب ، وإنما جعل الحديث عن صفة واحدة(العدل) هي كل مقومات السلطان ، وما يريده الرعية من الحاكم ، والأدلة الدينية والنقلية تؤيد ذلك وتوثقه .

في مقدمة كتاب " المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة" ينصب الحديث عن فضل الإيجاز : ((إذ كان أشرف الكلام كله حسناً وأرفعه قدراً ، وأعظمه من القلوب موقعاً ، وأقله على اللسان عملاً : ما دل بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه وتكثر معانيه ومنه قولهم: رب إشارة أبلغ من لفظ .)) [٣] فشرف القول في التوقيعات والفصول والصدور ليس بموضعتها ومكانتها بل بحسب صياغتها ودلالتها على المعاني بقليل من اللفظ .

فمقدمات العقد الفريد تتميز بالعرض المتكامل لكونها مدعمة وموثقة بالأدلة الدينية من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والأدلة النقلية من أخبار الصحابة رضوان الله عليهم والحكماء والعلماء والأشعار الجاهلية والإسلامية .

ففي مقدمة كتاب " اليتيمة في النسب وفضائل العرب " ذكر آية :﴿□□□□□□
□□□

(١) السابق نفسه ، ص: ٢٠/١ .

(٢) السابق نفسه ، ص: ٢١/١ .

(٣) السابق نفسه ، ص: ١٤٦/٤ .

□□□□□□□□﴾[١] ثم حديث، ثم قول لعمر بن الخطاب [٢] ، وفي هذا بيـــان للوجهـــة الدينية والعلمية والتاريخية إزاء قضية معينة ، فيأخذ الباحث من الباب الذي يريده وينطلق منه ، وهي وظيفة الأهمية وتحديدها مباشرة من خلال الشواهد. وفي كتاب"الفريدة الثانية في الطعام والشراب" يقول: ((الطعام والشراب اللذان بهما تنمو الحواس وهما قوام الأبدان ، وعليهما بقاء الأرواح .)) [٣] بعد هذا القول يذكر شاهدًا وهو: ((قال المسيح عليـــه الصلاة والسلام في الماء هذا أبي ، وفي الخبز هذا أمي ، يريد أنهما يغذيان الأبـــدان كمـــا يغذيهما الأبوان)) [٤] فأراد أن يبين أهمية الطعام والشراب ، وكونهما قوام الأبدان ببيان قول المسيح عليه السلام، وتلك هي الأهمية التوثيقية التي توثق القول وتقرره. وفي كتاب" الأمثال" ذكر من الشواهد ما يدل على الأهمية التأليفية للأمثال وهي قال الشاعر : [٥]

مَـــا أَنـــتَ إِلاَ مَثَـــلٌ سَـــائِرٌ يَعْرِفُـــهُ الجَاهِـــلُ وَالْخَـــابِرٍ

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله ﷺ في كلامه . قال الله عز وجل : ﴿□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□﴾وقال : (□□□□ □□□□□□□□□□□□□﴾ومثل هذا كثير في آي القرآن . فالشواهد تدل على الأهميـــة التي تقررها الشواهد للعنوان الذي هو المثل ، وتتضح تلك الأهمية مـــن جانـــب الأدب والدين ونظرتهما الخاصة في الأمثال .

في كتاب" الزمردة في المواعظ والزهد" يذكر نصاً ، ويستشهد على أهمية قوله بهذا القول : ((وخير الموعظة ما كانت من قائل مخلص إلى سامع منصف ، وقال بعضـــهم : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت مـــن اللســـان لم تجـــاوز

---

(١) سورة الحجرات ، آية : ١٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص: ٣١٢/٣.

(٣) السابق نفسه ، ص: ٣١٣/٦ .

(٤) السابق نفسه ، ص: ٣١٣/٦ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ٣١٣/٦ ، البيت مجهول النسب.

الآذان)) [1] فاستشهد على قوله بأن الموعظة تكون مقبولة عند السامع بقوة إخلاصها في نيتها، ثم ذكر القول الذي بعده ليدل على أهمية قوله من الناحية الفكرية والثقافية مما يزيد القول إقراراً وتوكيداً .

في كتاب "الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين" [2] يختلف الأمر تماماً عن كل مما سبق ، إذ ينفرد العرض بذكر الأخبار والشواهد المفصلة عن المتنبئين فقط دون غيرهم من المذكورين في العنوان ، وكأنه يريد التنبيه عليهم في خبرهم من بين أقرانهم، وهو ذكر للخاص بعد العام ، وتتجلى وظيفة التأليف النصي في المقدمة حيث تحمل عبء التأليف ؛ أي أن المؤلف في تأليفه للعنوان السابق جعل الحديث عن المتنبئين في المقدمة حديثاً بسط القول فيه ووضحه ، بل إن توضيحه كان وافياً إلى درجة اكتفائه به ، ولم يتعرض له في داخل الكتاب ومتنه ، وفي ذلك اعتداد بدور المقدمة في مشاطرة المتن في التأليف والتوضيح ، ودليل على أن عتبة المقدمات عتبات نصية فاعلة ، لها وجودها وكيانها، وتركها يعد تركًا لنصوص يجب الوقوف عليها والتنبه لها .

ثالثاً : الخاتمة :

فالعبرة بالخواتيم ، إذ كانت الآذان تحتفظ بآخر ما تسمعه ، أو تقرؤه، ويبقى راسخاً في ذاكرتها ، لذلك كان على الأديب أن يختار آخر كلامه بعناية فائقة .

اللافت للنظر أن مقدمات العقد الفريد قد ختمت بخواتيم متنوعة ومتعددة ، بحسب ما يجده المؤلف مناسباً فقد تكون بشعر ، كما في كتاب "اللؤلؤة في السلطان" [3] قال الأفوه الأودي [4]:

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١٣٦/٣ .

(2) السابق نفسه ، ص : ١٥١/٦.

(3) السابق نفسه ، ص : ٢٢/١ . .

(4) هو صلاءة بن عمرو بن مالك بن عرف بن الحارث بن عوف بن منبه بن أود ، كان من كبار الشعراء القدماء في الجاهلية وكان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وكانوا يصدرون عن رأيه وتعده العرب من حكمائها .
أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، مصدر سابق ، ص : ١٩٨/١٢ .

لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُم   وَلاَ سَرَاةَ إِذَا جُهَّـــالَهُم سَـــادُوا
وَالبَيتُ لاَ يُبْتَنَـــى إِلاَ لَــهُ عَمَــدُ   وَلاَ عِمَـــادَ إِذَا لم تُـــرْسَ أَوْتَـــادُ
وَإِن تَجَمَّــــعَ أَوتَـــادٌ وَأَعْمِـــدَةٌ   يَومًا فَقَد بَلَغُوا الأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

وفي مقدمة كتاب " الوفود " (١) يعرض شروط الوافد على قومه ، ويجدها في قيس بـــن عاصم المنقري (٢)، الذي وفد على النبي ﷺ فبسط له رداءه وقال فيه

((هذا سيد أهل الوبر.))

ثم ختم بقول الشاعر الذي رثاه بعد وفاته بقوله : (٣)

عَليكَ سَلاَمُ اللهِ قَيْسَ بنَ عَاصِـــمِ   وَرَحْمتُهُ مَـــا شَـــاءَ أَنْ يَتَرحَّمَـــا
تَحِيَّةَ مَنْ أَلبَسْـــتَهُ مِنْـــكَ نِعمَـــةً   إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بِلاَدَكَ سَلَّمَا
وَمَا كَانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِـــدٍ   وَلكنَّـــهُ بُنْيَـــانُ قَـــومٍ تَهـــدَّمَا

فالخاتمة بهذه الأبيات توقفنا على نتيجة مائزة لهذا الكتاب ، حين تعقد صلة بين العنـــوان وصاحب هذه الأبيات ، فإذا ما ذكر قيس بن عاصم تتبدى قصته حين وفد على النبي ﷺ وإجادته بين يديه .

في كتاب "الزبرجدة في الأجواء والأصفاد " (٤) يختم بقوله ﷺ ((أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))(٥) . وفي كتاب " الأجوبة " (٦) يختم بقول النبي ﷺ :((إن

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢ ، وتخريج الحديث من المستدرك على الصحيحين ،محمد عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية (بيروت – ط١ – ١٤١١هـ / ١٩٩٠م) ص : ٣ / ٧٠٨ .

(٢) قيس بن عاصم ، سبقت ترجمته في ص : ٦٠ .وتخريج الحديث من المستدرك من الصحيحين ، النيسابوري ، مصدر سابق ، ص : ٣/ ٧٠٨ .

(٣) الأبيات لعبدة بن الطبيب ، سبقت ترجمته في ص : ٦٠ .

(٤) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدرسابق ، ص: ٢٤٢/١. .

(٥)علي بن حسام الدين المتقي الهندي ، كتر العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق: بكري حياني ، صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، ط ٥ ، ١٤١ ، ١٩٨١م) ورد (أنفق يابلال ..) ٣٥/٦ .

(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص: ٦/٤

من البيان لسحراً .)) [1] إن في هذه الأحاديث إيجازًا من غير إقلال، وإفهامًا من غير إملال وقد اختار نصها موجزاً ليحفظ ويحتج به في مواقف تدخل في باب الأجواد والأصفاد ، إضافة إلى نشر الحديث بطريقة مغايرة للناس .

وفي كتاب "الفريدة في الحروب ومدار أمرها" يكون الختام بعد عرض الحروب ومعاناة الجيوش والإقدام ومحمود عاقبته ، ولؤم الفرار ومذموم مغبته بدعاء الله ، الذي بيده تنكشف الكروب وتتفتح الدروب – والله المعين –[2] فكأن الحرب لا تحتاج إذا ما ذكرت معاناتها وقسوتها إلا إلى الاستشفاء بهذا الدعاء وكفى .

وقد يختم بنصيحة ملائمة للكتاب الذي يعرضه ، حاثاً على تناوله ، وحفظه ، والاعتداد بعلمه ومكنونه ؛ من ذلك قوله في " كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك "
((وحفظ هذا الباب أوجب على الإنسان من حفظ عرضه ، وألزم له من قوام بدنه .)) [3]
وفي كتاب" الفريدة الثانية في الطعام والشراب " يقول : ((وقد وضعنا لكل شيء من ذلك باباً ، فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصيله ، ومنتهى نظره ، فإن الرائد لا يكذب أهله .)) [4] وبعد الحديث عن " أعاريض الشعر وعلل القوافي " يقول :((وضمّنت في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها ، وداخلاً في معناها من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها .)) [5]

فالخاتمة مشتملة على هدف ونتيجة لهذا العرض المنهجي المبسط الذي اتبع فيه طريقة مفاهيمية معينة ، يهدف من خلالها إلى التسهيل والإبانة ، ثم الحفظ وقوة الحجة بها. مازال ابن عبد ربه يذكر في ختام كتبه ما يدل على تنوعها ، فإذا ما قرعت الآذان عُلم عنوانها .

وقال ابن عبد ربه في كتاب" الياقوتة في العلم والأدب " : وقد قالت الحكماء :

---

(1) الهندي ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مصدر سابق ، ص: ٥٧٩/٣ .
(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٢١/١ .
(3).السابق نفسه ، ص : ٩٤/٢ .
(4).السابق نفسه ، ص: ٣١٣/٦ .
(5).السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥ .

((العلم قائد والعقل سائق والنفس ذود ، فإذا كان قائد بلا سائق هلكت ، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً ، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً .)) [1] هذا نوع كانت الكلمة الأخيرة فيه لقوم من أصحاب الكلمة المعبرة من العلماء والحكماء والخلفاء الموثوق بصحة حكمتهم وأقوالهم .

وكذلك قوله في كتاب" الدرة في النوادب والتعازي والمراثي " : ((وقال الحكماء: أعظم المصائب كلها انقطاع الرجاء . وقالوا : كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة ؛ فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر .)) [2]

وقوله في كتاب "اليتيمة في النسب وفضائل العرب" : ((وقال عمر بن الخطاب : تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد : إذا سئل أحدهم عن أصله قال : من قرية كذا وكذا .)) [3]

فالخاتمة تقيم علاقة بينها وبين العنوان ؛ إذ تقرره وتوضحه وتفسره وتعطي فائدته للمتلقي بأوجز صورة ، وأطنب معنى .فهي ذات طابع شمولي لمضمون الكتاب وعنوانه ، وغايته الآملة والراجية .

ثم يزداد الأمر إبداعاً في تلك المقدمات التي ختمت بخبر ذكره المؤلف تحت عنوان ما من غير اكتراث لطول أو قصر ؛ إذ التفاوت في ذلك واضح كخبر صحيفة بشر بن المعتمر التي دفعها لإبراهيم بن جبلة الخطيب الذي كان يُعلم الفتيان الخطابة ، فقال بشر للفتيان : اضربوا عما قال صفحاً ، واطووا عنه كشحاً : ثم دفع إليهم صحيفته وذكر ما جاء فيها في حدود صفحة تقريباً وجعلها خاتمة لمقدمة كتاب " الخطب " [4].

وكان مما جاء فيها : ((خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الاستماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ،

([1]).السابق نفسه ، ص : ١٧٨/٢ .

([2]).السابق نفسه ، ص : ٢٦٦/٣ .

([3]).السابق نفسه ،ص : ٣١٢/٣ .

([4]).السابق نفسه ،ص : ٥٨/٤ .

وبالتكلف والمعاودة ...))[1] فقال له إبراهيم بن جبلة : ((جعلت فداك ، أنا أحوج إلى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة .))[2]

وفي كتاب " العسجدة في كلام الأعراب" جاء بخبر ربيعة الرأي مع الأعرابي لِيَكُون خاتماً لمقدمته فقال:((تكلم ربيعة الرأي يوماً بكلام في العلم فأكثر ،فكأن العجب داخله فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه فقال : ما تعدون البلاغة يا أعرابي ؟ قال : قلة الكلام ، وإيجاز الصواب . قال : فما تعدون العيّ ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم .فكأنما ألقمه حجراً .))[3]

فهذه الأخبار وغيرها اشتملت على فائدة يحسن السكوت عليها ، والأخذ بها يعد أخذاً لدرةٍ نفيسةٍ، ثم إن هذه الفائدة في آخر الخبر ، هي القول الفصل لسياق خاص بالخبر الذي خاضته ، ثم سياق عام خاص بالكتاب والعنوان ، لذلك جاءت الخاتمة على هذه الشاكلة ببعد نصي وبعد معبر عن المادة وعنوانها .

ثم إن هذه المقدمات النثرية في صورتها الشكلية وصياغتها البنائية ، استطاعت أن تبرز النص من دون أن تلغي شخصيته ، وسلحت المتلقي بما هو أولى أن يعرفه ويعيه قبل أن يلج عالم المتن ، بل قد تشتمل المقدمات على أخبار وقصص لم يذكرها في متن الكتاب.

والمقدمات تقوم بوظيفة فاعلة لكونها عتبة من العتبات التي تسير بمحاذاة النص وتعين عليه ، ثم هي تشترك مع عتبة العنوان والهامش في تيسير الكثير من العقبات التي تواجه القارئ ، والوقوف عليها أولى وأوجب من ركنها وإهمالها .

إن من مميزات الخاتمة في مقدمات العقد الفريد :

١ – الاختتام في كل غرض بما يناسبه ويوضحه .

٢ – استعذاب اللفظ واستجزال معانيه في الخاتمة .

٣ – تضمنها حكمة ، أو مثلاً سائراً ، أو حديثاً نبوياً ، أو نصيحة جامعة للمعنى .

٤ – الوقع الصوتي والتشبيه الحسن .

٥ – موافقة الذوق الأدبي العام ، وقربها للنفوس حتى تكون أدعى للحفظ .

---

(١).السابق نفسه ،ص : ٥٨/٤ .

(٢).السابق نفسه ،ص : ٥٩/٤ .

(٣).السابق نفسه ،ص : ٤٢٠/٣ .

٦ – الاهتمام بمصطلح ، حسن الاختتام .

وقصد به ((قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكماً : لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه))[١] وقد اعتنى النقاد بالخاتمة لأنها منقطع الكلام وخاتمته ، فالإساءة إليها مفضية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس ، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو ، وترميد بعد إنضاج [٢].

فإن هذا الفصل يؤكد أهمية التئام أجزاء الكلام التئاماً لا تناقض فيه فيما يسمى (الوحدة) وهي ليست وقفاً على الشعر ، وإنما في كل عرض منطقي سليم ، فالناثر أو الشاعر يرتب موضوعاته ترتيباً يقوم على النمو المطرد،بحيث ينشأ أحدها من سابقه نشوءاً عضوياً مقنعاً ، ويقود إلى لاحقه بنفس الطريقة حتى يتحقق " الترابط " بين الأجزاء، بحيث لا تبدو هذه الأجزاء متنافرة غير متسقة ، وفي ذلك يقول عبد القاهر: ((واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم،بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك ، لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نضد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس إلا أنه تكون مجموعة في رأي العين .))[٣]

وإن الأبنية الشكلية من مقدمة وعرض وخاتمة أبنية قائمة بذاتها كوحدة عضوية ،ثم كوحدة في البناء الشكلي العام ، وكان الانتقال بينها انتقالاً منظماً لا يخرجك من قالب التفكير في المقدمة إلى العرض بدون ربط بينها ، بل تشعر وكأنك في المقدمة لم تلامس مرحلة العرض بعد ، وكذلك الحال بالنسبة للخاتمة التي تصل إليها بدون أن تشعر بثقل الانتقال، وتكدير الصفوة، ذلك لأن ابن عبد ربه يدرك التعامل مع الأنفس والقلوب

---

(١) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،مصدر سابق ، ص : ٢٣٩/١ .

(٢).ينظر : مناهج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني ، مصدر سابق ، ص : ٣٨٥ .

(٣).عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر ، مكتبة المعارف (الرياض ، ط٥ ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م) ،ص : ٩٦ – ٩٧ .

والأسماع ، فكثيراً ما يقرر ذلك في مقدماته كقوله : ((هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ..)) [1]

---

(1).ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص: ٥/٦ .

المبحث الثاني :
السمات الفنية لمقدمات
"العقد الفريد"

لعل من أهم ما يميز كتاب "العقد الفريد" أنه وضع عنواناً لكل كتاب ، وبين سبب التسمية بالبسط والتوضيح والتفصيل ليوضح رؤيته الخاصة عن ذلك الموضوع ، وتبعًا لذلك وبسببه اختلفت أطوال المقدمات فطال بعضها وقصر البعض الآخر ، ثم إنه وضع فرشًا لكل كتاب ، ومن سمات هذا الفرش التناول التفصيلي والتوضيحي للعناوين التي يُعنون بها، وكان هذا التفصيل والتوضيح بدافع الإحاطة للجهات التي يريد أن ينبه عليها ،

ويدعم موقفها وهو تنبيه للعنوان في أول الأمر – بصفة خاصة – ، ثم للمراد من هذا العنوان من زاوية أخرى ، وذلك نحو كتاب "اللؤلؤة في السلطان" : ((السلطان زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود ، والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا . وهو حمى الله في بلاده وظله الممدود على عباده ، به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم.))[1] فالعنوان الذي عنون له الكتاب هو السلطان ، والمقدمة في أول سطورها توضح من هو السلطان ، وكيف يستحق أن يكون سلطاناً ، حتى يسمى سلطاناً . فهي تعريف بالمفهوم الوصفي العنواني، ثم يكمل المقدمة بالمهام المأمولة في السلطان ، والمنتظرة منه للرعية أو الشعب ، وفي كتاب "الياقوتة في العلم والأدب" :((فإنهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا ، وفرق ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعية البهيمية ، وهما مادة العقل وسراج البدن ...))[2]

فالعنوان هو العلم والأدب ، والمقدمة تقرر وتوضح منذ بداية سطورها على أهميتهما، وتنبه على العناية بهما ، والحرص على تناولهما تناولاً شافياً لضروب صنوفه ، وعمق إدراكه ، وغزير فيضه ، لأن هناك فرقًا جذريًا بين الإنسان وسائر الحيوان ، ومن خلال تقسيم العلم ، فالعلم علمان : علم حُمل وعلم استُعمل ، فيصف كلا منهما وصفاً يجعلك تختار الملائم وتزهد بالآخر ، ويذكر الشواهد التي تزيد الموصوف وضوحاً وإفهاماً. إن ابن عبد ربه في تنبيهه وتعليقه يؤكد أهمية العنوان تأكيداً تأليفياً بمعنى صدق هذا العنوان في التناول ، وحقه في البسط والتوضيح والتفصيل ، وتناوله من حيث المزية والفضيلة التي لا بد أن تكون ، حتى يستحق وميض ذلك الجوهر أو اللؤلؤ الذي يتسمى به ، لنحصل في النهاية على مزايا مضاءة قد عكست واقعاً لمجتمع جمع الفضائل والمحافل والصفات، وتراصفت مع بعضها لترسم صورة العقد الثمين على أرض الأندلس .

وبذلك كان للمقدمات طابع خاص مصطبغ برؤية الكاتب ونظرته التأليفية ، وهذا الاصطباغ يبدو جلياً أيضًا من خلال الاختلاف في أطوال المقدمات وقصرها، وهو اختلاف لا يخضع لمنهجية ترتيبية أو تنظيمية ، بقدر ما يحدد ذلك العنوان وحاجته إلى التقديم والبسط الفكري ، والتحليل التفصيلي ، والتتابع المنهجي . من ذلك كتاب "اليتيمة

---

(1).السابق نفسه ، ص : ٢٠/١ .

(2)السابق نفسه ، ص: ١٧٧/٢ .

الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة "، يتحدث في ثمانية سطور عن قدراتهم السياسية ، وممارستهم الأمور وتجريبهم الدهور ، وكان قوله جامعاً لهؤلاء الأربعة دون استثناء ، ولأنه يريد أن يعلق على سبب اختيارهم دون غيرهم ، وينبه على أهمية معرفة أخبارهم ، ولم يذكر في حديثه شاهداً أو خبراً أو قصة، بل ترك ذلك للمتن يفصله ويقرره، وكانت المقدمة وافيةً ومؤديةً لدورها ، ولم تكن تؤدي دوراً هامشياً ، أو تضيف زائداً عن الحاجة، وإنما زودت المتلقي بتلك الأهمية التنبيهية التي يندفع بها نحو النص .

وفي كتاب " العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم" [1] لا يذكر في مقدمته غير العنوان السابق التأليف ، والعنوان الذي يقدم له . ولا يتجاوز في ذلك ثلاثة أسطر ، فلم يذكر اسماً من أسماء الكتاب أو الحجاب أو شاهداً على الأيام ، ولم يعلق أو ينبه على أهمية العنوان ، وربما وجد في ذلك فيضاً من الإسهاب والإطناب الذي لا طائل منه ، لأن الكتاب تناول ذلك تناولاً تفصيلياً وافياً شافياً .

وفي كتاب" اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح" [2] تبلغ المقدمة ثلاث صفحات ونصف يبدؤها بذكر العنوان السابق ثم العنوان الحالي الذي يرى فيه نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور ، ثم يمضي في ذكر الشواهد المبدوءة بحديث نبوي عن ترويح القلوب ساعة بعد ساعة ، ثم يمضي في ذكر الأقوال والأخبار مما يتوافق مع العنوان والمراد منه . ولما كانت الحياة الاجتماعية والأوضاع السياسية تفرض نوعاً من الملل والإحساس بالخوف والقلق والغربة وصعوبة التكيف مع الواقع الجديد إلى حد ما ، كانت الأنظار متوجهة إلى الترويح والتنفيس وجلب الراحة من أبسط طرقها ، وفي سماع الفكاهات والملح راحةً قلبيةً وسرورًا وانبساطاً ، لذلك كانت المقدمة طويلة ومليئة بالشواهد الجامعة للأحاديث والأخبار والأقوال التي يتحدث بها عن ضرورة تناولها وتبادلها، بل البحث عنها وسماعها . فمن هذه الحاجة كانت تلك الإطالة ، ولصعوبة الحياة وتصاعد الأوضاع وتعقدها كانت الفكاهات والملح .

وبذا عنوان الكتاب هو الحائز على الاهتمام منذ بداية التأليف ، لذلك نجد العنوان ينخرط في سياق تكراري يلتزمه المؤلف في كل كتاب ، فلا يذكر العنوان ويوظف آلياته

(1). السابق نفسه ، ص: ٥/٥ .

(2).السابق نفسه ، ص : ٢٣٣/٤ .

ولطائفه إلا بعد أن يذكر العنوان السابق والعنوان الحالي ذكراً قصدياً ملزمــاً في جميــع الكتب ، بل إن القارئ إذا نسي أو تجاهل صفحة العنوان يجد ذلك مدوناً في مقدمتــه ، وحائزاً على أول بيانه في حديثه ، فالعنوان على هذا الأساس عنوان يتكرر في الكتــاب الخاص به وفي الكتاب اللاحق ، ولا شك أن هذا التكرار فيه ضرب من الإقرار والتأكيد وزيادة الفائدة الحسنة ، التي ترمي إلى إضافة علائق وارتباطات بين العناوين ، من ذلــك قوله في كتاب "الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي" : ((وقد مضى قولنا في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أعاريضه وعلله ، وما يحسن ويقبح من زحافه ، وما ينفك من الدوائر الخمس من الشطور التي قالــت عليهــا العرب والتي لم تقل .)) [1] .

فالمقدمة كررت عنوان الكتاب السابق ، ثم ذكرت العنوان الذي تقدم له ، وبــين الكتابين وعنوانهما ارتباط قوي ، إذ الشعر صناعة فصّل في كتابــه الســابق فضــائلها ومقاطعها ومخارجها، وكان من باب الإكمال للعمل ، والإتمام للكتــاب ، أن يقــف في كتابه الحالي على عروض الشعر وقوافيه وزحافه وعلله ، حتى تستوي تلك الصــناعة في الظهور من جميع أبوابها ، وتُغطي جميع اتجاهاتها وزواياها ، فــالتكرار يستحضــر تلــك الأفكار الارتباطية، والمفاهيم العلائقية بين العناوين ، لتكون النتائج ذات أهميــة دلاليــة شكلت مضامين المقدمات جميعها، وتوالدت الفوائد من توالد العناوين وأفكارها ، ويدل أيضاً على ترابط المقدمات في عقد صمم خصيصاً ليجمعها في سياق واحد مــائزاً لهــا، يحدده الترابط والانسجام بين العناوين المعنونة في داخل المقدمات . إن التكرار حين يقوم بهذه الفوائد والإيحاءات يعتمد على التكرار اللفظي للعنوان ، فيكون باللفظ المعنون نفسه لا يزيد عليه ولا ينقص ، وذلك نوع من أنواع التكرار . أما النوع الآخر فهــو تكــرار لمضمون الكتاب السابق في كثير من المقدمات، وتلك فائدة جليلة في إيجاز النتيجــة ، أو الخلاصة القولية المرادة من العنوان السابق ، فكأن القارئ حين يغفل عن قراءة الكتــاب السابق ويبدأ في هذا الكتاب ، يَجد من مقدمته مساعدة في تقديم العنوان وخلاصته، فإذا ما احتاج إلى الإسهاب والتفصيل فإنه يعود إليه ، ثم إنها مقدمة تعرض الأفكــار العامــة

([1]). السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥ .

والخيوط الرفيعة في الكتاب السابق . ففي كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها يقول : ((قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعيه من لزوم طاعته وإدامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته .))[1] فالكتاب السابق في تأليفه على كتاب الحروب هو كتاب السلطان ، وكان المراد من تأليفه معرفة ما له من العدل والرفق بالرعية وأهل مملكته ، في حين إدامة النصيحة ولزوم الطاعة على الرعية ، وهذه خلاصة الكتاب ومراده والهدف من تأليفه ، والوقوف على الشواهد وقراءهما ومعرفتها يتطلب من القارئ العودة للكتاب ، وفي ذلك الذكر ضرب من التكرار المضموني الذي له فائدته ومغزاه بذكره في مقدمة الكتاب اللاحق ، والتكرار باب واسع ذكرت فيه هنا ما كان سمة للكتاب ومائزة من مزاياه، وتفصيل القول فيه أكثر داخل تحت عنوان الألفاظ والتراكيب في المبحث الثالث من هذا الفصل–إن شاء الله– .

إن للبناء المقدماتي من مقدمة وعرض وخاتمة قالبًا خاصًا ينسجم فيه النص منذ البداية إلى النهاية ، هذا الانسجام يقيم بين أقسام البناء تآلفاً نصياً ومعنوياً ، إذ ينتقل من المقدمة إلى العرض ومن العرض إلى الخاتمة انتقالاً ينتقل القارئ فيه مع الانتقال النصي دون أن يشعر بهذا الانتقال ، وتلك طريقة تخلصية مبدعة من الكاتب، إذ لا يقطع حبل الأفكار المتسربة إلى العقل من المقدمة حين الانتقال إلى العرض ، وكذلك الحال عند الانتقال إلى الخاتمة ، ((وطريقة التخلص ينحى بها أبدًا نحوان : نحو يتدرج فيه إلى ما يراد التخلص إليه، وينتقل بتلطف إليه ، مما يناسبه ويكون منه بسبب ، ونحو لا يكون التخلص فيه بتدرج وانتقال من الشيء إلى ما ينسبه ، ويشبهه ، ولكن بالتفات الخاطر حيزاً من حيز وملاحظته طرفاً من طرف ، فينعطف إلى ما يريد التخلص إليه بما يكون مناقضاً أو مخالفاً أوشك انعطاف من غير مقدمة تشعر بذلك .))[2] إن ابن عبد ربه في طريقته التخلصية يميل إلى الطريقة الأولى التي يتدرج فيها بتلطف ومن فقرة إلى أخرى ، وكلها ذوات صلة واحدة ومتشابهة وقريبة من بعضها .

وفي كتاب "الفريدة الثانية في الطعام والشراب" يقول : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الطعام والشراب اللذين بهما تنمو الحواس وهما قوام الأبدان ، وعليهما بقاء

---

(1). السابق نفسه ، ص : ١/ ٢٠ .

(2). حازم قرطاجنى ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، مصدر سابق ، ص: ٣١٩ .

الأرواح . قال المسيح عليه السلام في الماء : هذا أبي . وفي الخبز : هذا أمي : يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيهما الأبوان . وهذا الكتاب جزآن : جزء في الطعام وجزء في الشراب . فالذي في الطعام منهما متقص جميع ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام من .))[1]

ففي المقدمة الخاصة بالمقدمة ذكر العنوان الذي سيتناوله وهو عن الطعام والشراب، ونبه إلى أهميته لأنهما بقاء الأرواح وقوام الأبدان ، وكانت هذه الجملة سبباً تلطفياً ينقل الكلام إلى العرض، وفيه الحديث عن الخبر الذي يوضح سبب كون الطعام والشراب من أسباب الحياة ، ولوازم المعاش ، وقوله يؤكد ما ذكر في المقدمة ويقرره ، وهكذا ينطلق من مرحلة إلى أخرى ، ويعقد انتقالاته على لطائف ونسائم لطيفة ، لا تمج النفس بأسلوبها ولا تنفر بمرورها وانتقالاتها ، بل تنخرط في هذا السياق الانتقالي، ولا تشعر إلا بانتهاء المقدمة من غير ملل أو نفور. وذلك الانسجام يدل على الوحدة الأدبية للنص عمومًا، إذ يتحد هذا القالب مع بعضه اتحاداً منظماً متيناً لا يبعد فيه طرف عن طرف، ولا يتعارض صوت العرض مع صوت المقدمة، أو صوت الخاتمة مع صوت العرض .

فالمقدمات الأدبية في العقد مقدمات تتسم بالوحدة الأدبية العامة للنص ، ثم الوحدة الجزئية لكل طور من أطوارها ، إذ إن لكل طور مزاياه وخصائصه ووظائفه ، التي لا يمكن أن يقوم بها غيرها ، وذلك لأن لكلٍ من المقدمة والعرض والخاتمة وظيفة اعتبارية تقوم بها حتى تتحقق الفائدة المقدماتية تحت مفهوم " العتبة النصية " فإذا ما تلاحمت هذه الأجزاء ، وتلاحمت وظائفها ، أدت المقدمات من هذا التلاحم تلك الوحدة البنائية المتجانسة المترابطة .

وكانت المقدمات بمثابة الديوان الذي احتضن خلاصة فكر ابن عبد ربه وتجربته وعلمه ، إذ تناولت من الشواهد الشعرية والنثرية والأخبار والأحاديث والآيات الشيء الكثير ، ويبدو أن هدفه من ذلك تقديم تلك الأبعاد التاريخية والدينية والثقافية في مكان واحد ، ويأخذ القارئ منها على حسب تلك الميول والوجهات ، و الأبعاد التي يركز عليها في قراءاته ، فإذا ما عرضت كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاد" [2] كان الحديث عن العنوان ، والتنبيه على أهميته ، ثم الاستدلال بحديثهﷺ " إذا أتاكم كريم قوم

---

(1).ابن عبد ربه ، **العقد الفريد** ، مصدر سابق ، ص : ٣١٣/٦ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٢٤٢/١ .

فأكرموه ." [1] ثم الحديث المأثور ، ثم خبر عن الحسن والحسين – عليهما السلام – مع عبد الله بن جعفر ، ثم خبر المأمون وقوله لمحمد بن عباد المهلبي ، ثم يختم بحديث . فهذه الشواهد المتنوعة بين الأحاديث والأخبار ، قد قلدت أموراً أو وجهات دينية وتاريخية على مر ثلاثة عصور ، وكانت مما يخدم العنوان ويوضح المراد منه . وقد يطيل في بعض العناوين أكثر من ذلك ، إذ لا يشترط التساوي في ذكر الشواهد وتضمينها الكتاب ، وقد يقلل ويجعل الحديث عن العنوان وما يريد أن يتحدث عنه ، كمنهج التزمه في الكتاب وأوضح خطته الدراسية له في مقدمته ، ككتاب "الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي" [2] ، فقدكان الحديث عن الشعر وما يحسن وما يقبح منه ، وما ينفك من الدوائر الخمس من الشطور التي قالت عليها العرب ، فيذكر كلاماً موجزاً ، لأنه سيتحدث عنه في داخل الكتاب ، وليست المقدمة إلا لبيان العناوين ، والأنواع التي سيتحدث عنها لاحقاً . في حين كان كتاب "اللؤلؤة في السلطان " [3] أكثر شواهد ، وأغزر أخبارًا، عن سابقيه ، إذ ذكر قول لأحد الحكماء ، وحديثًا قدسيًا ، وآية قرآنيةً ، وحديثًا نبويًا ، وأشعارًا ، وأقوالاً لصحابة ، وأخباراً لقادة. فالكتاب شامل ومتنوع يعطيك الفائدة من مقدمته ، ويزيدك من قبيل الأقوال والأخبار في الكتاب .

ثم إن المقدمة تضطلع بالأخبار الفريدة غير المكررة ، أو المعادة في الكتاب ، وفي ذلك دلالة على وعي المؤلف بأهمية المقدمة ، وأنها تقدم وتضيف ، ولا يستهان عند التأليف لها بالسياق المطلوب ، أواللغة الراقية الرفيعة ، بل لها موضعها في التأليف ، ويبسط الكاتب فيها فكره وعقله وتجربته ، ويتعامل معها تعامله مع النص الأصلي .

ومن خلال المقدمات وظف ابن عبد ربه ما تأثر به من ثقافات يونانية وفارسية ، وفي ذلك دلالة على إحاطته بعلومهم ، ووقوفه على معارفهم ، وقد وجد فيها بغية ومطلباً فلم يتردد في رصفها ووضعها في المقدمة المناسبة ؛ لتكون مناط الفائدة وسبيل التحصيل للمستفيدين –المتلقين– من الكتاب .

---

(1) الهندي ،كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، مصدر سابق، ص : ٩/١٥٣ .

(2) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،مصدر سابق ،ص : ٥/٤١٧ .

(3) السابق نفسه ،ص : ١/٢٠ .

فإن المقدمات في سياقها العام تستند إلى لغة خطابية نثرية تعرض الأفكار بصـــورة خطابية رفيعة ، لا تجادل ولا تحاجج إلا بالإقناع ، وتفرض الحجج المدعمـــة بالأدلـــة ، وتعتمد على التعليل الموضوعي لبعض العناوين ، كمؤشر نسبي لتوضيح مزاياه ، وقيمتـــه التأليفية والتناولية ، ويستخدم الجملة الاسمية التي تعينه على هذا التوضيح ، وتلك سمة أدبية في مقدمات العقد ، من ذلك كتاب" العسجدة في كلام الأعراب" الذي يقول فيه :

((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة ، إذ كان أشـــرف الكـــلام حسباً، وأكثره رونقاً، وأحسنه ديباجاً ، وأقله كلفة ، وأوضحهُ طريقه ؛ إذ كان مـــدار الكلام كله عليه ، ومنتسبه إليه .))[1]، فذكر في مقدمته سبب اختياره لكلام الأعراب على وجه الاختصاص ، وكان ذكره بجمل اسمية تفيد الدوام والثبوت والاستمرار ، وهذه الديمومة والثبوتية طابع التزمه كلام الأعراب ، وهي صفة دائمة بها ، وليست على وجـــه الندرة أو الكثرة بل على وجه الديمومة والاستمرار، وذلك يعطي الموصوف أهمية وتقوية مكانية ، ويعزز كيانه وجوهره، فتتميز مادته القولية (كلامه) برونقها وحسنها عن باقي الأقوال .

وكثيراً ما يلاحظ في أسلوبه تمييز العنوان عن غيره بلفظ (أفعل) ،كما سبق في هذا الشاهد من استخدام (أشرف ، أكثر ، أحسن ، أوضح ، أقل) على وزن أفعـــل، كبناء من أبنية الأسماء الذي ميز العنوان بعدما فاضل بينه وبين غيره ، ولم يذكر المفاضلين معه ،ولكنه اكتفى بوجه المفاضلة في الشرف والوضوح والحسن، والمفضل عليهم من تلك الوجوه جميعها . كذلك أيضاً في كتاب " المجنبة في الأجوبة " ((وقد مضى قولنا في كلام الأعراب خاصة ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام كله مركباً ، وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً وأضيقه مسلكاً .)) [2]

فالمقدمة قررت في ثناياها العنوان المطروح ، وهو الأجوبة ، ووصفت عن طريـــق أفعل التفضيل واسمية الجملة مزاياها وقيمها ، ومن خلال المفاضلة بينها وبين غيرها الذي (لم يذكره) وتقدير حذفه (من سواه) كان وجه المفاضـــلة في الغمـــض ، والعـــزة ،

([1]).السابق نفسه ، ص : ٤٢٠/٣ .

([2]).السابق نفسه ، ص : ٥/٤ .

والصعوبة في التركيب ، وضيق المسلك ،ثم بين سبب استحقاقه ذلك في قوله : ((لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة .)) [1]

فالتعليل للأحكام أحق بالتأليف والبيان من ذكر المفاضل عليهم ، وتزيد تلك الأحكام إحكاماً وبياناً، وقبولاً وإحساناً ، في كتاب" الواسطة في الخطب"، إذ يقول : ((اعلم أن جميع الخطب على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك موضع يليق به ، ومكان يحسن فيه .)) [2] فاللغة الخطابية تعتمد على نوع من أنواع أساليب الطرح التعليمي الذي يوجهك إلى الفائدة العلمية بتوجيه ذهنك إلى الأخذ بالعلم والمعرفة ، ويأمرك بالتحصيل بأول كلمة منه ، لتقع في نفسك موقع تنبيه وإيذان بأهمية ما بعدها ، فستشرف الأنفس لتقبلها ووعيها فإذا ما وقعت أُخذت أحسن مأخذ .

وبعض مقدمات العقد مُعنونة بعنوان طويل ، يتناول عدة أبواب أو فصول ، ولكنه في سياق شواهده يجعل الحديث محاطاً بباب أوفصل واحد ولا يتعرض لغيره ، وفي ذلك ذكر للخاص بعد العام ، فكتاب" الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين " [3] يتناول عدة جوانب ، لكنه يذكر في مقدمة المقدمة كلاماً عاماً يصف العنوان بأكمله ويتحدث عن مزايا أخبارهم ، وأنها كالحدائق والأنوار بما فيها من طرفة ونادرة ، ثم يبدأ بسياقة الشواهد عن المتنبئين ، وكأنه يوجز بهم القول عن غيرهم ، فالفائدة من أخبارهم ، وما عندهم من طرفة ونادرة قد وجدت في أخبار الممرورين والبخلاء والطفيليين أيضاً ، لكن الإيجاز بهم ضرب من التنبيه منهم ؛ لخصوص خطرهم وتفشيه عن غيرهم ، إذ قد يتجاوز الطرفة والنادرة إلى النكبة والطامة .

كذلك في كتاب" الزمردة في المواعظ والزهد" [4] يضع هذا العنوان للكتاب ويذكر في بداية مقدمته أن كتابه على جزأين يتناول الزهد في الجزء الأول ، وفي الثاني المواعظ ، ويسوق في المقدمة الشواهد المعاضدة للعنوان ، ويعلق ويعرف ويفسر لكن في المواعظ فقط ، ويخصها عن الزهد، الذي يسوق له شاهداً واحداً .

---

(1). السابق نفسه ،ص : ٦/٤ .

(2). السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

(3). السابق نفسه ، ١٥١/٦ .

(4). السابق نفسه ،ص : ١٣٥/٣ .

وكان الدافع من هذا الاختصاص تقوية الدوافع ، وزيادة اليقين الإيماني بالموعظة ، لأنها طريق الزهد ومفتاح بابه وسرّ الهداية إليه ، فإذا ما تحصنت العقول ، وتسلحت الأنفس ، وتبصرت القلوب ، في هذه الشواهد الواعظة وتأثرت بمحتواها لن يطول الوصول إلى الزهد وخُلقه .

إن الشواهد في داخل المقدمات تدل على تبصّر ابن عبد ربه في العلوم والمعارف ، وتنوع ميوله بين الأدبية والسياسية والتاريخية والعلمية والدينية ، كل ذلك تحت عنوان واحد يجمعها ويألفها وينظمها ، ولكنها شواهد كانت من قبيل التأييد الضمني للمضمون العنواني ؛ إذ تنخرط في مراده وهدفه من خلال عرضها ، فلم يتناولها بالشرح أو التفصيل أو التفسير أو التحليل ؛ وذلك لاعتماده في ذلك على لفظها الصريح ، والعبارة الواضحة التي لا تحمل تأويلاً آخر ، فإذا أحس بخلاف ذلك وأن لبساً قد يكون من وراء هذا النص أو تلك العبارة ، شرع في بيان مغزاه ومعناه بكلمة موجزة معبرة كنوع من التفسير الصحيح للمعنى المراد من النص ، كانت التحليلات للشواهد أوالإبانة عن المراد ومعناه في النص قليلةً جداً ، إذا ما قورن بالمبسوط من غير توضيح ، وفي ذلك دلالة على بساطة الشواهد ، ووضوح لفظها الدال على معناها من أبسط الطرق ، وسهولة تناول الكتاب تناولاًسهلاً ، ومرناً مفيداً.

وفي ذلك أيضاً دلالة على ميل ابن عبد ربه إلى الإيجاز الذي يتحدث عنه في مقدماته ، وهو إن لم يفرد له عنواناً ، لكنه تقصده تقصداً واضحاً ومتعمداً في تعريفه له ، وذكر شواهده ، وبيان شرفه وقيمته ، ومواطن قدرته وقوته ، ولِما كان في هذه المواطن أعز مطلباً ، وأحسن جوهراً من الإطناب والتطويل ، ويتضح أيضاً ذلك الميل إلى الإيجاز في حذفه للأسانيد المتصلة بالأخبار ، كضرب من الإيجاز على القارئ ، والوصول إلى الفائدة دونما مسافة تفرضها ظروف التأليف ، وذلك أمر تقصده ووظفه في مقدمة الكتاب فقال : ((وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة ، وحكم نوادر ، لا ينقصها الإسناد باتصاله ولا يضرها مأخذة منها .)) [1]

([1]). السابق نفسه ،ص : ١٧/١ .

فالإيجاز سمة أدبية تسامت بها مقدمات العقد ، وقلّدتها في شـــواهدها وعباراتهـــا وشرحها وبسطها .

إضافةً إلى أن ابن عبد ربه لا يجعل النفوس تتعطش إلى معرفة سبب تلك الأحكام والأخبار التي من أجلها اكتسب هؤلاء هذه المزية ، فيجعل في كتابـــه ونصـــه الأصـــلي تفصيلاً وشرحاً من خلال عرض الشواهد والأخبار والأحداث والقصص الـــتي تـــروي الظمآن ، وتُسكن الرغبة ، وتلبي الحاجة ، وليست المقدمات بهذا الإيجاز إلا مفتاح الباب، وسر الوصول إلى متن الكتاب وقراءته والوقوف على فائدته .

الصورة الفنية :

نالت الصورة الفنية اهتمام علماء البلاغة منذ القدم ، وقد اتجهوا إليها أول الأمـــر اتجاهاً مباشراً ؛ إذ كان جل همهم تحديد (معنى الشعر) ، وإيضاح الفرق بينه وبين النثر ، وعندما أدركوا أن الشعر ليس لفظًا ومعنى فحسب ، بل لفظ ومعنى ووزن وقافية أدركوا أن جماله قائم على فن التعبير ، وأن القصيدة صورة كلية تضم بين ثناياها صوراً جزئيـــة تتجلى فيها روعة الخيال ، ولعل الجاحظ أول من فطن إلى ذلـــك بقولـــه : ((والمعـــاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي والمدني وإنما الشـــأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج ،وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير.))[1] فالجاحظ لا يتعامـــل مع المعاني إلا بعد استقامتها في البيت مع اللفظ ، واكتسائها وزناً وقافيـــةً ملائمـــةً، لأن الأصل في المعاني أسبقية معرفتها عند الناس ، كذلك يقول : ((إن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ، ومنحه المتكلم قولاً متعشقاً ، صار في قلبك أحلـــى ، ولصدرك أملى ، والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصـــاف الرفيعـــة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت، وعلى حسب ما زخرفت.))[2]

---

(1). أبو عثمان عمرو بن بحر الجـــاحظ ،الحيـــوان ، تحقيـــق :عبـــد الســـلام محمـــد هـــارون ،دار الجيـــل (بـــيروت_ ط٢ ١٤١٦هــ/١٩٩٦م) ، ٣/١٣١ – ١٣٢ .

(2)الجاحظ ، البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ص : ١/١٥٧ .

فالجاحظ قد اعتبر الشعر صنعة وصورة ، والشاعر صانع ، والفكرة المجردة في الشعر هي أشبه بالمادة الخام التي يصورها ويشكلها في صورة فنية ، كما أشار إلى النقلة الفنية التي تتحول بها الفكرة المجردة إلى معنى حافل بالثراء ، وهو سر جمال الصورة .

وقدامة يشير إلى حرية اختيار المعاني بقوله : ((المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها مثل الخشب للنجارة ، والفضة للصياغة .))[1] فقدامة يوضح أن من يتناول معنى في أي مغزى شاء ، فعليه أن يحشد لذلك ما اجتمع له من طاقاته الفنية لتصوير هذا المعنى .

وأبو هلال العسكري يشير إلى الصورة وهو يتحدث عن (حدِّ) البلاغة فيقول : ((هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع ، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن .))[2] ، وقال أيضاً عن البلاغة : ((إنما هي إيضاح المعنى وتحسين اللفظ .))[3] ، فكأن المعنى في قالب مغلق ، تفتح البلاغة أبواب مغاليقها بأدوات التصوير التي تمثلها في نفس السامع ، كما قد مثلها القائل في نفسه من ذي قبل ، وإن زادت في إحسانه وتحسينه فهي المحسنة والكاشفة .

وقد أفاض عبد القاهر في ذلك قائلاً : ((ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى – الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه- كالذهب والفضة يصاغ منها خاتم ، أو سوار .))[4] بالمعنى يُبينُ كلما كان التصوير في إبانته منمقاً مزيناً .

وفي موضع آخر يستخدم لفظ التصوير للدلالة على عقد التشبيه بين الأشياء ، وذلك في قوله : ((وإذا ثبت هذا الأصل ، وهو أن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان ، ويثير الكامن من الاستظراف ، فإن "التمثيل" أخص شيء

---

(1) قدامة بن جعفر ،نقد الشعر ، مصدر سابق ، ص:٥٦

(2).أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، حققه وضبط نصه : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ،(بيروت – لبنان ، ط٢ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) ، ص : ١٩.

(3).السابق نفسه ، ص : ٢١ .

(4)الجرجاني ، دلائل الاعجاز، مصدر سابق، ص : ٢٥٤ .

بهذا الشأن ، وأسبق جارٍ في هذا الرهان .)) [١] وجاء لفظ الصورة عنده دالاً على الهيئة التي تحدث للشيئين عندما يمتزجان في الشبه ، فتباين صورهما حينئذ صورهما في الخارج ، وذلك في قوله حين كان يشرح وجه الشبه العقلي الذي ينتزع ((من عدة أمور يُجمع بعضها إلى بعض ، ثم يُستخرج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين يمزج أحدهما بالآخر ،حتى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد ، لا سبيل الشيئين يجمع بينهما وتحفظ صورهما .)) [٢] وتظل نظرته إلى امتزاج طرفي الصورة مع بعضهما في التشبيه التمثيلي ، وإحداثهما صورة جديدة نظرة رائدة في التراث النقدي ، وجعل قياسها ((قياس أشياء يُبالغ في مِزاجها حتى تتحد وتخرج عن أن تعرف صورة كل واحد منهما على الانفراد، بل تبطل صورها المفردة التي كانت قبل المزاج ، وتحدث صورة خاصة غير اللواتي عهدت ، وتحصل مذاقه لو فرضت حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج ، فرضت مالا يكون .)) [٣] لذلك كان يعجب بعقد صلة بين المتباينات ويطرب للجمع بينها فيقول : ((وهكذا إذا استقريت التشبيهات ، وجدت التباعد بين الشيئين ، كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، أنك ترى بها الشيئين مِثلَين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، وترى الصورة الواحدة في السماء والأرض ، وفي خلقة الإنسان وخلال الروض .)) [٤]

---

(١).:عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني (جدة – ط ٢ – ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م) ص : ١٣١.

(٢)..السابق نفسه ، ص: ١٠١.

(٣) السابق نفسه ، ص: ١٠٢.

(٤) السابق نفسه ، ص :١٣٠.

(٢) محمد أبو موسى ، دراسة في البلاغة والشعر ، مكتبة وهبة (القاهرة _ ط ١ _ ١٤١١هـ) ص : ٦٩ .

(٣) علي البطل ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دار الأندلس (بيروت–ط١–١٤٠٠هـ) ص:١٥.

(٤) ينظر : عماد علي الخطيب ، الصورة الفنية أسطورياً _ دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي _ تقديم :عبد القادر الراعي ، جهينة للنشر (الأردن ، ط١ ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦ م) ص : ٣٤ .

(٥) .ينظر : مسبيل دي لويس ، الصورة الشعرية ، ترجمة : أحمد نصيف الجنابي ، مالك ميري ، سليمان حسن إبراهيم ، مراجعة عناد إسماعيل ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (العراق ، ط أولى ، ١٩٨٢م) ، ص ٢٠٠ .

فإن لمفهوم الصورة مفهومًا واسعًا عند علماء البلاغة وهو ((ما يدركه المتأمل في المعاني من فوارق دقيقة وشفيفة بين هيآتها وأشكالها...وتكون له في النفس هيأة لا تكون لغيره ، وهذا ما سماه العلماء " صورة " .)) (٢)

أما المعاصرون فقد أفردوا لها كتباً ، وتوسعوا في مفهومها ، فلم تعد مقصورة على الصورة البلاغية ، بل ضموا إليها الصورتين الذهنية والرمزية ، وفي ذلك يقول علي البطل: ((يتميز في تاريخ تطور مصطلح الصورة الفنية مفهومان : قديم يقف عند حدود الصورة البلاغية ، وحديث يضم إلى الصورة البلاغية نوعين آخرين هما : الصورة الذهنية والصورة الرمزية حيث يمثل كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة اتجاهاً قائماً بذاته في دراسة الأدب الحديث .)) (٣) فالصورة في النقد الجديد ((مولود الخيال وأنه لابد للشاعر من موهبة تصنع الخيال خيالين : خيالاً واقعياً ، وخيالاً خرافياً ، فيصبح حد الخيال – هنا- ذلك الوعي الذي يصدر منه العقل ، وذلك اللاوعي الذي يصوره القلب ، وإن في الخيال انفعالاً لصور ذات وحدة متجاذبة ومتنافرة في آن واحد .)) (٤) وفي النقد الحديث نجد بعضهم يرى ((أن الصورة هي جوهر الشعر ، وأن كل قصيدة هي بحد ذاتها صورة، لأن الاتجاهات تأتي وتذهب ، والتغير ينال الأسلوب والوزن والموضوع ، ولكن المجاز باق كمبدأ للحياة في القصيدة .)) (٥)

ومهما كان الأمر في تقدير شأن الاستعارة والمجاز والكناية ، أو ما خرج على غير مخرج العادة في تكوين الصورة البيانية ، فإن الصورة قد تتحقق فيما يخلو من ذلك ، ولذلك يقول محمد غنيمي هلال : ((إن الصورة لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ أو العبارات مجازية فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال ، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب .)) (١) فالمعنى هو الذي يحدد التصوير ، يتضح ذلك أيضاً في قول جابر عصفور : ((إن المعنى هو المدخل الأساسي لفهم تصورات النقد العربي لوظائف الصورة الفنية وأهميتها ، والمعنى مصطلح يستخدم في مجالات متعددة في الكتابات العربية القديمة))(٢) إن أهمية الصورة الفنية تتمثل فيما تحدثه في معنى من المعاني من خصوصية

---

(١).محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر ،(القاهرة، بدون ط ،بدون تاريخ) ص ٤٠٨ .

(٢).جابر عصفور ،الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، (القاهرة ، بدون ط، ١٣٩٤أو ١٣٩٥هـ /١٩٧٤م) ، ص : ٣٨١ .

وتأثير، بالإضافة إلى أهمية المجاز وأنه يفيد ما لا تفيده الحقيقة ، لينتقل المتلقي من ظـــاهر المجاز إلى حقيقته ، ومن ظاهر الاستعارة إلى أصلها ، ومن المشبه به إلى المشـــبه ، ومـــن المضمون الحسي المباشر للكناية إلى معناها الأصلي المجرد ، ويتم ذلك كله من خلال نوع من الاستدلال ، ينشط معه ذهن المتلقي ، ويشعر إزاءه بنوع من الفضول يدفعه إلى تأمل علاقات المشابهة ، أو التناسب الذي تقوم عليه الصورة ، حتى يصل إلى معناها الأصـــلي السابق في وجوده عليها ، وعلى قدر الجهد المبذول في هذه العملية ، وعلى قـــدر قيمـــة المعنى الذي يتوصل إليه المتلقي ، وتناسبه مع ما بذل فيه من جهد ، تتحدد المتعة الذهنيـــة التي يستشعرها المتلقي ، وتتحدد – بالتالي – قيمة الصورة الفنية وأهميته. [1] كان للنقـــاد اختلاف في مرجعيات هذه الصورة البيانية وأعني بهذه المرجعية : الاستعارة والتشبيه والمجاز يقول الآمدي : ((إن الاستعارة حداً لا تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقُبحـــت)) [2] وهي عند قدامة حاجة ماسة للعرب إذ يقول : ((وأما الاستعارة فإنما احتـــيج إليهـــا في كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هذا في لسان غير لســـانهم ؛ فهـــم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له، وربما كانت مشتركة بينـــه وبين غيره ، وربما استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز.)) [3] فالمجاز عند قدامة طريقة خاصة من طرق الاستعارة ، وغاية من غاياته ، يُجنح له بقصد توضيح معنى خاص بلفظ أقدر على إبراز خصوصيته من خلاله .

وكان هذا الجنوح بقصد إظهار معنى بعيد ، ويتفق ابن طباطبا مع قدامة في هـــذا وذلك عند عقده لبيت المثقب العبدي :

تَقُولُ وَقَـــدْ دَرَأْتُ لَهَـــا وَضِـــيني ... أَهَـــذَا دِينُـــهُ أَبَـــداً وَدِينِـــي

أَكُـــلُّ الـــدَّهرِ حِـــلٌّ وَارْتِحَـــالٌ ... أَمَـــا يُبقـــى عَلَـــيَّ ولا يَقِـــيني

([1]).ينظر:السابق نفسه ، ص: ٣٩٨ وما بعدها .

([2]).الآمدي ،الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد صقر ، دار المعـــارف (القـــاهرة، ط ٢، ١٣٩٢هـــ/ ١٩٧٢م)، ص : ٢٤٢ .

([3]) قدامة ،نقد النثر ، مصدر سابق، ص : ٦٤ .

قال ابن طباطبا : ((فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول .)) [1]

أما عبد القاهر فقد رأى في التشبيه والاستعارة مع التمثيل أصل كبير تتفرع منه كل محاسن الكلام وتدور حوله جهات المعالي وأقطارها [2] ويرى أيضاً أن الشاعر المبدع هو الذي يستطيع أن يأتي بتشبيهات بين أشياء مختلفة ، ويوقع بها ائتلافاً فيقول : ((إذا استقربت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس بها أطرب ، فكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب .)) [3] إن الفرق بين قول عبد القاهر وأقوال الآخرين فرق في نظرتهم الفنية نحو التشبيه والاستعارة، فالقريب من الواقع هو تشبيه، والبعيد الذي يُركن إليه هو من باب التوسع والمباعدة يدخل في الاستعارة ، هذا عند أقوال العلماء النقاد من الآمدي وابن طباطبا وقدامة ، أما عبدالقاهر فيرى في الاستعارة قدرةً وقوةً ، هي أقدر على الاستحسان المعنوي من ذلك القريب ، الذي يظهر صفاته بمشابهته لشيء ما قد اشترك معه في صفة من صفاته فهو بذلك يدعو إلى الإبداع في مشابهة الأشياء المختلفة لأنه أمهر وأحذق من غيره .

التشبيه :

إن من أهم ما يبين المعاني ويزيد من قوتها التشبيه ، وهو ((الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى .)) [4] وكذلك هو: ((الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب منابه أو لم ينب .)) [5] ، والتشبيه ((صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه .)) [6] ومن نماذج التشبيه المبثوثة في مقدمات العقد قوله في كتاب

(1) ابن طباطبا ،عيار الشعر، مصدر سابق ، ص : ١٢٣ .
(2).ينظر : الجرجاني ،أسرار البلاغة ، مصدر سابق ،ص ١٠٧.
(3)..السابق نفسه ،ص ١٠٩/١ .
(4)القزويني ،الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق، ص : ٢٠٩ .
(5) أبو هلال العسكري ،الصناعتين ، مصدر سابق ، ص : ٢٦١ .
(6)ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، مصدر سابق ، ص : ٢٨٦/١ ..

" الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين" [٤] عند وصف أخبارهم :

((فإن أخبارهم حدائق مونقة ، ورياض زاهرة لما فيها من طرفة ونادرة فكأنها أنوار مزخرفة، أو حلل منشرة، دانية القطوف من جاني ثمرها، قريبة المسافة لمن طلبها.)) هذا القول فيه تشبيه وأسلوب بليغ حيث شبه أخبار هؤلاء وما بها من الطرفة والنادرة بالحدائق المونقة والرياض الزاهرة، فشبه ما لا يدرك بالحس بما يدرك بالحس ووجه الشبه هو ذلك المعنى الجامع لهما من المتعة والبهجة والحسن في حال الاستمتاع بهذه الحدائق عن طريق النظر، أو الاستمتاع بالأخبار الطريفة والنادرة عن طريق الأسماع ، ثم إن هذه الأخبار كأنها أنوار مزخرفة فشبه بأداة التشبيه " كأن" هذا الخبر الطريف " غير المحسوس " بالمحسوس من الأنوار المزخرفة ؛ وذلك لمعنى جامع من الحسن والزينة البديعة . أو كأنها حلل منتشرة؛ أي أن هذه الأخبار الطريفة أو النادرة كأنها أثواب منتشرة، (ووجه الشبه) قرب تناولها لانبساطها وانتشارها .ثم يشبهها بالقطوف في دنوها وقربها ، وبالثمرة التي تجنى لطلبها ولذة محتواها. إن ابن عبد ربه يورد تشبيهات متعددة للدلالة على شيء واحد وذلك لكثرة أوجه الشبه الجامعة بين الأشياء لهذا الشيء الواحد ، وكان الاستناد لها أقرب في توضيح المعنى ، وأثبت في الأذهان من غيرها .

كذلك قوله في كتاب "الفريدة في الحروب ومدار أمرها" : ((وعلمه أن لا درع كالصبر ولا حصن كاليقين .)) [١] شبه في هذه الجمل الحصرية الصبر بالدرع في صموده ومناعته ، واليقين بالحصن في مناعته وصموده ، وثباته أمام الغزو الشكي،المحارب للإخلاص والنية، وعنهما ينهزم الغزو الجيشي أمام الحصون ودفاعها عن مدينتها ، ووضوحها في هذا الدفاع أمام هذا الجيش . في كتاب الياقوته" في العلم والأدب" يقول : ((والطفل الصغير لو لم تعرفه أدباً وتلقنه كتاباً كان كأبله البهائم ، وأضل الدواب.)) [٢] فابن عبد

---

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٦/ ١٥١ .

(١) السابق نفسه ، ص: ١٢١/١ .

(٢)..السابق نفسه ، ص : ١٧٧/٢ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٥/٤ .

(٤) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

ربه يشبه الطفل الذي لم يتلق في صغره أدباً تعريفياً ، وكتاباً تعليمياً يتلقنه كأنه كالبهائم البلهاء ، التي تسير على الأرض سيراً لا تدرك فيه صيرورتها ، وهي عديمة الفائدة لعـــدم إدراكها ، وإحاطتها لما ينفعها ، وفي كونها مسيرة غير مخيرة .

وكذلك قوله : ((ويكون جوابه على كلامه ، كسحابة لبّدت عجاجة)) (٣) فقد شـــبه الجواب الحاضر في بديهيته ، والراد على قول خصمه بالسحابة التي فرقت ذلك الزخم من الغبار ، وكان التشبية بليغًا في عقد الشبه بين المختلفين بحرف الكاف وأراد مواجهة القوة بالقوة وإضعافها .

وكذلك قوله : ((ويصرع منازعه بقول كمثل النار في الحطب الجـــزل .)) (٤) فشـــبه القول المسرع في حضورة ، والقارع لخصمه ، بالنار التي إذا ما اشتعلت في الحطـــب لم تدع منه شيئًا ، وجمع بين المعنيين في السرعة والقدرة على الآخر .

فإن التشبيهات التي استخدمها ابن عبد ربه تدل على حسه وخياله القريب المعـــنى ، السهل التناول ؛ إذ إنه يقنن موجودات الأشياء في محيطه الأندلسي ، ومن واقعه المعيش ، ليقيم بينها وبين غير المحسوسات علاقةً كامنةً ، تزيد المعنى الذي أراد قوة ، وتوضح معاني ما كان له أن يوضحها بدون التشبيه وأداته وطرفيه ، وأدواته في ذلك التوضـــيح أدوات حربية كالدرع ، و طبيعية ملموسة محسوسة كالرياض والحدائق والبهائم والأنوار والحلل، فكلها أدوات ملموسة توصل الفكرة إلى العقل دون تعب أو جهد ، أو كثير من العنـــاء، فإذا ما قُرأت هذه الصور تمثل المراد دونما وقت طويل ، بل يتبين المراد بمجرد الانتهاء من قراءة الجملة ويحصل التوكيد في النفس ، وهذا المراد هو الذي جعل التشبيه أكثر حضورًا في المقدمات من الاستعارة بكثير ، ولعل هذا عائد إلى سمة عامة في الأدب العربي القديم ، وهي غلبة حضور التشبيه على حضور الاستعارة ، ثم إنه في سياق كتابة علمية نقديـــة ، وليست كتابة إبداعية فيأتي من تلك الألوان البلاغية بما يوضح المراد .

المجاز والاستعارة :

((الاستعارة ضرب من المجاز، وهي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع لـــه . وقد تقيد بالتحقيقية لتحقق معناها حساً أو عقلاً ، أي : التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية ، فيقال : إن اللفظ نقل من مسماه الأصلي

فجعل اسماً له على سبيل الإعَارة للمبالغة في التشبيه .)) (1) وكذلك أيضًا هـــــي : ((نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيرها ، وذلك لغرض ؛ إما : أن يكون شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو يحسن المعرض الذي يبرز فيه . وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة ، لكانت الحقيـــقة أولى منها استعمالاً .)) (2) ((وإنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً .)) (3) .

فإن الأقوال والآراء السابقة تؤكد أن الاستعارة محسن من المحاسن ، لما إفادتها الـــتي تفيدها عند الاستعمال في الكلام ، و توضح وتبين معنىً زائداً ، أو تبالغ في وصـــفه ، أو تشير إليه بلفظ يحتويه، وما كان لهذا المعنى أن يبين لو بسط على حقيقته ومعناه الأصلي.

ومن نماذج الاستعارة في مقدمات العقد الفريد قوله في كتاب " المجنبة في الأجوبة " : ((فلا يزال في نسج الكلام واستئناسة ، حتى إذا اطمأن شارده ، وسكن نـــافرة .)) (4)

---

(1) القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق ، ص : ٢٤٧ .

(2) العسكري ، الصناعتين ، مصدر سابق ، ص : ٢٩٥.

(3) ابن رشيق ، العمدة ، مصدر سابق ، ص : ١/ ٢٧٤ .

(4) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ٥/٤ .

فشبه الكلام بأوابد الصحراء الشاردة والنافرة ، وحذف وحوش الصحراء وجاء بشـــيء من لوازمها مثل النفور والشرود على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن ذلك أيضًا قوله : ((الموعظة ثقيلة على السمع ، محرجة على النفس ، بعيـــدة مـــن القبول لاعتراضها الشهوة ، ومضادتها الهوى ، الذي هو ربيع القلب ، ومراد الـــروح ، ومربع اللهو ، ومسرح الأماني .)) (1) شبه الموعظة بالشيء الثقيل ثقلاً حسيًا وتلقى عند الأسماع ثقلاً ، وفي الأنفس حرجاً ، فحذف المشبه به وذكر شيئاً من صفاته وهو الثقل ، على سبيل الاستعارة المكنية، والمعنى الجامع القوة والقدرة الكامنة التي تختلف الأنفس في

تقبلها أو رفضها ، والهوى لا يبعد عن الموعظة في قدرتها وقوتها في كسب القلوب والأرواح ، وشأنها في ذلك شأن الشيء الذي يستطيع أن يحتل من القلوب موقعاً ، ومن الأرواح رواجاً، فذكر المشبه وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية .

((والموعظة مانعة لك مما تشتهي .)) (٢) جعل الموعظة تمنع الشهوة ، والمنع من صفات الإنسان الذي يفرض قدرته المانعة للشهوة ، فذكر المشبه وحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.

إذا كان عبد ربه يميل إلى الإيجاز في عباراته، وهو إيجاز يستثقل إيضاح الموضح وبسط المبسوط، فإن ذلك الميل لا يعتني إلا بالفائدة وصياغتها التركيبية ، لذلك فإنه يستعين للفائدة الجليلة بالنكتة اللطيفة ، التي تتسع في معناها مع تضييق لفظها ، وهو إيجاز يستمد من المجاز والاستعارة صورة دلالية ، تبين المعنى بتلاعبها على أوتار القلوب ، واستحسان موقعها من الأسماع ، فتتقبلها النفوس طلباً واستئناساً ، وتتمثلها فهماً وادراكاً، لأن النظر منصب على العبارة وجلاء فائدتها ،التي هي سبيل التثقيف والتهذيب.

الكناية والتعريض :

وهو : ((أن يكني عن الشيء ، ويعرّض به ، ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء .))(٣).

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣/ ١٣٥ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣/ ١٣٦.

(١)العسكري ،الصناعتين ، مصدر سابق ، ص : ٤٠٧ .

((والكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك : " فلان طويل النجاد " أي طويل القامة . وفرق السكاكي وغيره بينهما بوجه آخر أيضاً ، وهو أن مبنى الكناية على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم .)) (١) كقول ابن عبد ربه في كتاب "اللؤلؤ في السلطان" : ((به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم)) (٢) إن هذا القول

(١).القزويني ،الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق، ص : ٣١٣ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ،ص : ١/ ٢٠ .

جامع لكنايات وتعاريض كثيرة تجتمع مع بعضها ، لتشكل ملامح دولة منعمة في ظل سلطان تضافرت له الجهود والحدود والأنظمة ، لتستوي على هذه الشاكلة ، فهي دولة يمتنع حريمها أي أن لها حرمة ومنعة لا يعتدى عليها ، كناية عن حدودها ومنعتها التي لا يستطيع أحد أن يتعدى عليها، وبإقامة العدل وتطبيق الحدود وإرجاع الحقوق إلى أصحابها ، والضرب على أيدي الجناة والمعتدين والظالمين ينتصر المظلوم وينقمع الظالم ، وفي تأمين الأوضاع الداخلية ، وإقامة العدل والحق ، وتحصين البلاد من الخارج والاستعداد التام لأي غزو يمكن أن يكدر أمنها، والحد من السماح للأعداء بالتدخل في الحكم ، وتهديد البلاد ومواجهة أي قوة ، ورد كل غزو ، كلها كنايات عن تحقيق الأمان للخائفين في البلاد .

وقوله في كتاب "الحروب ومدار أمرها" : ((وطول تجربته لها ، ولمقاساة الحروب ، ومعاناة الجيوش .)) [1] فطول التجربة كناية عن كثرة الحروب وكثرة أيامها وخوضها ، وقوله: ومعاناة الجيوش كناية عن شدة التعب البدني والنفسي وشدة الجهد ، الذي يرجع إلى الطريق أوالأخطار الطبيعية من وعورة التضاريس ، أو اشتداد الحر أو برودة الطقس ، أو حتى إلى كثرة انتشار الأمراض ،كذلك يمكن أن يرجع إلى العدو نفسه في قوته واستخدامه أسلحة أكثر قوة وإبادةً منهم ، أو الخوف من المجهول الذي ينتظرهم كأن يستخدم العدو حيلة لم يسبق لهم أن توقعوها أو فكروا بحدوثها .

وأيضًا قوله : ((هم رضوا الصعاب حتى لانت مقاودها)) [2] في قوله كناية عن السياسة والتدبير، والحنكة والتفكير ، في حل الصعاب من الأمور ، إضافةً إلى ظهور نوع من التدبير السياسي من كلمة "راضوا" يقود إلى مسايسة ومداراة الصعاب على قدر صعوبتها حتى تخضع وتذل منصاعة لهذا الأمر التدبيري من الرجال السياسيين، الذين لا يركنون في الصعوبة وشدة الموقف إلى الاستسلام لهذا الأمر العارض ، بل يبحثون عن مخرج تلين به الصعاب وتتبدل الأمور ومجرياتها إلى مصلحتهم .

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١٢١/١ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

الألفاظ والتراكيب :

ذكر ابن الأثير أنه لابد للخطيب والشاعر أن يعتني بثلاثة أشياء في تأليف الكلام من النظم والنثر وهي :

١ – اختيار الألفاظ المفردة : وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ، فإنها تتخير وتنتقي قبل النظم .

٢ – نظم كل كلمة مع أختها في المشاكلة لها : لئلا يجيء الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه ، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها .

٣ – الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه : وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ، فتارة يجعل إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قلادة في العنق ، وتارة يجعل شنفاً (الشنف : القرط) في الأذن ، ولكل موضوع من هذه المواضع هيئة من الحسن تَخُصّه . (١)

ثم ذكر ابن الأثير أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ؛ لأن التركيب أعسر وأشق ، ومثّل لذلك بألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها ، ومع استعمال العرب ومن بعدهم لها إلا أن اللفظ القرآني يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب (٢)، وفي ذلك يقول عبد القاهر : ((إنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر.)) (٣)وفي المثل السائر أمثلة متعددة تتناول ألفاظًا وردت في آي القرآن وبيت الشعر ، ونجدها في القرآن جزلة متينة ، وفي الشعر ركيكة ضعيفة . (٤)

وإذا نظرنا إلى كتاب الله عز وجل الذي هو أفصح الكلام وجدناه سهلاً سلساً وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسيرًا جداً ، ومقبولاً حسناً . وابن الأثير يرى أن العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ ، وإنما تلام على الغريب القبيح ، وأما الحضري فإنه يلام على استعمال القسمين معاً ، وهو في أحدهما أشد ملامة من الآخر ،

---

(١)ابن الأثير ، المثل السائر ، مصدر سابق ، ص : ١٤٩/١ .

(٢) ينظر :السابق نفسه ، ص : ١٥١/١ .

(٣) الجرجاني ، دلائل الإعجاز، مصدر سابق ، ص : ٤٦ .

(٤) ينظر : ابن الأثير ،المثل السائر،مصدر سابق، ص : ١٥٢ – ١٥٤ .

كما ذكر أن الغريب الحسن يسوغ استعماله في الشعر ولا يسوغ في الخطب والمكاتبات[1] ، لذلك يقول : ((وعلى هذا فاعلم ، أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الألفاظ ، يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، يسوغ استعماله في الكلام المنثور ، وذلك شيء استنبطته واطلعت عليه .))[2].

ويقسم اللفظ إلى جزل ورقيق فيقول : ((فأما الجزل فإنه يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، والرقيق يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفي استجلاب المودات ، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . وليس المقصود بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم ، ولذاذته في السمع ، وليس المقصود بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً ، وإنما هو اللطيف ، الرقيق الحاشية ، الناعم الملمس .))[3] وعندما تصبح ألفاظ مركبة فإن لتركيبها حكماً آخر، وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة[4]؛ وذلك لأنها تحافظ على استقرار النص وترابطه اللفظي فيما يعرف بـ (السبك) وهو في اللغة من : ((سبك الذهب والفضة ونحوه من الذائب يسبُكه ويسبِكه سبكًا ، وسبّكه : ذوبه وأفرغه في قالب ، والسبيكة القطعة المذوبة منه ....))[1]

وهو الذي يتعلق بالطرق التي تترابط بها ألفاظ كل نص ، فالنص وحدة دلالية ترتبط أجزاؤها معاً بواسطة أدوات ربط هي :[2]

١ – عناصر السبك النحوي : وتتكون من : الإحالة ، الحذف ، الاستبدال ، العطف .

٢ – عناصر السبك المعجمي : وتتكون من : التكرار ، الترادف ، المصاحبة اللغوية (التضاد ، التلازم الذكرى) .

---

(1) ينظر :السابق نفسه ، ص : ١٦٩/١ .

(2) السابق نفسه ، ص : ١٧٢/١ .

(3) السابق نفسه ، ص : ١٧٢/١ .

(4) ينظر :السابق نفسه ، ص : ١٩٤/١ .

٣ – العناصر الصوتية ويمكن حصرها في : السجع ، الجناس ، وهذا المبحث لا يستهدف البحث النظري ، بل هو في المقام الأول إظهار كيفية ترابط النص في مقدمات العقد الفريد ، والأوجه المختلفة لهذا الترابط سواء كانت ذات مرجعية صوتية ، أم دلالية، أم تركيبية . وكذلك مصطلح (الحبك) وهو من الشد ، واحتبك بـإزاره أي : احتبى به وشده إليه .(٣)

أولاً : عناصر السبك النحوي :

أ – **الإحالة** : وهي وجود عناصر لغوية لا تكتفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها ، وتسمى تلك العناصر عناصر محلية ، وهي الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، فهذه كلمات تعود إلى عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من النص . والتماسك عن طريق الإحالة يقع عند استرجاع المعنى ، أو إدخال الشيء في الخطاب مرة ثانية .(٤) وهي تتحدد في المقدمات من حيث :

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة سبك .

(٢) حسام أحمد فرج ، نظرية علم النص ــ رؤية منهجية في بناء النص النثري ــ ، تقديم : سليمان العطار ، محمود حجازي ، مكتبة الآداب (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) ، ص : ٨٣ وما بعدها .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة حبك .

(٤) حسام فرج ، نظرية علم النص ،مصدر سابق ، ص ٨٣ .

١) زيادة الجملة الفعلية في صيغة المضارع ، الذي يظهر الجانب الوصفي الواضح في النص .

من ذلك قول ابن عبد ربه في كتاب "المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة" : حين يتحدث عن الإيجاز ((ما دل بعضه على كله ، وكفى قليله عن

كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه ، وتكثر معانيه .))[1] فاسم الإشارة " ذلك " يحيل المعنى ويستدعي إدخال عناصر أخرى موجودة في النص قد سبقته في التأليف ، ولكنه يستحضرها من جديد ، وهي الجمل الفعلية التي تعني الدلالة والكفاية والشهادة التي تتحقق في الإيجاز ، عن طريق قلة الحروف وكثرة المعاني ، وهذا يستدعي ترابط الجمل فيما بينها حتى يستقيم المعنى ، ويتضح المغزى .

وكذلك قوله في كتاب" اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح" :((قيل لمسلمة ابن عبد الملك: ما ألذ الأشياء ؟ فقال : هتك الحيا واتباع الهوى)) ثم يقول : ((وهذه المنزلة من أعمال النفس وهتك الحيا قبيحة)) [2] فربط بين الشاهد في الخبر والتعليق على هذا الخبر باسم الإشارة " هذه " التي تحيل المعنى بعدها إلى معنى سابق عليها ، يكون هو المراد توضيحه في معنى يدل عليه بجملة اسمية تبدأ باسم الإشارة ، والإحالة تحيلنا إلى جملة فعلية هي هتك الحيا التي تقرر توضيحها بعد اسم الإشارة والقول بأنها قبيحة .

٢) زيادة الجملة الاسمية التي معها يصبح الأمر مجرد ذكر معلومات متجاورة أو متوازية يجمع بينها واو العطف.

ومن ذلك قوله : ((والنعمة والسرور ، إذ لم يكن مدار الدنيا إلا عليها ، ولا قوام الأبدان إلا بها ، وإذ هي نمو الفراسة ، وتركيب الغريزة ، واختلاف الهمم ، وطيب الشيم ، وتفاضل البلدان .)) [3] فالجمل الإسمية كلها تعود على النعمة والسرور ، وجاءت مترابطة فيما بينها بالواو العاطفة ، وتدل على كونه أمرًا ثابتًا لا يتغير ولا يتجدد ، وتفيد الثبوت والاستمرار، وكل الجمل تحيل المعنى وتربطه بالجملة السابقة من النعمة والسرور ، وتوازي الجمل وتجاورها فيما بينها يكون بالإحالة لا بذكره في صدر الجمل ، وفي هذا ضرب من الإيجاز المستحسن . وكذلك قوله : ((ونحن قائلون بما ألفناه في كتابنا هذا من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور.)) [4] فالجملة الاسمية " الفكاهات والملح " تترك للمعنى في الجمل اللاحقة عليها

---

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٤٦/٤ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٤٠٢/٦ . .

(3) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦.

(4) السابق نفسه ، ص : ٤٠١/٦ .

صدى يعود عليها ، وتتلاحم الجمل وتتجاور بالواو العاطفة ، لتوضح معنى لا يكون إلا بالجملة الاسمية ، التي تستعين بإحالة الاسم الموصول للمعاني المكتنزة في الجمل اللاحقة عليها ؛ للدلالة عليها وعلى المراد منها في ثنايا هذه الجمل .

ب – الحذف :

((يميل المتكلم إلى إسقاط بعض العناصر من الكلام اعتماداً على فهم المخاطب وإدراكه للعناصر المحذوفة تارة ، ووضوح قرائن السياق تارة أخرى .)) [1] ثم ((إن وجود دليل على المحذوف في أكثر من جملة داخل النص ، أو في نص آخر مرتبط به ، شرط من شروط تحقق السبك ، وهذا ما يطلق عليه الدليل المقالي على المحذوف ، وأهمية وجود هذا الدليل هي تحقيق المرجعية بين المذكور والمحذوف في أكثر من جملة ، مما يؤدي إلى استمرارية النص. وتتعدد أنواع الحذف في اللغة العربية فقد يكون المحذوف : مبتدأ ، أو خبرًا ، أو فاعلاً ، أو مفعولًا به ، أو حالا ، أو مجرورًا بحرف)) [2] والحذف يحقق الرغبة في استمرار السجع و يدفع القارئ للاستمرار في الاستمتاع بالقراءة دون عناء ، ويخلق شكلاً من أشكال الألفة بينه وبين ما يقرأ ، ومن ذلك قوله : ((وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال ، عطلاً من هذه الصناعة ، التي هي مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد وزاد الراكب..)) [3] فحذف المبتدأ لقرينه دالة عليه ، وحتى لا ينبو المعنى في الأسماع وتستقبله بدون عناء ، إذ التقدير وهي مرتع النفس وهي ربيع القلب و... ، فتتآلف الكلمات مع النفس ، وتتقبلها الآذان ، وتطلب ما بعد هذا القول حتى ينتهي النص، وهي من باب الاستئناس ، والاستمتاع الهادئ غير المتكلف أو المثقل ، وكل ذلك ضرب من الإيجاز المستحسن في الكلام ، و من محاسنه أيضًا سلك الجمل سلكاً منظماً لا تخطئها الآذان ، ولا تملها القلوب ، مستفيدة في كل ذلك من أوجه الترابط التركيبية النحوية في الألفاظ

---

(1) ينظر : صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكية) ، دار قباء (القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ص: ١٩١/٢ .

(٢) حسام فرج ، نظرية علم النص ، مصدر سابق ، ص : ٨٨ _٨٩ .

(٣) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٦ .

التامة المعنى ، مع تحقق السبك في النص سبكاً منظماً مترابطاً في أجزائه ، محتضناً المعنى في جوانبه وأنحائه ، وقد استقبله القارئ وافياً بمعناه ، ودل على محذوفه من سياقه .

ج – العطف :

((لما كان النص مجموعة من الجمل المتتابعة أفقياً ، وجب أن تكون هذه الجمل مترابطة فيما بينها حتى تكون نصاً متماسكاً ، واستعمال التعبيرات العطفية يشير إلى الارتباطات الواقعة بين الحوادث والمواقف ، ومن تلك التعبيرات ، أدوات العطف)) [(١)]

إذ تتنوع التعبيرات العطفية لتشمل:

١ – الوصل :

ومن أدواته : ((و – كذلك – بالإضافة إلى ذلك – ناهيك عن – بالمثل)) [(٢)] ومن ذلك قول ابن عبد ربه : ((السلطان زمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقوام الحدود والقطب الذي عليه مدار الدين والدنيا .)) [(٣)].

فالجمل الاسمية مترابطة الأرجاء ، متعاطفة الأرحام ، بينها تداخل وتشارك وتعاقب ، تفرضه حتمية السياق المتعاطف على بعضه ، المحتاج إلى كله ، في قالب تعبيري يستسلم لقالب الوصل التعاطفي ، وينخرط في سلسلة معنوية لفظية شكلت التعبير العام للنص ، وهي من السمات البارزة في المقدمات ، فالجمل القصار المتتابعة ، المتعاطفة على بعضها، تتبع الطريقة الجاحظية في الجمل القصيرة ، من ذلك كتابه "البيان والتبيين" إذ يقول فيه : ((ثم اعلم أبقاك الله أن صاحب التشريق والتقعير والتعقيب من الخطباء ، والبلغاء ، مع سماجة التكلف ، وشنعة التزيد ، أعذر من عي يتكلف الخطابة ، ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ...)) [(٤)] فالجاحظ يبسط ويوضح عن طريق جمل قصيرة متتابعة ، ومترسلة بالواو ، فيعقد بين الجمل ارتباطات وعلاقات منفكة ، إذ تقوم كل جملة بذاتها وكيانها ، ولكنها تخضع لترتيب متزامن حدده التأليف من المؤلف .

---

(١) حسام فرج ، نظرية علم النّص ، مصدر سابق ، ص :٩٤ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٩٥ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٠/١ .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، مصدر سابق ، ص : ١٥/١ .

ولا يبعد ابن عبد ربه في تأليفه للمقدمات عن هذا النوع من التأليف، الذي يتجانس في نثره ، ويتراصف في بسطه ، لاعتماده على الجمل القصيرة المتوائمة في التركيب ،والمتعاطفة بالواو ، من ذلك قوله في كتاب " الفريدة في الحروب ومدار أمراها" ((وما على المدبر لها من أعمال الخدمة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع

واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات .)) [(١)] فالجمل القصيرة مترابطة فيما بينها ، ومعطوفة بالواو ، وبينها معان ذات علاقات عامة تخضع لبسط فكرة متعلقة بالعنوان ، الذي هو الحروب و مدار أمرها .

وكذلك قوله في كتاب" الزمردة في المواعظ والزهد" : ((المواعظ التي وعظت بها الأنبياء ، واستخلصتها الآباء للأبناء ، وجرت بين الحكماء والأدباء ، ومقامات العباد بين أيدي الخلفاء .)) [(٢)] فالتركيب البنائي لهذه الجمل القصيرة تركيب معد ومنسق في ترتيب مخصوص يخدم المعنى ويوضحه ، وقد ساعد هذا التركيب ، ورصف الجمل- على هذا النسق- على القبول في الأفهام ، وفي تعاطفها تتآلف الألفاظ الفصيحة فيما بينها ، وتتحدد فصاحة الكلمة المفردة في خلوصها من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، فهي أمور لا تنطبق على لفظ من ألفاظ المقدمات ؛ إذ إن جميعها منتقاة بعناية وتدقيق في القياسين المعنوي واللغوي ، إضافةً إلى انسجامها في تراكيب خاصة بها ، و لم تفقد في تلك التراكيب فصاحتها ، وذلك لقوة تآلفها و عدم ضعفها ، و انسجام الحروف في جميع تركيب الجملة ، ووضوح التركيب وعدم غرابته أو تعقده وتعقيده . وفصاحة الكلمة أو اللفظ يدلك على معنى صحيح، وذلك يدل على الاهتمام بالألفاظ والمعاني وانسجامهما في داخل التركيب البنائي للجملة . وذلك أمر يتضح من عنايته وتنبيهه على اختيار الألفاظ الجزلة ، والمعاني الجليلة .

ومن ذلك أيضاً قوله في كتاب "اليتمية الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة" : ((إذ كان هؤلاء الذين جردنا لهم كتابنا هذا ، قطب الملك الذي عليه مدار السياسة ، ومعادن التعبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان .)) [(٣)] .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص :١٣٥/٣ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٤/ ٧٥ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٥/٥ .

فالجمل القصيرة جمل موجزة اللفظ ، مطنبة المعنى ، فإذا ما جنح الأمر إلى التفصيل والشرح فإن ذلك يتطلب الوقوف على القصص والأخبار والأحداث ، التي كانت سببًا في اتصاف هؤلاء بالتدبير والسياسة والبيان والبلاغة ، ثم إن لكل لفظٍ مما سبق عالماً واسعًا من الأنواع والأصناف والأقسام ، التي تحتاج إلى وقت كثير ، وجهد وفير في بيان المادة

العلمية الخاصة بها ، ولكنه يوجز القول في الكلمة الأم التي تحتضن كل ما يتعلق بها من معنى أو لفظ ، وذلك ضرب من ضروب الإيجاز البليغ .

٢ – الفصل :

((ومن أدواته (أو – إما))) [١] ومن ذلك قوله : ((أتراه مدخراً نتيجة من نتائج الحكمة أو مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة ؛ أم تظن القوم قدموه لفصل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسن ، ومجمع الشعر والخطابة .)) [٢] الفصل ضد الوصل ، بمعنى انتفاء المشاركة ووقوع الاختلاف ، ويدخل في معنى (أو) التخيير بين قولين أو رأيين ؛ بمعنى الاختيار من متعدد، ولا يكون الاختيار إلا لشيء واحد ، وهذا المذهب الاختياري لا قبل لمقدمات العقد الفريد به ، إذ نجد أن هذا الموضع موضع نادر وقعت فيه (أو) في قالب الاستفهام الإنكاري ، ويبدو أن ابن عبد ربه يقرر في مقدماته أموراً واضحة ، ولا يجعلها في سياقات الاختيار ، بل تسلك مسالك الثبوت والإقرار بها كما وردت عن يقين منه بمسلمات العناوين ، وما يندرج تحتها ، وما لا يعد منها لا يذكره ، ولا يُلمح إليه .

٣ – الاستدراك :

((ومن أدواته: (لكن – بيد أن – غير أن – خلاف ذلك.))) [٣]

من ذلك قوله : ((وقالت الحكماء : السعيد من وعظ بغيره . لا يعنون من وعظه غيره، ولكن من رأى العبر في غيره فاتعظ بها في نفسه)) [٤] ، "لكن" من أدوات الاستدراك

---

(١) حسام فرج ، نظرية علم النص ، مصدر سابق ، ص : ٩٥ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢ .

(٣).حسام فرج ، نظرية علم النص ، مصدر سابق ، ص : ٩٥.

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٣٦/٣.

التي كانت بمثابة الحلقة التي جمعت بين القولين ، فذكرت القول الأول وكان منافياً، ثم استدركت على النفي بالإثبات ، وهذا أسلوب يفيد التنبيه على الخطأ والتوجيه للأصح .

٤ – التفريع : ((ومن أدواته (لـ – لأن – لكي– لذلك – من أجل))) [١] من ذلك قول ابن عبد ربه: ((وإنما اختلف الناس في هذا المذهب لاختلاف أنفسهم)) [٢] وقوله : ((وضمنت في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها ، وداخلاً في معناها من

الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه ؛ لتقوم به الحجة لمن روى هـــذه المقطعـــات واحتج بها .)) [٣] وقـــوله :((وتحب العرب التخفيف والحذف ، ولهربها مـــن التثقيـــل والتطويل كان قصر الممدود أحب إليها من مد القصور ، وتسكين المتحرك أخف عليهـــا من تحريك الساكن ، لأن الحركة عمل والسكون راحة)) [٤] إن استخدام ابن عبد ربه لأداتي " اللام " و" لأن " يدل على التعليل والتفسير بجملة (بعدها) عن جملـــة ســـابقة تحتاج إلى تفصيل وبيان السبب في حصول هذا المعنى ، وفي ذلك دلالة على ثبات جودة النص ، إذ إنه يجيب عن تساؤلات يطرحها النص ، والقارئ محتاج إلى هـــذا الجـــواب ، الذي يضيف إلى معلوماته ، ويزيد من قناعاته .

٥ – الربط الزمني : ((ومن أدواته : (الفاء – ثم – الواو – بعد – قبل – منذ –كلما بينما – في حين))) [٥] **اللافت للأمر أن أدوات الربط الزمني هي أكثر حضوراً وتألقـــاً وتأليفاً في مقدمات العقد ، وخصوصاً أدوات العطف من الفاء والواو وثم ، وذلـــك لكثـــرة وضوحها وانسجامها في ثنايا الأخبار المطروحة ، وقدرتها على توضيح الدلالة المطلوبة بأوفر جهد ، وأوجز الطرق . من ذلك قوله: ((وأول ما نبدأ به من ذلك خطـــب الـــنبي ﷺ ، ثم السلف المتقدمين ، ثم الجلة من التابعين والجلة من الخلفاء الماضين والفصحاء والمتكلمين))** [٦]

---

(١) حسام فرج ، نظرية علم النص ، مصدر سابق ، ص : ٩٥ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٣٢/٦ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٤١٧/٥.

(٤) السابق نفسه ، ص : ٤/ ١٤٧

(٥) حسام فرج ، نظرية علم النص ، مصدر سابق ، ص :٩٦ .

(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٦٦/٣ .

وقوله في كتاب " الوفود " : ((فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يتخير لها الكلام ، وتستهذب الألفاظ ، وتستجزل المعاني .)) [١] فبين سبب اختيار الكتاب وما وجده في أمثلتها حتى اختاره وأدرجه في الكتاب معتمدًا على اللفظ المستهذب ، والمعنى المستجزل .

أدوات العطف – على اختلافها – تقدم الطريقة التي يتم بها الأرتباط بين الأخبار التي يعرضها الكاتب بشكل أفقي ، ومع كل نوع من هذه الأدوات يعكس الكاتب وجهـــة نظر ، أو يسعى إلى تقديم معلوماته تقديماً مقصوداً ، بهدف الحصول على قبول القـــارئ لإجراءاته البنائية التي تصل به إلى قبول النص كلياً ، ثم إن وجود أدوات العطـــف قـــي

مقدمات العقد الفريد يشير إلى احتوائه على أخبار متتابعة زمنياً ، لتقدم في مجموعة من الجمل المتجاورة سلالةً متتابعةً من الصور ، التي تخرج النص عن دائرة الثبات الملازم ، الذي يصيب القارئ بالملل لاعتياده أسلوب الوصف العادي المقتبس من ثبات الأسلوب على الحقيقة الجامدة في الصياغة ، إلى الحركة التي تدفع القارئ لمواصلة فعل القراءة ، عن رغبة حقيقية في معرفة المزيد مع الجديد .

ثانياً : عناصر السبك المعجمي :

وهي العلاقة الجامعة بين كلمتين أو أكثر داخل المتتابعات النصية ومنها :

أ – التكرار :

وهو : ((أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة لتأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد .)) (٢)

سيتم تطبيق التكرار على مقدمات العقد لا من حيث تكرارها في داخل النص فقط بل أيضاً من حيث المقدمات مجتمعة وكأنها نص واحد؛ وذلك لترابطها في التأليف قبل الترابط الدلالي التكراري ، وهو أمر ملاحظ من خلال تكرار الجمل بين المقدمات تكراراً بيناً، من ذلك قوله في كتاب "اللؤلؤة في السلطان": ((والقطب الذي عليه مدار

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢ .

(٢) ابن أبي الإصبع ، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم : حفني محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة _ بدون ط _ ١٩٦٢أو ١٩٦٣م / ١٣٨٣هـ) ص : ٣٧٥.

الدين والدنيا .)) (١)، وقوله في كتاب "الياقوته في العلم والأدب": ((فإنهما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا .)) (٢) فالأسلوب الخبري واحد وإن كان الاختلاف في دلالة المفرد والمثنى ، لكن ذلك لا يلغي الإقرار بتكرار الأسلوب ، وهو من باب التوكيد ، وإعطاء الأهمية لهذه العناوين ، ولكونهما قطب الحياة في الدين والدنيا ، وأيضاً قوله في كتاب "العسجدة في كلام الأعراب" : ((إذ كان مدار الكلام كله عليه)) (٣) ، وقوله

(١) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٠/١

(٢) السابق نفسه ، ص : ١٧٧/٢ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٤٢٥/٣ .

في كتاب "الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان" : ((مـــدار الـــدنيا إلا عليها)) [1] فالتكرار في الأسلوبين أضيق من السابق ، فهو في كلمة "مدار" التي تـــدخل أيضاً في تكرار القولين السابقين ، مما يعني تكرارها أربع مرات وتطابقها في كل أسلوبين مرة .

فيتجه هذا البحث لتفحص المعجم اللغوي السائد في مقدمات ابـــن عبـــد ربـــه باعتباره سمة أسلوبية فمثلاً الألفاظ التي تكررت كثيراً في مقدمات العقـــد : القلـــب – النفس – السمع – الروح، وذلك التكرار يكون في تناول العناوين تناولاً يسيطر علـــى الحواس والعواطف والشعور ، وذلك لأن ابن عبد ربه يتعامل مـــع العاطفـــة وصـــدق إحساسها ، ويلعب على الأوتار الحسية ، وذلك يزيد من التأثير والتأثر بالموضوع الـــذي يعرضه إذا تناوله القارئ بهذه الطريقة التي أوضحها من هذه الناحية القلبيـــة والروحيـــة والحسية . وسأوضح التكرار بعد عرض جميع الشواهد التي تكررت فيها الألفاظ .قال في كتاب" اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح " : ((ونحن قائلون بما ألفناه في كتابنا هذا من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس ، وربيع القلب ، ومرتع السمع ، ومجلب الراحة ، ومعدن السرور)) [2] وفي كتاب "الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيـــه" : ((التي هي مراد السمع ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد .)) [3] وقوله في كتاب " الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والـــبخلاء والطفيليين " : ((فإذا تأملها الناظر وأصغى إليها السامع وجدها ملهى للسمع ، ومرتعـــاً للنظر ، وسكناً للروح ، ولقاحاً للعقل .)) [4] . وفي كتاب " الدرة في النوادب والتعازي والمراثي " : ((بأبلغ ما وجدناه من الفطن الذكية ، والألفاظ الشجية ، التي ترق القلوب القاسية ، وتذيب الدموع الجامدة مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب .)) [5] وأيضًا في كتاب "الزمردة في المواعظ والزهد "يقول : ((والموعظة ثقيلة على النفس ، بعيـــدة

---

(1) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .
(2) السابق نفسه ، ص : ٤٠١/٦ .
(3) السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .
(4) السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .
(5) السابق نفسه ، ص : ٢٢٦/٣ .

القبول ، لاعتراضها الشهوة ومضادها الهوى الذي هو ربيع القلب ، ومـراد الـروح ، ومربع اللهو ، ومسرح الأماني .)) [1] .

فتكرار القلب جاء في أربعة مواضع ، والروح في موضعين ، والسـمع في ثلاثـة مواضع ، والنفس في ثلاثة مواضع ، فكأن التكرار من باب تأثير العناوين على الحـواس والمشاعر ، وقوة تأثرها وتعلقها بها ، إذا ما خالطت بهجتها النفسية ، وحواسها السمعية ، وقوها القلبية ، وعواطفها الروحية ، ونالت منها ما نالت عن طريق التكـرار ، ليكـون مؤثراً وممحصاً لمعانٍ مقصودة من هذه الناحية الخاصة .

وفي كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاد " : ((كرم طبيعة يتحلى بها السمع السري ، والجواد السخي ، ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صـفات الله تعـالى ، تسمى بها ، فهو الكريم عز وجل . ومن كان كريماً من خلقه فقد تسمى باسمه واحتذى على صفته .)) [2] كان تكرار لفظ (الكرم) أربع مرات ، وهذا التكرار يفيد تأكيـد المعنى وتقريره في النفس ، وتثبيته في الذهن وحتى لا ينصرف الذهن عنه إلى غيره .

ب – الترادف

هو: ((الألفاظ المفردة ، الدالة على شيء واحد باعتبار واحد .)) [3]

ولوقوع الألفاظ المفردة سببان :

١ – أن يكون من واضعين وهو الأكثر ، فتضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين والأخـرى الاسم الآخر للمسمى الواحد من غير أن تشعر إحـداهما بـالأخرى ، ثم يشـتهر الوضعان ويُخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدها بوضع الآخر ، وهذا مبني على كون اللغات اصطلاحية .

٢ – أن يكون من واضع واحد وهو الأقل ، وله فوائد :

أ – أن تكثر الوسائل – أي الطرق– إلى الأخبار عما في النفس ، فإنـه ربمـا نسـي أحد اللفظين أو عسر عليه النطق .

---

(1) السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .

(2) السابق نفسه ، ص : ٢٤٢/١ .

(3)جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعه ، ،تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية (بيروت– ط١– ١٩٨٩م) ص: ٣١٦/١.

ب – التوسع في سلوك طرق الفصاحة وأساليب البلاغة في النظم والنثر . [١]

ومن ذلك في كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاد " قوله : ((كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري ، والجواد السخي ، ولم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمى بها .))[٢] وهذا المثال قد ذكرته في التكرار وأذكره هنا مثالاً على الترادف، وفي ذلك وقفة عند الاختلاف بين المعنيين ؛ إذ التكرار يكرر المعنى للفظ نفسه، أما الترادف فيكرره مع تغيير اللفظ ، كما أن الإكثار منه لا يَنْعَتْ الكاتب بضعف في لغته ، بل يسمح له بإظهار طاقته الإبداعية في رصف كلمات لها معنى عام يجمعها على مسافات محددة داخل النص الواحد . وعند توضيح هذه المسافات تتبين تلك الطرق المحدودة المعالم، التي تقودنا إلى المعنى الواحد الصريح العام الذي يجمعها جميعاً . الكرم معنى عام وما ذكر في النص ليس إلا مترادفات له ، وطريقة من طرق التوضيح . فالسمح يقال : **فلان** سمح : أي جواد ، [٣] وسري من سرو : سخاء في مروءة [٤] ، سخي : السخاوة صار جواداً كريماً فهو سخي[٥] ، الجواد : التسمح بالشيء ، وكثرة العطاء .[٦]

---

(١) السابق نفسه : ١/٣١٩ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق، ص : ١/٢٤٢ .

(٣) أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ،دار الفكر (بيروت _ بدون ط _ ١٩٩٧م/١٣٩٩هـ) ص: ٣/ ٩٩ .

(٤) الخليل الفراهيدي ،كتاب العين ، مصدر سابق ، ٧/٢٨٨ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ٤/٢٨٩.

(٦) أحمد بن فارس ،معجم مقاييس اللغة ، مصدر سابق ، ص : ١/ ٤٩٣

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤/ ١٤٦.

(٢) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مصدر سابق ، ص : ٣/٢٦٣.

(٣) السابق نفسه ، ص : ٢/٤٢٣ .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة عظم

(٥) محمد خطابي ، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب) ، المركز الثقافي العربي ، (الدار البيضاء – ط٢ –٢٠٠٦م) ص : ٢٤٥.

فالمعاني مفردات بمثابة أوصاف للمعنى الأصلي "الكرم" الذي ذكره المؤلف ؛ وجميعها تزيد المعنى الأصلي العام قوةً وشرفًا وتوضيحاً ، وتدلي بأهميتها في النص ، الذي يوضح العنوان "الأجواد والأصفاد"، ويرتبط به ارتباطاً متيناً متماسكاً ، ولم يكن من الإسهاب والإطناب بقدر ما كان من الإبداع والاصطلاح الموافق المكافئ المعطاء .

ويقول في موضع آخر : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقة في التوقيعات ، والفصول والصدور ، وأدوات الكتابة ، وأخبار الكتاب ، وفضل الإيجاز ؛ إذ كان أشرف الكلام حسنًا ، وأرفعه قدرًا ، وأعظمه من القلوب موقعًا .)) [(١)] فالألفاظ التي وصف بها الإيجاز ألفاظ مترادفة رفعت من شأنه ، وعظّمت من قدره ، فالشرف : الشين والراء والفاء أصل يدل على علو وارتفاع . [(٢)] والرفع : الراء والفاء والعين أصل واحد يدل على خلاف الوضع تقول : رفعت الشيء رفعًا وهو خلاف الخفض .[(٣)] وأعظم من عَظُم الأمر عَظَامةً وعَظّمه يُعَظِّمُهُ تعظيمًا : أي كبره . [(٤)] يتبين من معاني الألفاظ ما أراده الكاتب من إبراز فضل الإيجاز على غيره من الأساليب الكتابية ، ونعته له بمترادفات تصب بمعانيها في دلالة واحدة هي الفضل .

ج – المصاحبات اللغوية :

والمقصود منها : ((توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك .)) [(٥)] وهو ارتباط يعتاد أبناء اللغة وقوعه في الكلام ، بحيث يمكن توقع ورود كلمة محددة في النص من خلال ذكر كلمة أخرى فيه ، ومن المصاحبات اللغوية : التضاد – التلازم الذكري .

١) التضاد :

وهو ((أن يأتلف في معناه ما يضاد في فحواه)) [(١)] ، وكذلك هو((الجمع بين المتضادين ، أي معنيين متقابلين في الجملة .)) [(٢)] مثل الجمع بين البياض والسواد ،

(١) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مصدر سابق ، ص : ٢/٥.

(٢) القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق ، ص: ٣٣٣.

(٣) السابق نفسه ، ص : ٣٣٨ .

(٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤/١٤٦.

(٥) السابق نفسه ، ص : ٤/١٤٧.

والليل والنهار ، والرجل والمرأة ، ويصمت ويتكلم، وقد عرفه القدماء بالطباق أو المطابقة ويتفرع عنه المقابلة ((وهي أن يؤتى بمعنيين موافقين أو معان متوافقة ثم بما يقابلــها ، أو يقابلها على الترتيب .)) (1) من ذلك قول ابن عبد ربه في كتاب " المجنبــة الثانيــة في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة " : ((ما دل بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهرهُ على باطنه)) (2) فالطباق بين القليل والكثير ، وبين الظــاهر والباطن ، وفي الوقت نفسه تشير الجملة إلى المقابلة بما حوته مــن المعــاني في الألفــاظ المتضادة ، والتراكيب المتقابلة . وكذلك قوله : ((الحركة عمل ، والسكون راحة)) (5) فالطباق بين الحركة والسكون، وبين العمل والراحة ، والمقابلة هي المطابقة أو المقابلة بين المعنيين المتضادين .

وقال في كتاب " المجنبة في الأجوبة " : ((أجب ولا تخطئ ، وأسرع ولا تبطئ)) (6) فطابق بين معنيين متضادين ، لكن الأول مثبت والآخر منفي ، أو بين أمر ونهي وذلــك نوع من أنواع الطباق يسمى طباق سلب (7) ، ويكون فَارقاً عن سابقه المثبت في تضاده ويسمى ذلك طباق إيجاب . ويقول في كتاب " الفريدة في الحروب ومدار أمرها " :

((كرم الإقدام ومحمود عاقبته ، ولؤم الفرار ومذموم مغبته .)) (8)

فالمقابلة هنا بين أربعة معان لأربعة معان تقابلها على الترتيب ، وفي ذلك حسن وبــديع أبدعه الطباق بين الكرم واللؤم ، وبين الإقدام والفرار ، وبين محمود ومــذموم ، وبــين العاقبة والمغبة ، وهي علاقات ائتلفت فيما بين المعاني في الجملة الواحدة ، ثم ائتلفت عــن طريق الطباق والمقابلة مع الجملة المضادة .

٢ – مراعاة النظير :

((ويسمى التناسب والتوفيق ، وهو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد)) (1) ((وهــي على ضربين : مناسبة في المعاني ، ومناسبة في الألفاظ ، فالمعنوية أن يبتديء المتكلم بمعنى

---

(٦) السابق نفسه ، ص : ٤/ ٥ .

(٧) القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، مصدر سابق ، ص : ٣٣٥.

(٨) السابق نفسه ، ص : ١٢٠/١ .

ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ .)) (٢) ومن ذلك قول ابن عبد ربه في كتاب "الواسطة في الخطب" : ((ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يتخير لها الكلام وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم ، ونطقت بها الأئمة على منابرهم.)) (٣) فالخطب التي يتفوه بها الأئمة تكون على المنابر ، وإذا ما ذكرت المنابر ذكرت الأئمة وما تقول من الخطب ، فناسب بين الأئمة والمنابر . وكذلك قوله في كتاب "الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه " : ((مسلاة الكئيب ، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب .)) (٤) فقوله يدل على مناسبة بين الوحيد وأنسه ، والكئيب وسلوته ، والراكب وزاده . وفي كتاب " الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين " يقول : ((فإن أخبارهم حدائق مونقة ، ورياض زاهرة ، لما فيها من طرفة ونادرة .)(٥) ثم قال: ((فإذا تأملها الناظر ، وأصغى إليها السامع)) (٦). فقد ناسب في القول الأول بين أخبار هؤلاء البخلاء والطفيليين وما في تلك الأخبار من طرفة ونادرة تناقلها الناس فيما بينهم من باب

---

(١) سعد الدين التفتازاني ، المطول ، مصدر سابق ، ص : ٧٣ .
(٢) ابن الإصبع ، تحرير التحبير ، مصدر سابق ، ص : ٣٦٣ .
(٣) السابق نفسه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٥٧/٤ .
(٤) السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .
(٥) السابق نفسه ، ص : ٦ /١٥١ .
(٦) السابق نفسه ، ص : ٦ /١٥١ .

الإضحاك والفكاهة ، وفي القول الآخر ناسب بين الإصغاء والسمع وبين التأمل والنظر ، وهي مناسبة ذات علاقات وارتباطات واضحة فيما بين المتناسِبين ، وإن التناسب في حقيقته يدل على التبصر في اللغة ، وحسن استخدام المصطلحات المناسبة ، من خلال التدقيق اللغوي لمعانيها ، ومعرفة كلام العرب ودلالاته البنائية والتركيبية والمعنوية . ومن هذا الباب يحاول الكاتب أن يقف على هذا المغزى ، ويختار ذلك المعنى دون غيره حتى يستقيم البناء ، ويقيم مع غيرها ارتباطات وعلاقات تضيف إلى ذلك البناء ، فيتحد

الأرجاء ، ويسلم من الأخطاء ، إذ الاعتماد على المعنى المؤتلف والمتفق مع غيره ، فيتضح المراد من غير إجحاف بحقه المعنوي واللغوي في الدلالة.

ثالثاً : عناصر السبك الصوتي :

ويهتم بالعناصر الصوتية التالية : السجع ، والجناس.

أ – السجع : وهو ((تواطؤ الفاصلتين عند النثر على حرف واحد)) (١) وعلى ذلك يكون عملها الصوتي واضحًا من الاتفاق بين الفواصل في الحرف الواحد ، حتى تتفق في رنين الصوت وجرسه ، وتحدث الفائدة المرجوة منه ((واعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز ، موقوفاً عليها ؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك في كل صورة إلا بالوقف .)) (٢) والسجع موضع لا يَفْلت من مقدمات العقد الفريد ، إذ كان التأليف من هذا المدخل للفائدة الوافرة منه . من ذلك قوله في كتاب "اللؤلؤة في السلطان" : ((به يمتنع حريمهم ، وينتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .)) (٣) لقد كان السجع في القول السابق بالضمير : "هم" ، وأدى فائدة قوية في جرس الحرفين عند الوقف ، مناسبة في ذلك لصوت الانفجار الميمي في باب السلطان ، وما يكون في هذه البلاد إن لم يكن على حال مرضية من العدل والاعتناء بمصالح الرعية. وهناك نوع آخر يعرف بـ " الموازنة " وهو ((تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية)) (٤)

---

(١) القزويني ، الإيضاح ، مصدر سابق ، ص : ٤٨٤ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٣٨٦ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١/ ٢٠ .

(٤) سعد الدين التفتازاني ، المطول ، مصدر سابق ، ص : ٨٦ .

وذلك كثير في مقدمات العقد ومنها قوله : ((به تتعاطف الأرحام الواشجة ، وعليه تحافظ الأوامر القريبة .))(١) وقوله : (الجوابات التي أصعب الكلام كله مركباً ، وأعزه مطلباً ، وأغمضه مذهباً وأضيقه مسلكاً)) (٢) وقوله : ((إذ كان أشرف الكلام حسباً ، وأكثره رونقاً ، وأحسنه ديباجاً ، وأقله كلفة ، وأوضحه طريقة)) (٣) إن ابن عبد ربه لا يعمد إلى السجع في النص ويلتزم في ذلك بحرف واحد كخاتمة لجميع الجمل ، بل يكثر من الأحرف في داخل النص الواحد ، ففي قوله السابق يستند إلى سجعة بالألف ، ثم بتاء مربوطة ، ولكن عند الوقف تكون هاء فكأنه يقيم مناسبة بين الأحرف المسجوعة نفسها،

أي بين الألف اللينة السهلة ، والهاء الساكنة عند الوقف ، السهلة الهادئة في مخرجها ، حتى ليظن السامع أن النص سجع بحرف واحد . وفي ذلك دلالة على التنويع مع التطويع للمعنى ، والجرس المتناسب ، ويشترك مع بعض العناصر النحوية والمعجمية والدلالية اشتراكاً يجعله يصنع نوعًا من أنواع الوحدة في داخل النص .

ب – الجناس :

((الجناس بين اللفظين ، وهو تشابههما في اللفظ : والتام منه : أن يتفقا في أنواع الحروف ، وفي أعدادها ، وفي هيئاتها ، وفي ترتيبها .)) (٤)، فإذا كان كذلك فهو التشابه التام ، وإن كان بين اسمين فهو المماثل ، وإن كان بين نوعين – كاسم وفعل – سمي مستوفياً ، وإن كان أحد لفظيه مركباً سمي جناس التركيب ، هذه المسميات هي من قبيل الجناس التام . وعلى هذا يكون الاختلاف في أعداد الحروف من الجناس الناقص ، ويَكُون الاختلاف إما بزيادة حرف واحد في الأول أو في الوسط أو في الآخر ، وإما الاختلاف بزيادة أكثر من حرف واحد ، وقد يكون الاختلاف في أنواع الحروف لكن يشترط أن لا يقع الاختلاف بأكثر من حرف ، ويكون إما في الأول ، أو في الوسط أو في الأخير.(٥)

وهذا كثير في مقدمات العقد ، ومن ذلك قوله في كتاب " الفريدة الثانية في الطعام والشراب ": ((يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيهما الأبوان)) (٢) فالجناس وقع فيما بين الأبدان والأبوان ، وكان الاختلاف في حرف واحد في وسط الكلمة ، إضافة إلى الاختلاف المعنوي للكلمتين ، وكان الجامع بينهما جناسًا ناقصًا . وقال في كتاب "المجنبة في الأجوبة" : ((أجب ولا تخطئ وأسرع ولا تبطئ)) (٣) فالجناس بين الكلمتين "تخطئ، وتبطئ" المختلفتين معنى ، وكان الجناس ناقصاً لاختلاف في

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣١٢/٣.

(٢) السابق نفسه ، ص : ٤/ ٥ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٣/ ٤٢٠ .

(٤) سعد الدين التفتازاني ، مصدر سابق ، ص : ٨٢ .

(٥) ينطر السابق نفسه ، ص : ٨٢ _ ٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣١٣/٦ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٥/٤ .

نوع الحرف الواحد في وسط الكلمة . وكذلك قوله : ((الذي يقرع صاحبه ويصرع منازعه.))[1] فالجناس ما بين القرع وهو من القارعة أي الداهية [2] ، والصرع للشخص يكون إذا غشي عليه فخر ساقطاً واضطرب[3] ، وهو جناس ناقص لاختلاف نوع من الحروف بين الكلمتين ، وهناك جناس القلب وهو الاختلاف في ترتيب الحروف ، وهو ضربان :

قلب الكل أي قلب لجميع الحروف ، وقلب لبعض الحروف ويسمى قلب البعض . [4]

يقول ابن عبد ربه في " كتاب الواسطة في الخطب " : ((وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم ، ووصلتها بصلواتهم وخوطب بها العوام ، واستجزلت لها الألفاظ .)) [5]

فالجناس وقع ما بين وصلتها و صلواتهم ، والاختلاف بينهما في ترتيب كل الحروف ، والوصل به معنى الاتصال[6] ، والصلوات هي الصلاة المفروضة ، وأيضاً هناك زيادة في كلمة صلواتها في حرف الميم فكأنه جمع بين الجناس الناقص وجناس القلب .

والجناس نوع من أنواع السبك الصوتي الذي يظهر الموسيقى من خلال نهايات التراكيب ، فيخلق لدى المتلقي إحساساً بالائتلاف مع النص ، ويظهر بعض الكلمات المهمة وبشكل خاص ، أي أن الكاتب يعمد إلى كلمات ذات معانٍ معينة يرغب في تكثيف وجودها للائتلاف النصي ، والسياق الدلالي ، الذي يلعب على أوتار السطور وفي إطار المعنى العام ، من خلال إبرازه من بين تلك المعاني الدقيقة والعميقة التي ينشرها الجناس بأنواعه وحيثياته وهيئاته .

---

(1) السابق نفسه ، ص : ٤/٥ .

(2) الرازي ، مختار الصحاح ، مصدر سابق ، مادة ق ر ع .

(3)، أبو منصور الثعالبي ، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق : فائز محمد ، إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي (بيروت– ط٤ ١٤٢٠هـ / ١٩٩٨م) ، ص : ١٣١ .

(4) القزويني ، الإيضاح ، مصدر سابق ، ص : ٣٧٩ .

(5) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤/٥٧ .

(6) الرازي ،مختار الصحاح ، مصدر سابق ، مادة وصل .

التنـــاص :

لقد سبق تعريف التناص في موضع سابق من البحث [1] ، ومن خلال ذلك التعريـــف تقف الدراسة على تلك المصادر المعنوية التي احتوتها المقدمات ، ثم بيان العلائق المضمونية والشكلية بين نص " العقد الفريد " ونص " عيون الأخبار " .

مصادر التناص المعنوي :

كان لكل مقدمة دورها ووظيفتها، وفي حدود هذه الوظائف والأدوار تبسِّط مـــا عندها وتوجز القول فيه ، أو تفصل القول وتدعمه بالكثير من الشواهد النقلية والعقليـــة تبعاً لأهمية العنوان ، والهدف الذي تومىء إلى تناوله من خلاله في هذا الكتاب المؤلَّف .

فكثرة الشواهد تدل على عملية تربوية تثقيفية يؤمي إليها في مقدمته ، وهي التأديب والتثقيف لكافة أبناء المجتمع الأندلسي ، فيقدم في كتاب واحد : العقد الفريد (وحتى في تأليفه لمقدماته) أخباراً سياسية وأدبية ودينية وتاريخية وحضارية، فيجمع لك الكل في فرد والأنواع في نوع ، والمختلفات مع المتشابهات ، ويوظف بينها ، ويجيـــد التنســـيق بـــين عناوينها في عنوان واحد له أبعاده وزواياه ، التي تشترك في لفظه ، وتبتعـــد في نتائجـــه وآلياته ، مما خلق نوعاً من التناسب الطولي للمقدمة وفحواها ، فنجد المقدمة تزيد عـــن مقدمة سابقة لها أو تنقص عنها تبعاً للحاجة إلى التوضيح ، والشواهد المختارة في التأليف لهذا الباب أو ذاك .

قال ابن عبد ربه في مقدمة كتاب " العقد الفريد " ((فتطلبت نظـــائر الكـــلام وأشكال المعاني ، وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، ونوادر الأمثال ، ثم قرنـــت كـــل جنس منها إلى جنسه فجعلته بابًا على حدته ؛ ليستدل الطالب للخبر على موضعه مـــن الكتاب ونظيره في كل باب .)) [2]

---

(١) ينظر : الفصل الثاني من البحث ، ص : ٢٢ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٦_١٧ .

لقد جمع ابن عبد ربه في كتابه فنون الأخبار ، فتعددت المصادر التي رافقت مسيرة الكتابة لديه ، من القرآن والسنة والشعر والأمثال والحكم ، مكونةً المصادر الدينية والأدبية والتاريخية ، ولا يلتزم ابن عبد ربه في الاستدلال لكتبه الترتيب المنهجي ، فيأخذ بالنص القرآني ثم الحديث ثم الشعر وهكذا حتى تنتهي المصادر ، بل توظف على قدر الحاجة لها ، وعلى حسب وفائها بتوضيح الفكرة التي يتناولها ، فنجده مثلاً في كتاب " اللؤلؤة في السلطان " [(١)] يستدل في بداية المقدمة بقول الحكماء ، ثم الآية من القرآن ، ثم حديث للمصطفى ﷺ ، ثم ببيت من الشعر ، ثم أقوال تنتهي بثلاثة أبيات أخرى من الشعر . وأيضًا في كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " [(٢)] يستدل على كلامه في المقدمة بالآيات القرآنية ، ثم ببيت من الشعر ، ثم قول لأحد الحكماء ، ثم ببيت شعر آخر ، ثم بحديث من أحاديث المصطفى ﷺ ، إن الكتابين السابقان ينفردان عن بقية الكتب بتعدد مصادرهما في داخل المقدمة ، مما يدل على أن المؤلف يحدد المصدر المعنوي المطلوب من الدواعي التأليفية له ، ليدعم الفكرة المطروحة التي تخدم العنوان وتوثقها . وهذا يعني أن الاستدلال هو الغاية بالدرجة الأولى ، ويفيد فائدةً جليلةً في النص بحسب تقدير الكاتب لها ، فنجده في بعض الكتب يستدل من مصدرين ويضيفهما إلى الأخبار والأحداث التي جعلها في المقدمة ، من ذلك كتاب " الزبرجدة في الأجواد والأصفاد " [(٣)] يستدل بثلاثة أحاديث للمصطفى ﷺ وآية قرآنية واحدة ، فيكتفي بمصدرين عن بقية المصادر الأخرى ، ومنه كذلك كتاب " اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح " [(٤)] حيث يستدل في مقدمته بأحاديث المصطفى ﷺ وببيتين من الشعر . وفي مرحلة أخرى يجعل استدلاله فريدًا من نوعه حين يستقي من معينٍ مصدريٍّ واحدٍ ، ومنه كتاب " الياقوتة الثانية في علم الألحان " [(٥)] ، وكتاب " الواسطة في الخطب " [(٦)] فلا نجد فيهما غير الاستدلال بالأبيات الشعرية

---

(١) ينظر : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢٠/١.

(٢) ينظر : السابق نفسه ، ص : ١٣٥/٣ .

(٣) ينظر : السابق نفسه ، ص : ١٤٢/١ .

(٤) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٤٠١/٦ .

(٥) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٥/٦ .

(٦) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٥٧/٤ .

ثم في مرحلة أقل تنعدم المصادر في بعض المقدمات ، إذ الإيجاز سمة في مقدمات الكتـــاب وطابعه الغالب عليه ، وتجد الباحثة ثمانية كتب لم يستدل المؤلف في تأليفه لمقـــدماتها أي ذكرٍ لمصدرٍ من المصادر التي اعتمد عليها ، مما يدل على أن استدلاله بها لايكون إلا بفائدة فمتى كانت زائدة في الكلام فالبعد عنها أولى .

واللافت للنظر أيضًا أنّ ابن عبد ربه يعتمد كثيرًا على الاستدلال بالمصادر وينـــوع بينها في التأليف إلا أن الحديث النبوي كان أكثرها تأليفًا واستدلالاً ، يدل علـــى ذلـــك وجودها في تسعة مقدمات للكتب ، بل إنه قد يستشهد بأكثر من حـــديث في مقدمـــة الكتاب ، مثل كتاب " اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح " (١) حيث استدل بالحـــديث النبوي في سبعة مواطن . وفي المقابل نجد أن أقوال الحكماء هي أقل المصـــادر اســـتدلالاً حيث وُجدت في خمس مقدماتٍ للكتب .

أشكال التناص :

تحت هذا العنوان يكون الحديث منقسمًا إلى قسمين : التناص الشكلي ، والتنـــاص المضموني ، وهما من أنواع التناص وأشكاله اللذان يسفران عن تلك الخيوط العريضة بين تأليف ابن عبد ربه لكتاب العقد الفريد وتأليف ابن قتيبة لكتاب عيون الأخبار .

١ ـ التنـــــــاص الشكلي :ـ

لقد قسم ابن عبد ربه كتابه " العقد الفريد " إلى خمسة وعشرين كتابًا محتذيًا ابن قتيبة في ذلك التقسيم ، حيث قسم الكتاب إلى عشرة كتب ، وإن كان عدد الكتب لدى ابن عبد ربه يزيد عن عدد كتب ابن قتيبة إلا أنه قلده في تأليف عناوين الكتب ، وهذا التقليد إما صراحةً بلفظه ومعناه ، وإما استفادةً من الأبواب أو الأخبـــار وتلميحاتهـــا في أثنـــاء الكتاب ، فيذكرها بلفظها كما وردت أو يزيد عليها ولقد قلد ابن عبد ربه عناوين ابـــن قتيبة صراحةً في ثمانية كتب هي : (السلطان) ، و(الحروب) ، و(السؤدد) ، و(طبائع

(١) ينظر : السابق نفسه ، ص : ٤٠١/٦ ـ ٤٠٥ .

الأخلاق) ، و(العلم والبيان) ، و(الزهد) ، و(الطعام) ، و(النساء) .

ومن العناوين التي صنفها ابن عبد ربه في كتابه مستفيدًا من كتـــاب "الســـلطان " ، كتاب "المرجانة في مخاطبة الملوك " حيث ذكر في كتاب السلطان باباً يدل على معناه وهو باب : التلطف في مسألة العفو . (1) ، وكذلك أيضا كتاب " العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم " حيث استفاد من مباحث الكتاب والكتابة والحجاب مـــن كتـــاب السلطان (2) وزاد عليها أخبار الخلفاء وتواريخهم . وأيضًا كتاب " اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة " إذ نجد الكثير من أخبارهم في كتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة ، لكن أخبارهم كانت أكثر حضورًا في كتابه " السلطان " . (3)

ويقابل كتاب " السؤدد " لابن قتيبة كتاب "الزبرجدة في الأجواد والأصفاد " وأيضاً يستفيد من أخبار باب : الكمال و التناهي في السؤدد (4) لوضع كتـــاب " اليتيمـــة في النسب وفضائل العرب " ثم يضيف كتاب " الدرة الثانية في أيام العـــرب ووقـــائعهم " ، وكذلك يقابل باب المزاح (5) بكتاب " اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح ".

ولقد استفاد ابن عبد ربه من كتاب " العلم والبيان " لابن قتيبة ليس في وضع كتابه " الياقوته في العلم والأدب " فحسب بل وضع كتبًا أخرى كانت من أهم الأبـــواب في الكتاب وهي " كتاب الواسطة في الخطب " و كتاب " الزمردة الثانية في فضائل الشعر " حيث استفاد من بابي : الخطب والشعر من أبواب كتاب " العلم والبيان " (6) ثم يضيف كتابًا آخر في الشعر ويسميه " الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي " و لم يتعرض ابن قتيبة في كتابه لشيء من علل القوافي في الشعر أبدًا وهي من إضافة ابن عبـــد ربه العنوانية على الكتاب ، بالإضافة إلى وضعه لكتاب " المجنبة في الأجوبة " الذي جعل

---

(1) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، مصدر سابق ، ص : ١/٩٨ .
(2) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول /٤٢ ، ٨٢ .
(3) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ١٠ ، ٢٩ ، ٩٨ ، ١٠٤ .
(4) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٢٢٧ .
(5) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٣١٥ .
(6) السابق نفسه ، ص : المجلد الثاني / ١٨٢ ، ٢٣١ .

له عنواناً قائماً بذاته بعد ما كان ضمن مباحث كتاب " العلم والبيان " وتحت باب : التلطف في الكلام والجواب وحسن التعريض . (١)

وكذلك كتاب ابن قتيبة " الإخوان " ، الذي استفاد ابن عبد ربه من أبوابه وتلميحاته في وضع عدة كتب ، وهذه الأبواب هي : المعاتبة والتجني ، التعازي ومايتمثل بها ، التهاني ، الاعتذار (٢) ، وكانت الكتب التي تقابلها هي : " كتاب الدرة في النوادب والتعازي والمراثي " وكتاب " المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة " ، حيث استفاد من المكاتبات التي دونها ابن قتيبة تحت ما يناسبها من الأغراض الاجتماعية في أبواب التعازي و التهاني و الاعتذار و العتاب .

أما كتاب " الفريدة الثانية في الطعام والشراب " لابن عبد ربه فقد قلدَّ فيه كتاب "الطعام" لابن قتيبة ، ووضع كتاب آخر هو كتاب "الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين " الذي استفاد فيه من باب : الضيافة وأخبار البخلاء (٣) ، فدون أخبار البخلاء وزاد عليهم أخبار المتنبئين والطفيليين والممرورين .

ويضع كذلك كتاب " المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن " على غرار كتاب لابن قتيبة في " النساء " ، الذي كان من أبوابه باب : القيان والعيدان والغناء (٤) الذي يقلده ابن عبد ربه فيضع كتابه كتاب " الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه " .

وإذا ما تعرض البحث إلى العناوين التي ذكرها ابن عبد ربه في كتابه و لم يحتذي في تأليفها تأليف ابن قتيبة لها في العناوين أو الأبواب من كتاب " عيون الأخبار" ، فإنه يجد أن هذه العناوين هي في حقيقتها كثيرة التناول في كتاب " عيون الأخبار ، حيث نجدها في أكثر من موضع ، والأخذ منها بما يتناسب والكتاب الذي تناولها ، من ذلك كتاب

---

(١) السابق نفسه ، ص : المجلد الثاني / ١٩٧ .

(٢) السابق نفسه ، ص : المجلد الثالث / ٢٨، ٥٢ ، ٦٨ ، ٩٩ .

(٣) السابق نفسه ، ص : المجلد الثالث /٢٣٣ .

(٤) السابق نفسه ، ص : المجلد الرابع / ٨٧

"الجمانة في الوفود " حيث تناول ابن قتيبة كثير من الأخبار التي تتعلق بهذا العنوان من ذلك حديثه عن وفد تميم بن مر وبكر بن وائل على بعض الملوك وما جرى بينهما في حضرته .[1] ، وكذلك الخبر الذي ذكره في الفتى الذي قدم على عمر بن عبد العزيز مع. وفد أهل الكوفة .[2] وهناك أيضًا كتاب " الجوهرة في كتاب الأمثال " ، فالكتاب كما يدل عليه العنوان خاص بالأمثال ، وهي إن لم يكن لها عند ابن قتيبة كتابًا خاصًا إلا أنه كثيرًا ما يتناول في كتبه أبوابًا خاصةً بها ، منها الأمثال المضروبة في الطبائع[3] ، من الأمثال في الرجل المجرب[4] ، وما جاء في الكلب من الأمثال[5] . يتبقى بعد ذلك كتاب " العسجدة في كلام الأعراب " الذين كثر الاستشهاد بكلامهم في كتاب " عيون الأخبار" فيقول في معرض حديثه للكتب التي يتناولها : قال بعض الأعراب[6] ، أو شعر لبعض الأعراب[7] ، أو قال أعرابي .[8]

فإذا كان هناك تقليد من ابن عبد ربه لابن قتيبة ، واحتذاء له في طريقته وتقسيمه وتبويبه ، إلا أنه ميز كتابه " العقد الفريد " عن كتاب " عيون الأخبار " فوسَّع من نطاق العناوين ، وحذف الأسانيد للتخفيف ، وجعل لكل كتاب بريقًا ولمعانًا حيث قدم العناوين باسم جوهرة من الجواهر الثمينة ، إضافة إلى تقديمه لكتبه بمقدمات نثرية أبرزت ملامح ذلك التميز وتوَّجته بما في لفظها ومعناها من المتعة والفائدة .

(١) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ١٨٥.
(٢) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٢٣٠ .
(٣) السابق نفسه ، ص : المجلد الثاني / ٧١ .
(٤) السابق نفسه ، ص : المجلد الأول /١٥ .
(٥) السابق نفسه ، ص : المجلد الثاني / ٨١ .
(٦) ينظر على سبيل المثال : السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٤١ ، المجلد الثاني /٢٢١ .
(٧) ينظر على سبيل المثال : السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٢٦١، المجلد الرابع / ٢٠٨ .
(٨) ينظر على سبيل المثال : السابق نفسه ، ص : المجلد الأول / ٣١ ، المجلد الثالث / ١١ .

٢_ التنــــــــاص المضموني :_

كانت المقدمات التي ألفها ابن عبد ربه في كتبه ذات فائدة ومتعة مما استجلبه لها من الألفاظ والمعاني ، ثم إنه قدم فيها معاني جليلة مما تخيره لها من الأخبار والأحداث والأشعار والقصص ، وبتناوله لهم يقيم علاقة قوية بين نصه الأسلوبي المؤَلف في كتابه وبين نــص هذه الأخبار والأحداث في حقيقتها ، وعلى هذا تكون العلائق بين النصوص ذات أبعــاد تناصية مباشرة وغير مباشرة .

أ _ التناص المضموني المباشر :_

إن الخطاب مبني على ألفاظ مستجزلة مهذبة ومعان مستجزلة متخيرة، وذلك لأنــه عن طريقه يكون الخطاب مفهوماً ، والكلام معلوماً ، وليسا مجرد نثر لا يعتد به إلا عــن طريق سماعه ثم تركه ، بل هو العلم والأدب ، والعقل والفائدة المرجوة المغروسة في هــذا التركيب ، وكان للتأثر بالألفاظ القرآنية والنبوية دور في تهذيبه وبلاغته إذا ما اقتبســت نصها ، ولفظها في تلك التراكيب متآلف مع معناها ، وذلك التأثر يدل علــى إشــراب أسلوب فريد من نوعه ، قوي في طرحه ، كذلك تضمينه لأقوال العرب من الشعر والنثر والمثل ، مما يدل على بيان معناه من طريق آخر فيه الفائدة ، ونبذ ذلك الملل والسأم من الطرح التقليدي ، ويفتح آفاقًا لثقافات متداخلة متمازجة مع بعضها البعض ، والتضــمين والاقتباس أساليب بلاغية تدل على قدرة بلاغية وتأليفية في الاختيار والامتزاج من نــص إلى نص آخر ، ومقدمات العقد كانت قد تعاملت مع هذه الأساليب وتمازجــت مــع أساليبها ، وتداخلت معانيها وتشرفت بالتداخل النصوصي .

الإقتباس :_

وقد عرفه ابن حجة الحموي بأنه : ((أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات كتاب الله خاصة ، هذا هو الإجماع)) [1] ثم قسمه – أي الاقتباس – إلى ثلاثــة أقسام : مقبول ومباح ومردود ، ثم فصل كل قسم ، ثم قسمه من حيث التصرف قسمين،

(1) الحموي ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، مصدر سابق ، ص :٢/٤٥٥ .

وذكر أن فريقاً من العلماء توسعوا في معنى الاقتباس حتى شمل الحديث والفقه والنحو والعروض وغير ذلك . هذا في الشعر ، أما في النثر فقد كثر الاقتباس حتى أصبح يشكل أسلوباً لابد منه عند الكتّاب المتأخرين ، ولقد أورد الحموي طائفة من الخطب والمواعظ والرسائل ضمنت من القرآن ، ولا يزال الاقتباس قائماً ، ولا يزال الخطباء يضمنون خطبهم آيات من الذكر الحكيم والأحاديث النبوية .

والاقتباس وسيلة من وسائل تحسين أداء المستوى الكتابي أو الخطابي ، فجمال العبارة وحسن الأسلوب يتأتى من الاقتباسات التي يجريها الكاتب من نصوص القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، وأمثال العرب وحكمهم ، بالإضافة إلى الاقتباس من الشعر ، وفي هذه الحالة يستعين الكاتب أو الخطيب بهذه النصوص ، وينتفع بما فيها من جمال ، ليضفي جمالاً على عباراته فتتسم حينئذ بالبلاغة والرصانة .

وقد اعتبر القدماء الاقتباس مرحلة من مراقي الكتابة ، فكما أن الكاتب ينبغي أن يكون لديه إلمام جيد بعلوم العربية من النحو والصرف وغيرها ، كذلك يجب عليه أيضاً – كما أشار ابن الأثير في كتابه " المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر " – الاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ، فيقول في ذلك : ((فإن ذلك فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم ، ويعرف به مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك ، فإن هذه الأشياء مما تشحذ القريحة وتذكي الفطنة ، وإذا كان صاحب هذه الصنعة عارفاً بها تصير المعاني التي ذُكرت وتُعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه ، يأخذ منه ما أراد ويترك ما أراد ، وأيضاً فإنه إذا كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها قد ينقدح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه ، ومن المعلوم أن خواطر الناس إن كانت متفاوتة في الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عالياً على بعض أو منحطاً عنه إلا بشيء يسير ، وكثيراً ما تتساوى القرائن والأفكار في الإتيان بالمعاني حتى إن بعض الناس قد يأتي بمعنى موضوع بلفظ ، ثم يأتي الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينها من غير علم منه بما جاء به الأول ، وهذا الذي يسميه أرباب هذه الصناعة وقوع الحافر على الحافر .)) [1] إن هذه المقالة التعريفية بصنعة الكتابة كانت مفتاح الوصول

(1) ابن الأثير ،المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، مصدر سابق ، ص : ٤٦/١ .

إلى مراقي الكتابة من خلال عدة مزايا ومنها الاقتباس ، الذي يعد من المعاني التي يتحدث عنها في هذه المقالة، فيقول في الفصل العاشر من كتابه الذي في الطريق إلى تعلم الكتابة عن طريق الاقتباس ((هذا الفصل هو كتر الكتابة ومنبعها ، وما رأيت أحداً تكلم فيه بشيء ، ولما حببت إليّ هذه الفضيلة وبلغني الله منها ما بلغني ، وجدت الطريق ينقسم فيها إلى ثلاث شعب : الأولى ــ أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحذو حذوهم ، وهذه أدنى الطبقات عندي .
الثانية ــ أن يخرج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، إما في تحسين الألفاظ أو في تحسين معان ، وهذه هي الطبقة الوسطى وهي أعلى من التي قبلها .
الثالثة ــ ألا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شيء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدد من دواوين الفحول من الشعراء ممن غلب على شعرهم الإجادة في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة أعني القرآن والأخبار النبوية والأشعار ، فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريقة أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لأحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد ، وصاحبها يعد إماماً في فن الكتابة .)) (1)

فهذا التقسيم ، وتوضيح الطرق للاقتباس ، وتصيد الطريقة الملائمة للكاتب حتى يخلق ويبدع ، ليدل على أهمية الاقتباسات في ترقية القول ، وإبداع المقُول ، ومسايرة سلم الكتابة للارتقاء بها ومنها إلى العليين .

وخلاصة القول أن الاقتباس هو تضمين الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث بنصّه أو مع تغيير طفيف ، دون الاشعار بأن هذا ليس من كلامه (2).

وفي هذا القول دليل على أن الاقتباس يجب أن يضاف في الكلام إضافة ممزوجة مع النص دون إحساس بوجود مفارقة معنوية أو لفظية بين النصين (المقتبس والنص الأصلي

---

(1) السابق نفسه ، ص : ۹۱/۱ .

(2) ينظر : السيوطي ، أحاسن الاقتباس في محاسن الاقتباس ، تحقيق وشرح وتقديم : محمد عبد الرحيم ، دار الأنوار (دمشق بدون ط – ١٤١٦ أو ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) ، ص: ٨ وما بعدها .

المصاحب) ، أو الانتقالية أثناء الانتقال من النص إلى آخر هو في حقيقته مقتبس ، أي أن المشابهة المعنوية والانخراط في سير الجملة لا يصرف النفس إلى الإحساس بوجود نقلة أو فجوة تبعد الذهن ، وتصرف الهم إلى إثبات وجود ضمنية أو اقتباسية نصية لم ينفها النص، ولكن التأليف ساق النفس إلى شيء آخر .

ومن ذلك قوله في كتاب " الزمردة في المواعظ والزهد " : ((فأبلغ المواعظ كلها كلام الله – تعالى- الأعز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .)) [١] كان الاقتباس لآيات من سورة فصلت التي جاء فيها : " وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " [٢] إن بين الآية والموعظة إرتباطًا وتلاحمًا نستشعره حين نقرأ الآية أو نقف عند موعظة منه وذلك لقوة الارتباط النصي في الخطاب النثري وجزالته وتلاحمه .

وفي كتاب "الفريدة الثانية في الطعام والشراب" يقول : ((واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلي المعدة ولا يكظها ، فقد جعل الله لكل شي قدراً .)) [٣]
في معرض حديثه عن الأغذية النافعة للأبدان ، وأزمنتها وحالاتها الضاربة ، يختم بقوله : فقد جعل الله لكل شيء قدراً ، أي أن الأشياء كلها تحت قضاء الله وقدرته ، ومنها صنوف الأغذية والأشربة في كل زمان ومكان ، وهو اقتباس بلفظ القرآن في قوله تعالى:

ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ▯▯▯ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ [٤] أي أن كل شيء له قدر معلوم لا يحيد عنه ولا يتجاوزه. هذه الأمثلة السابقة كان الاقتباس فيها متوسعاً عن لفظ الآية إلى الاقتباس بالآية كاملة ، أو نصف الآية ، وقد مزجها مع النص امتزاجاً متيناً لا يعيب النص ولا يضعفه، بل يزداد بحضور اللفظ القرآني حضوراً وظهوراً . ليس الاقتباس من القرآن مقصورًا على الآية أو اللفظ برسمه وشكله فحسب، بل قد يكون هناك اقتباس للكلمة ومعناها لكن مع تصرف في اللفظة ، وهذا يدل على أن ابن

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ،ص : ١٣٥/٣ .

(٢) الآيتان (٤١ ، ٤٢) من سورة فصلت .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ،مصدر سابق ص : ٣١٣/٦ .

(٤) الآية (٣) من سورة الطلاق .

عبد ربه قد أشرب أسلوب القرآن والسنة إشراباً جعله يتصرف في حدودها مـــن غـــير إخلال لمعناها، وكان أسلوبه في تصرفه صحيحاً فصيحاً في الوقت نفسه .

وفي كتاب "الجمانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيلـــيين" : ((فـــإن أخبارهم حدائق مونقة ورياض زاهرة ، لما فيها من طرفة ونادرة ، فكأنها أنوار مزخرفة أو حلل منشرة دانية القطوف من جاني ثمرها ، قريبة المسافة لمن طلبها .)) [1] هذه القطوف الدانية للطالب مقتبسة من قوله تعالى : ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ □□□□□□□□□□□ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ [2] وقوله تعـــالى : ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ □□□□ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ [3] فهـــذه النوادر قريبة التناول لزائري أخبار هؤلاء القوم من المتلقين الراغبين في الطرفة والنـــدرة ، كدنو هذه القطوف من المرتادين للحدائق والرياض .

التضمـــين : ــ

هو : ((أن يضمن المتكلم كلامه من بيت أو من آية أو معنى مجرداً من كلام أو مثلاً سائرًا أو جملة مفيدة ، أو فقرة من حكمة .)) [4] فالتضمين هو إيداع شيء شيئاً آخر ؛ ليكون متعلق بإدراك القيمة البلاغية المختبئة وراء هذا التضمين .

وسيتعرض البحث للتضمين في النثر من خلال التطبيق على مقدمات العقد الفريد . قال ابن عبد ربه في كتاب " المرجانة الثانية في النساء وصفاهن " : ((والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى كريم عشرها ، ولا تقر العـــين برؤيتـــها .)) [5] فقوله: البلاء موكل بالقرينة ؛ أي أن أصل البلاء راجع إلى قرينة السوء وهذا تضمين

---

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٥١/٦ .

(2) الآية (٢٣) من سورة الحاقة .

(3) الآية (٥٤) من سورة الرحمن .

(٤) ابن الإصبع ، تحرير التحبير ، مصدر سابق ، ص : ١٤٠ .

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٨٦/٦ .

(٦) أبو الفضل النيسابوري ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محي الدين ، دار المعرفة (بيروت ــ بدون ط وتاريخ) ص : ١٧/١

لقول أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ((إن البلاء موكل بالمنطق)) [٦] فالتضـــمين جاء لغرض الاختصاص والتخصيص ، وكان موافقاً لأسلوب الخطاب النثري وطريقته ، ولكنه خالفه في اختصاص ومرجعية هذا البلاء الذي رده إلى قرينة السوء .

وفي كتاب " الفريدة في الطعام والشراب " : ((فإن الرائد لا يكذب أهله)) [١] وفيـــه تضمين قولي ومعنوي لقول العرب : ((لا يكذب الرائد أهله)) [٢] ، وقد أفاد التضمين نفيًا وإثباتًا وفي هذا دلالة على الاعتماد على التضمين في تقرير معنى من المعاني ، وتأكيد ثبوتيتها النافية لما يخالفها .

وفي كتاب " المرجانة في مخاطبة الملوك " يقول : ((وإن منه لما يستعطف المستشـــيط غيظاً)) [٣] وهو تضمين من معنى الاستشاطة عند العرب حين قالوا : ((إن حبلـــك إلى أنشوطة)) [٤] وقولهم : ((كأنما أنشط من عقال)) [٥] وقولهم أيضًا : ((مـــا عقالـــك بأنشوطة)) [٦] ويضرب هذا لمن يتخلص من ورطة فينهض سريعاً .

فالتضمين قد زاد المعنى توضيحاً حين كان الغرض منه توضـــيح الانفكـــاك والانحـــلال والتخلص من غيظ الملك .

وكذلك قوله في كتاب " اللؤلؤة في السلطان " : ((رب ملوم لا ذنب لـــه)) [٧] فقوله تضمين من قول العرب : ((رب ملوم لا ذنب له)) [٨] وهو تضمين لغرض التحلم والتأني والتروي قبل إطلاق الأحكام ، والاتهامات التي لا تقبل العذر ، والاعتذار للمذنب ودعوة إلى إحقاق الحق من النفس أولاً قبل الآخرين .

ويقول في كتاب " المجنبة في الأجوبة " : ((وترك الرأي يغب حتى يختمر ، فقد كرهـــوا الرأي الفطير ، كما كرهوا الجواب الدبري .)) [٩] وهو تضمين لغرض التوضيح بشـــأن هذه الآراء قبل عرضها على الآخرين، وكان تضميناً من قول عامر بن الظرب حكيم

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٣١٣/٦ .

(٢) النيسابوري ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ص : ٢٣٣/٢ .

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٢/ ٩٤ .

(٤) النيسابوري ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ص : ١/ ٦٥ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ١٣٢/٢ .

(٦) السابق نفسه ، ص : ٢٧٨/٢ .

(٧) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١/ ٢١ .
(٨) النيسابوري ، مجمع الأمثال ، مصدر سابق ، ص : ٣٠٥/١ .
(٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص :٥/٤ .

العرب : ((دعوا الرأي يغب حتى يختمر ، وإياكم والرأي الفطير)) [(١)].

وقد كان ابن عبد ربه في تضميناته السابقة يضمن أقوال الحكماء والخلفاء ممن عرفوا بالحكمة ، وحصافة الرأي ، وكأنه قد أشرب هذا الأسلوب إشراباً جعله يقتدي بأسلوبهم في الكتابة ، ويدل على قدرته ومعرفته بالقول الراجح والرأي الحكيم ، وتمثله في الكتابة نوع من الارتقاء بها في الأسلوب الخاص بالخطاب النثري .

ب ــ التناص المضموني الغير مباشر :

قال ابن عبد ربه في مقدمة كتاب " العقد الفريد " ((وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار ، أشرفهاجوهرًا ، وأظهرها رونقًا ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظًا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة .)) [(٢)] فابن عبد ربه يتقصد في تأليفه للكتاب الأخبار والآثار ذات المعنى اللطيف ، واللفظ الجزل ، والديباجة الحسنة ، لكنه لم يحدد مرجعية هذه الأخبار ، واكتفى بإلباسها حلة الرونق والطلاوة والحلاوة بتقديمه لهذه الكلمات في المقدمة ، في حين نجد تحديد مصدرها في كتاب " مناهج التأليف عند العلماء العرب " حيث يقول : ((ذكر أكثر من مؤرخ من مؤرخي ابن عبد ربه أن الصاحب بن عباد سمع عن العقد الفريد ، فما زال يسعى في طلبه حتى حصل على نسخة منه ، وما أن اطلع عليها حتى قال : "هذه بضاعتنا ردت إلينا " ؛ فقد ظن أن الكتاب يشتمل على أخبار الأندلس وأدبها ، فإذا به يشتمل على أخبار المشرق وأدبه .)) [(٣)]

فإن هذا القول إثبات لرواج صيت كتاب العقد الفريد ، وأن مابه من الأخبار لا يصف شيء من بلاد الأندلس ولا يتعرض له ، وإنما هو متصل ببلاد المشرق وعلمها وأدبها ، و لم تغب عن المؤلف هذه المقصدية في تأليفه للمقدمات ، فنجد تلك الأخبار المبثوثة في داخل الكتب ، والموضحة لعناوينها ، متصلة بأهل المشرق اتصالاً سياسياً واجتماعياً وأدبياً لكنه لم يلتزمه في جميع المقدمات ، فهناك مقدمات تستعرض طريقة

---

(١) شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مصدر سابق ، ص : ٦ / ٧٢ .

(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ١٧.
(٣) مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، دار العلم للملايين (بيروت _ ط٩_ ١٤١٦ أو ١٤١٧هـ) ص :٣١٤ .

منهج الكتاب وتناوله فتكتفي به ولا تتطرق إلى شيء من المصادر أو نجد فيها أثـرًا لنصوص أخرى توضح مضمونها ، من ذلك مقدمة كتاب " الجوهرة الثانية في أعـاريض الشعر وعلل القوافي " [١] وكذلك مقدمة كتاب " الجوهرة في الأمثال " [٢] .

وهناك مقدمات كان المؤلف فيها يتناول العنوان تناولاً مفصَّلاً ، فيتعهده بالتوضـيح والشرح ، من ذلك كتاب " الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان " [٣] وكتاب " الجمانة في الوفود " [٤]. ثم في مرحلة ثالثة نجد بعض المقدمات تذكر في حدود بضعة أسطر تعليقاً سريعاً على العنوان ، لذلك لا تزخر بالأخبار والشواهد مـن ذلـك كتاب " الفريدة في الحروب ومدار أمرها " ، [٥] وكتاب " العسجدة الثانية في الخلفـاء وتواريخهم وأيامهم " . [٦] فيما عدا ذلك كانت الأخبار جزء من التقديم ، وبهـا مـن التوضيح والفائدة والمتعة الشيء الكثير .

ولابن عبد ربه وقفتان طويلتان في مقدمتين من المقدمات ، إذ أكثـر فيهمـا مـن الشواهد والأخبار ما لم يكن لغيرهما ، وهما : مقدمة كتاب " الجمانة الثانيـة في المتنبـئين والممرورين البخلاء والطفيليين " [٧] التي ضمنها المؤلف أخبارًا عن المتنبئين متفاوتة في الطول والقصر ، وكانت الشواهد فيها حول ما كان من أمر هؤلاء المتنبئين في أيام المأمون والمهدي في العصر العباسي ، والمقدمة الأخرى هي مقدمة كتـاب" اللؤلـؤة الثانيـة في الفكاهات والملح " [٨] ، وكانت أكثر الشواهد والأخبار في هذه المقدمة تصف الجانـب الديني ونظرته الخاصة إلى الفكاهة والطرفة .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصدر سابق ، ص : ٤١٧/٥.
(٢) السابق نفسه ، ص : ٦٦/٣ .
(٣) السابق نفسه ، ص : ٢٣٢/٦ .
(٤) السابق نفسه ، ص : ٥/٢ .
(٥) السابق نفسه ، ص : ١٢١/١ .
(٦) السابق نفسه ، ص : ٢٣٣/٤ .

(٧) السابق نفسه ، ص : ٦/١٥١ .
(٨) السابق نفسه ، ص : ٦/ ٤٠١ .

وإذا ما وقفنا على الأخبار التي ضمنها ابن عبد ربه مقدماته لوجدناها تختلف في مستوياتها ، وتتنوع في دلالاتها ، فهناك الأخبار السلطانية التي هي أقوال الخلفاء والقواد والتي أصبحت من بعدهم قولاً مأثورًا أو حكمةً يُستشهد بها في المواقف المشابهة لها دون أن يشترط في الاستشهاد بها أن تكون في كتاب يغلب عليه الطابع السياسي ، ومنهم عمر بن الخطاب الذي يقول : ((تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد ....)) [(١)] ، وزياد القائل : ((أيها الناس ، قد كانت بيني وبينكم إحن ...)) [(٢)] ومعاوية الذي يقول : ((والله لأرمينكم بالخطيب المصقع ، قم يازياد .)) [(٣)] ، وهشام بن عبد الملك وخبره الذي يقول فيه : ((قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد له رائحة ....)) [(٤)].

وهناك أيضًا أخبار خاصة بالشعراء منهم أبو نواس وقوله ((حين قيل له : قد بعثوا إلى أبي عبيدة والأصمعي ليجمعوا بينهما . فقال : أما أبو عبيدة فإن خلوه وسفره ...)) [(٥)] وكذلك قول كعب الأحبار : مثل الإسلام والسلطان والناس : مثل الفسطاط والعمود والأوتاد . فالفسطاط الإسلام ، والعمود السلطان....)) [(٦)] وكذلك أخبار وأقوال لرجال الدين من الصحابة والتابعين أمثال مطرِّف بن عبد الله الذي يقول لابنه : ((يابني إن الحسنة بين السيئتين – يريد بين المجاوزة والتقصير– وخير الأمور أوساطها ، و ...)) [(٧)]

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٣/٣١٢ ، وعمر هو : عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي (٤٠ ق هـ – ٢٣) ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص : ٥/٤٥ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ١/٢٢ ، وزياد هو : زياد بن أبيه ، امير ومن الدهاة القادة الفاتحين ، (١–٥٣هـ) اختلفوا في اسم أبيه فقيل : أبو عبيد الثقفي ، وقيل : أبو سفيان ، أسلم في عهد أبي بكر ، ترجمته من : الزركلي، الأعلام ، ص : ٣ /٥٣ .

(٣) السابق نفسه ، ص :٤/٥٨ ، ومعاوية هو : صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي ، (٢٠ ق هـ – ٦٠) مؤسس الدولة الأموية في الشام ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص : ٧/٢٦١.

(٤) السابق نفسه ، ص : ٦/٤٠٢ . وهشام هو : هشام بن عبد الملك بن مروان (٧١–١٢٥هـ) من ملوك الدولة الأموية في الشام ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص :٨/٨٦ .

(٥) السابق نفسه ، ص : ٦/٤٠٤ . ابو نواس هو : الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي ، (١٤٦–١٩٨هـ) ، شاعر العراق في عصره ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص :٢/٢٢٥ .

(٦) السابق نفسه ، ١/٢٣ . وكعب هو : كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري (... – ٣٢هـ) وهو تابعي ، يكني بأبي اسحاق ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص : ٥/٢٢٨ .

(٧) السابق نفسه ، ص :٦/٤٠٢ . ومطرِّف هو :مطرف بن عبد الله بن شخير (...– ٨٧هـ) ، زاهد من كبار التابعين ، لـه كلمات في الحكمة مأثورة ، وأخبار ، ومن الثقات في رواية الحديث ، ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، ص :٧/٢٥٠ .

وعبد الله بن عباس الذي يقول : ((ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ ما انتفعت بكلام كتبه إليّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كتب إليّ : أما بعد : فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ....)) (١)

ويونس بن عبيد القائل : ((لو أمرنا بالجزع لصبرنا .)) (٢)

وابن السماك وقوله إذا فرغ من كلامه : ((ألسن تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخالف .)) (٣) .

فهؤلاء وغيرهم قدموا في مقدمات الكتب التوضيح والإفهام بما تضمنته أخبارهم وأقوالهم من الفائدة المتعلقة بعنوان الكتاب ، وبرزت في ثنايا تلك النصوص التفصيل والتوضيح ، وإن كان ابن عبد ربه قد أفاد من ابن قتيبة فإننا نقف على تلك المشابهة في الأخبار التي وردت لهؤلاء الرجال باعتبارها نماذج توضيحية بين ابن عبد ربه وابن قتيبة .

فالشخصيات التي استشهد بها البحث في الأخبار السلطانية كانوا من أصحاب الأخبار المذكورين في " عيون الأخبار " (٤) لكن لم يرد أي خبر من الأخبار السابقة في

---

(١) السابق نفسه ، ص : ٣/١٣٧ .وعبد الله هو : عبدالله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، (٣ق هـ – ٦٨هـ) حبر الأمة وصحابي جليل ، لازم الرسول ﷺ وروى عنه الأحاديث ،ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، ص : ٤/٩٥ .

(٢) السابق نفسه ، ص : ٣/١٣٦ . ويونس هو :يونس بن عبيد بن دينار العبدي البصري ، (... – ١٣٩ هـ) من حفاظ الحدبث الثقات ، كان من أصحاب الحسن البصري ،ترجمته من : الزركلي ، الأعلام ، مصدر سابق ، ص : ٨/٢٦٢ .

(٣) السابق نفسه ، ص : ٣/١٣٦ . ابن السماك هو : أبو العباس محمد بن صبيح العجلي ، الزاهد القدوة ، سيد الوعاظ ، ترجمته من ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت _ ط٣_ ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م) ص : ٨/٣٢٨ .

(٤) ينظرعلى سبيل المثال لا الحصر : ذكر عمر بن الخطاب ، ص : م١ /٣، ٩ ، ومعاوية ، ص : م٩/١، م٣٠٥/٣، وزيـاد ، ص : م٥/١، ١٠، وهشام بن عبد الملك ، ص : م٣٩/٣، ١٨٦.

الكتاب . وأما بالنسبة للخبرين المتعلقين بالشاعرين فإننا نجد نفس الأخبار في الكتابين مع اختلاف بسيط بينهما من حيث اللفظ . (١) وفيما يتعلق بالأخبار الدينية فإن هناك مشابهة بينهما في خبرين هما مطرِّف بن عبد الله ويونس بن عبيد (٢) ، واختلاف في عدم وجـود الخبرين الخاصين بقولي عبد الله بن عباس وابن السماك عند ابن قتيبة مع أنه ذكر مـن أخبارهم الشيء الكثير . (٣)

فمن خلال النماذج يتبين ماللنصوص والأخبار والشواهد من قدرة على دفع حركـة التأليف ، وبسط هيمنة ثقافية على القالب الفني للكتابة ، وأنه لا يتأتى دائمًا لابن عبد ربه من " عيون الأخبار " وإن كان استفاد منه ونقل عنه بعض الأخبار .

وأخيرًا أنبه على أن هذا الفصل بمباحثه ودلالته يقف وقفة تأملية على مـادة أدبيـة بلاغية ناشئة في مقدمات الكتب ، وفي ذلك دلالة على أحقية المقدمات بالتأليف والبحث ثم القراءة والتأني فيها ، ولها ما للمتن من وظائف لا يضـطلع أي مكـان في الكتـاب بتوضيحها إلا هي ، توضيحاً لا ينسب لها فيه نقص أو إخـلال، فهـي زاد الراكـب ، ومفتاح الباب للدخول إلى الكتاب ، وهي من عتبات الكتاب النصية .

---

(١) ينظر : م١/ ٢ ، و م١٣٠/٢.

(٢) ينظر : م١٣٨/١، وم٢/٢ .

(٣) وردت أخبار لعبد الله بن عباس وابن السماك في عدة مواطن منها : عبد الله بـن العبـاس ، ص :م١٤/١ ، ٣٥ . وابـن السماك ، ص : م٢٦٧/١ ، م٢ /١٣٧، ١٧٥ .

الخـاتمــــة :

ذهب هذا البحث إلى دراسة الخطاب المقدماتي كعتبة نصية لها وظائفها ومبادئها ، ينبغي أن يقوم على ثلاث دعائم أساسية ، تستوي جميعها في تشكيل الإجراءات الوظائفية للخطاب المقدماتي ، وتتساعد جميعها في صنع الفائدة المرجوة من هذا الخطاب ، وهــي :

١_المقدمة ثقلاً وموضعاً:

فعلى الكاتب والمتلقي أن يدركا الثقل التأليفي للمقدمة ، والمناط الموضعي لها ، عن طريق الإدراك المعرفي للمقدرة البيانية في مكاشفة جوانب الكتاب أو النص الأصلي .

٢_ الكاتب تأليفاً وتنصيصاً:

يتحمل الكاتب الجزء التأليفي والتنصيصي للمقدمة ، فعن طريق علمه بما للمقدمة من دور في توضيح بعض الإشكالات التي لابد من توضيحها للمتلقي ، وإدراكه لأهمية ذلك الموضع التواصلي، الذي يقترب فيه من المتلقي لينبهه على أمر ما، أو يعينه على قراءته بشرحه للطريقة القراءية التي رسمها له ، يستطيع أن يخلق في تقديمه جواً تاليفياً خاصاً ، يعينه على بلورة قضاياه بلورةً تستحوذ على اهتمام المتلقين ، وتوقفهم على مفاتيح الأبواب للنصوص الأدبية ، فهو جزء فعال في جذب القطرين الآخرين (المقدمة – المتلقي) تجاذباً منسجماً وفعالية النصوص الموازية و النصوص الأصلية.

٣_ المتلقي قراءةً وتمحيصاً :

إنه العنصر التواصلي الذي يستجيب لمكامن الفائدة ، وبواطن المعرفة ، إذ هو طرف حواري لقالب حواري صامت بينه وبين الكاتب ، يقرأ ماعنده ويرد عليه بقراءته التمحيصية لسطورها تمحيصاً مقنناً، مستعيناً بالوظائف الإجرائية للمقدمات النثرية .

إنها ثلاثة أبعاد متوازية لها إسهاماتها البيانية التي ترتقي بـــ "عتبة المقدمة" ، ثم إنه ارتقاء يساعد على تجسيد مصطلح " براعة المقدمات "، وذلك بما لدى المقدمة البارعة من

مزايا وسمات فنية تجذب المتلقي وتستولي على اهتمامه ، وهو مصطلح يضاهي مصطلح "براعة الاستهلال " الذي كان لسماته ومزاياه الفنية ماسجله النقد و النقاد .

وإن لمصطلح " العتبات النصية " دوراً في مكاشفة النصوص الأدبية في النقد الأدبي الحديث ، إذ إنه كثيراً ما وظف في دراسة الرواية الأدبية ، فأراد البحث أن يزيد على هذا بما للعتبات من أصداء أصوات قادمة من الأدب القديم ، الذي يعتد بوجودها في تأليفه للكتب والخطب والرسائل اعتداداً لأهميتها الوظيفية والشكلية ، والانتقاص من التأليفات التي اختصرت شيئاً منها طلباً للاستخفاف و الاختصار ، فالنقد الأدبي القديم كان ينظر إلى العتبات على أساس أنها مسلمات تأليفية ، لا غنى للتأليف عنها ، ولها من الأهمية والمكانة والفائدة ما لا يتغاضى عنه الكاتب والمتلقي ، من أجل ذلك كانت النظرة النقدية القديمة تنظر من أحداق الأهمية التأليفية ، وتسكت عن التأليف النقدي الإصطلاحي لمصطلح نقدي (في العتبات) يوثق القول ويؤكده.

إن دراسة " مقدمات العقد الفريد " كعتبة من العتبات التي لها وظائفها البيانية، يرصد ملامح تلك الأهمية التأليفية ، ويقف على وظائفها المسكوت عنها في النقد الأدبي القديم ، ويدعو إلى ضرورة التوظيف والتطبيق على الفنون النثرية الأخرى ، لتبتعد عن ذلك المنعطف الضيق الذي جعل من الرواية الأدبية مثالاً أوحداً ، وأنموذجاً منفرداً في دراسته التطبيقية للعنونة والمقدمة والإهداء وغيرها مما يدور في فضاء التأليف الكتابي من الفلك الخارجي للنص الأصلي .

لقد ساعدت المقدمات النثرية في كتاب "العقد الفريد" في توضيح تلك الرؤى والأفكار، وملامسة طريقة الحياة المعيشية ، من خلال تلميحاتها الصريحة، و رغباتها الواضحة، وتطلعاتها الآملة ،كل ذلك في قالب مضموني يربط بعبارات سطوره مابين الواقع المعاش في الأندلس والعصر الحاضر، إذ ينقل متلقيه نقلة بعيدةً إلى الوراء ،حيث بلاد الأندلس وحاجاتها الأدبية والسياسية والاجتماعية، فمن تلك الحاجات كانت المضامين ، وفي مضامين المقدمات كانت حاجات العناوين ورغباتها ومتطلباتها .

كانت المضامين التي نادت بها مقدمات العقد الفريد مما يلجأ إليه المجتمع كضرورة نفسية أو اجتماعية أو أدبية أو سياسية ، فيتعهدها الأندلسي بالتصويب أو التهذيب أو

التوضيح ، وهي : المضامين الأدبية والنقدية المتمثلة في المنثور من الخطب ، والأمثال ، والمواعظ ، والرسائل ، والتعازي والمراثي ، وحسن التنصل ، والمنظوم من الشعر ، والبيان من البلاغة وبيان العبارة ، وأدب الجدل ، و النقد الأدبي من اللفظ والمعنى ، والحـــكم النقدي .

المضامين السياسية : و ينطوي تحتها السلطان وما يتصل به من المهام والوظائف ، والبلاط السلطاني ، والأوضاع السياسية في الخارج والداخل ، والأدوات الحربية المستخدمة .

المضامين الاجتماعية : وتتبدى بها ملامح الحياة الاجتماعية الأندلسية ، ابتداء من العناصر المجتمعية المكونة للمجتمع ، والديانة والعلم والعادات والتقاليد وانتهاء بالطبيعة البيئية .

فمضامين المقدمات كانت بمثابة العدسة التي تقرّب النظرة إلى المجتمع الأندلسي ، بما حوته في سطورها من الأخبار والقصص ، التي أوقفها الأندلسي في مقدماته ، حتى تكون ذات فائدة جليلة ، لها دلالاتها على العنوان ، وتضيف له شواهد توضيحية لا تتكرر في متون الكتب ، مما يدل على الأهمية التأليفية التي تنفرد بها المقدمات من التوضيح والتفصيل ، لتكون قريبة التناول لقاصدها ، و يستفيد منها في الدخول إلى النص ، فالمقدمات هي نصوص مصاحبة وموازية للنص ، تضيف معنى ، وتبث فكرة ، وتعرض خطة ، فإذا ما تجاهلها المتلقي فقد أهدر وقته وجهده ، وباعد بين إدراكه وإدراك المؤلف للهدف الذي من أجله كانت المادة التأليفية على هذا النهج ، أو هذا الترتيب ، أو ما الجديد الفارق عن القديم ، أو التهذيب والتصويب لسلوك ما .

إن البناء التركيبي للمقدمات ينقسم إلى مقدمة ــ عرض ــ خاتمة ، ولكلٍ وظائف وسمات ينفرد بها في قالب ٍ فني خاص ، وتوصلت الدراسة إلى أن الوظائف المقدماتية التي ميزت كل عضو من أعضاء المقدمات في العقد الفريد هي :

المقـــدمة :

١- الابتداء الاستهلالي المعتمد على إطالة التحميدات ، وهو استهلال منفرد بمقدمة الكتاب وهي المقدمة الأم .

٢- الوظيفة الصدقية :التي تقرر صدق حقيقة الكاتب الشخصية، والقلمية السياقية في العنوان والعرض .

٣- الوظيفة القصدية : إذ يصرح عن مقصديته التأليفية من وراء التأليف في هذا العنوان أو ذاك.

٤- وظيفة التعليق على العنوان : فيذكر تعليقاً سريعاً على العنوان ، يكشف به عن أهميته ومكانته .

العـــــرض :

١- الوحدة الموضوعية: إذ الشواهد والأخبار والقصص وغيرها تدل سياقاتها على أهمية العنوان المعنونة له ، وتبرز أهميته من عدة نواحي ، تبتعد به ابتعاداً دينياً أو سياسياً أو تاريخياً أو أدبياً .

٢- المحور المرادي : يتحمل العرض دلالة من دلالات العنوان ، فيتعهدها بالدراسة والعرض لكونها المراد منه ، ولا يتجاوزها إلى غيرها حتى ينصرف عنها من الخاتمة .

٣- الأهميـــة : تتميز مقدمات العقد الفريد بكثرة الأهميات الآخذة للعنوان ، المتناولة له من عدة أبعاد فإذا ما وقف المتلقي على الآيات والأدلة تبين ما للعنوان من هدف ديني ، وإذا وقف على الأبيات الشعرية تبين مافي العنوان من الأهمية الأدبية .

٤- العرض المنهجي في بعض مقدمات الكتب : إذ يعرض النقاط الرئيسية التي سيفصل النص الأصلي القول فيها ، وهي طريقة سريعة للمتلقي الذي يصل إلى مراده بدون عنـــاء أو جهد.

٥- العرض التعليمي: إذ يتناول الموضوع تناولاً تعليمياً بفروعه وأقسامه ، ويبين أفضل الفروع والأقسام مستشهداً على قوله بالشواهد المعاضدة .

٦- الجديد والقديم : إذ يسعى الاستهلال إلى الإبانة عن أسباب الطرق العنواني لموضوع قديم ثم ما الجديد الذي يهدف إلى إبرازه من هذا التطرق .

الخـــــاتمة :

١- التنويع : من المميزات التي تميزت بها المقدمات التنويع في الخواتيم بين الأحاديث والشعر والأخبار والحكم .

٢- العنـــاية والتحسين:وهي العناية بالمتلقي عنايةً تفضي إلى الاهتمام بآخر مايقع جرسه على الآذان، وسبيله أن يكون محكماً لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن منه .

٣- الدلالة المضمونية : تعقد الدلالة المضمونية للخاتمة علاقة قوية بين العنوان والغرض الذي من أجله ألف الكتاب ، فتظهر الفائدة قوية جليلة في هذا الموضع أكثر من غيرها ، وهي الفائدة التي يحسن السكوت عليها .

سمات البناء المقدماتي العـــامة :

يخضع البناء التركيبي للمقدمات لوظائف إجرائية من شأنها الإبانة والمكاشفة عن غموض يعتري الكتاب ، ويحول دون تناوله التناول المطلوب وهي :

١- المعيارية الطولية: إن من أهم ما يميز مقدمات العقد الفريد التناسب الطولي بين العنوان المعنون والتوضيح ، فتطول المقدمة وتقصر تبعاً للحاجة إلى التوضيح المفصل ، والبيان الاستدلالي .

٢- الترابط : مقدمات الكتاب مترابطة فيما بينها ، فكل مقدمة تذكّر بما قبلها ، وترتبط بها ارتباطاً فكرياً ، فتبدو متناسقة التركيب ، منسجمة التأليف .

٣- الوحـــدة : وهي الوحدة الشكلية التي ضمت أجزاءه وأعضاءه في قالب فني يؤلفها جميعها فلا تبدو إلا متماسكة غير مفككة ، ومترابطة غير متنافرة .

٤- التلاحم : فالمقدمات متلاحمة تلاحماً خاصاً فيما بينها، ثم في تلاحمها مع نواظرها من "العتبات النصية" كعنوان الكتاب الرئيسي، والعناوين الفرعية ، ويتردد أصداء العناوين في

أول الكتاب وفي مقدمته وفي المقدمة اللاحقة عليه ، مما يدل على وجود علائق تأليفية فيما بين العتبات .

٥- حسن التخـــلص وهو: ((أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه ، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض .)) [١]

٦- الايـــجاز : إنها سمة أدبية ، اتسمت بها المقدمات ، ونبهت عليها في ثنايا كتبها، وتقلدتها في تأليفها وبسطها وتحليلها .

٧- الأدبـــية : لقد كان التأليف الموضوعي للمقدمات مقنناً بتقنين أدبي ، تحركه اللغة الخطابية الراقية المعتمدة على اللفظ الجزل والمعنى الرصين، وتدفعه صدق العاطفة الرقيقة، المستميلة للقلوب والأسماع والنفوس، وقدرتها على الإبانة بتلك الأساليب البيانية ، القريبة المنال ، والبسيطة الخيال ، فلا غموض ولا تعقيد ، ولا تكلف في تأليف عباراتها بتراكيب السجـــع والطباق والجناس ، ومجاراة أسلوبها أسلوب القرآن والحديث والأدب والمثل اقتباساً وتضميناً .

(١) ابن الأثير ، المثل السائر ، مصدر سابق ، ص :٢/ ٢٤٤ .

المراجـع و المـصــادر و الدوريات :-

أولاً : المصـادر :-

- القرآن الكريم .
- ابن أبي الإصبع ، تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم : حفني محمد شرف ، لجنة إحياء التراث الإسلامي (القاهرة ، بدون ط ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٢أو ١٩٦٣ م) .
- ابن الأثير ، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية (بيروت ، بدون ط ، ١٤١١ى هـ / ١٩٩٠م) .
- ابن الأثير ، نصر الله بن محمد الجزري ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق : مصطفى جواد وجميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد بدون ط ، ١٣٧٥هـ /١٩٥٦م) .
- الأبشيهي ، شهاب الدين أحمد بن منصور ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٦م) .
- الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد ، تهذيب اللغة ، تحقيق : أحمد مخيمر، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م) .
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، الأغاني ، تحقيق : سمير جابر ، دار الفكر (بيروت ، ط٢ ، بدون تاريخ) .
- الآمدي ، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى ، الموازنة بين أبي تمام والبحتري ، تحقيق : السيد صقر ، دار المعارف (القاهرة ، ط٢ ،١٩٧٢ م) .
- امرؤ القيس ، ديوان امرؤ القيس ، ضبطه وصححه : مصطفى عبد الشافي ، دار

الكتب العلمية (بيروت ، ط ٥ ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) .

- البخاري ، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل ، صحيح البخاري ، الدار العربية (بيروت بدون ط وتاريخ) .
- البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق : محمد نبيل طريفي ، أميل اليعقوب ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) .
- ابن تغري بردي ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي ، النجوم الزاهرة في سلوك مصر والقاهرة ، قدّم له : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية (بيروت ، بدون ط ، ١٤١٣هـ /١٩٩٢ م) .
- التفتازاني ، سعد الدين ، المطول – شرح تلخيص المفتاح – ، صححه وعلق عليه : أحمد عناية ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م) .
- التلمساني ، أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر (بيروت ، ١٣٨٨هـ /١٩٦٨ م) .
- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري ، فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق: فائز محمد إميل يعقوب ، دار الكتاب العربي (بيروت ، ط٤ ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٨ م) .

  يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، شرح وتحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣ هـ /١٩٨٣ م) .
- ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، صفوة الصفوة ، تحقيق : محمود فاخوري ، محمد رواس قلعة جي ، دار المعرفة (بيروت ، ط١ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق : درويش جويدي ، المكتبة العصرية (بيروت ، بدون ط ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م) .

  الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الجيل (بيروت ، بدون ط ،

١٤١٦هـ/ ١٩٩٦ م) .

- الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ، أسرار البلاغة ، تعليق : محمود شاكر ، دار المدني ، (جدة ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م) .

ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف (القاهرة ، ط٤ ، بدون تاريخ) .

دلائل الإعجاز ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، مكتبة المعارف (الرياض ، ط٥ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م) .

- الحموي ، أبوبكر تقي الدين علي بن عبد الله ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال ، (بيروت ، ط١ ، ١٩٤١ م) .
- الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء ، دار الفكر (بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) .
- الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن الأزدي ، جذوة المقتبس ، في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية ، (مصر ، بدون ط ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) .
- ابن خاقان ، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، دراسة وتحقيق : محمد علي شوابكة ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، ط١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة ابن خلدون ، دار القلم ، (بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١ م) .
- ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين بن أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر (بيروت ، بدون ط ، ١٩٠٠م) .
- الدارمي ، أبو محمد عبد الله بن محمد ، سنن الدارمي ، تحقيق : فواز أحمد زمزمي ، خالد السبع ، دار الكتاب العربي ، (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧ هـ) .
- الذهبي ، شمس الدين بن محمد بن أحمد بن عثمان ، سير أعلام النبلاء ، أشرف على تحقيقه : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، بدون ط ،

١٤٠٢هـ /١٩٨٢ م) .

- ابن رشيق ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد بن محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، (بيروت ، ط ١٥ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م) .
- الرازي ، محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح ، مكتبة لبنان (بيروت ، بدون ط ، ١٩٨٩م) .
- الزركلي ، خير الدين بن محمود بن علي الدمشقي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، ط ١٥ ، ٢٠٠٢ م) .
- الزمخشري ، أبو القاسم محمود الخوارزمي ، الكشاف عن حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق : عبد الرازق المهدي ، دار إحياء التراث العربية (بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م) .
- ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن اسماعيل ، المخصص ، تحقيق : خليل إبراهيم جفال ، دار إحياء التراث العربي ، (بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) .

المحكم والمحيط الأعظم ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية (بيروت، ط١ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) .

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، أحاسن الاقتباس في محاسن الاقتباس ، تحقيق : محمد عبد الحليم ، دار الأنوار ، (دمشق ، بدون ط ، ١٤١٦ أو ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م) .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى الحلبي وشركاؤه (حلب ، ط١ ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) .

المزهر في علوم اللغة وأنواعه ، تحقيق : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ م) .

- الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكتاب العربي (بيروت ، بدون ط ، ١٩٦٧م) .
- ابن طباطبا ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، عيار الشعر ، تحقيق : عباس عبد الستار ، مراجعة : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط٢ ،

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ م) .
- الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠ م) .
- طرفة بن العبد ، أبو عمر طرفة بن العبد بن سفيان ، ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق : محمد حمود ، دار الكتاب العربي (بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م) .
- ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق : أحمد أمين ، إبراهيم الأبياري ، عبد السلام هارون ، قدم له : عمر بن عبد السلام تدميري ، دار الكتاب العربي (بدون ط ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م) .

ديوان ابن عبد ربه ، تحقيق : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، ط١، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩ م) .
- ابن العماد ، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة (بيروت ، بدون ط وتاريخ) .
- العسكري ، أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، الصناعتين ، تحقيق : مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م) .
- عنترة بن شداد ، ديوان عنترة ، تعليق : الخطيب التبريزي ، قدم له : مجيد طراد ، دار الكتاب العربي (بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م) .
- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الفكر (بيروت ، بدون ط ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٩٧ م) .
- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ، العين ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م) .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ، الشعر الشعراء ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الحديث (القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦ م) .

عيون الأخبار ، تحقيق : لجنة من دار الكتب المصرية (القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٦م) .

- ابن الفرضي ، ابو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي ، تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب اللبناني (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) .
- قدامة بن جعفر ، أبو الفرج ، نقد النثر ، تحقيق : طه حسين بك ، عبد الحميد العبادي ، المطبعة الأميرية بولاق (القاهرة ، ط١ ، ١٩٤١ م) .
- قرطاجنى ، أبو الحسن حازم بن محمد الأنصاري ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الكتب الشرقية (تونس ، ط٢، ١٩٦٤م).
- القزويني ، أبو عبد الله جلال الدين بن الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) .
- القلقشندي ، أحمد بن على ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، تحقيق : يوسف على طويل ، دار الفكر (دمشق ، ط١ ، ١٩٨٧ م) .
- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، البداية والنهاية ، تحقيق : مصطفى بن القدوي ، دار ابن رجب (مصر ، ط١ ، ١٩٩٦ م) .

  تفسير ابن كثير ، دار الفكر (بيروت ، بدون ط ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م) .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي ، مراجعة وتصحيح لجنة من الأساتذة المتخصصين ، دار الحديث (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣ م) .
- أبو موسى ، محمد ، دراسة في البلاغة والشعر ، مكتبة وهبة (القاهرة ، ط١ ، ١٤١١هـ) .
- النسائي ، أحمد بن شعيب ، سنن النسائي الكبرى ، تحقيق : عبد الغفار البنداري ، سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).
- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق: مفيد قميحة وجماعة ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م) .

- النيسابوري ، محمد بن عبد الله الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، دار الكتب العلمية (بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠ م) .

ثانيـًا : المراجـع :-

- أشبهون ، عبد المالك ، عتبات الكتابة في الرواية العربية ، دار الحوار (سوريا ، ط١، ٢٠٠٩ م) .
- أمين ، أحمد ، الأخلاق ، دار الكتب العصرية (القاهرة ، ط٣ ، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م) .
- بروكلمان ، كارل ، تاريخ الأدب العربي ، تحقيق : عبد الحليم النجار ، جامعة الدول العربية (القاهرة ، ط٣ ، ١٣٩٤هـ / ١٣٩٥ م) .
- بلعابد ، عبد الحق ، عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص ، تقديم : سعيد يقطين ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف (الجزائر ، ط١ ، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م) .
- البطل ، علي ، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري – دراسة في أصولها وتطورها – دار الأندلس (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م) .
- حبيب ، رفيق ، إحياء التقاليد العربية ، دار الشروق (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣ م) .
- الحجمري ، عبد الفتاح ، عتبات النص في البنية والدلالة ، منشورات الرابطة (الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٩٦ م) .
- حليفي ، شعيب ، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل ، دار الثقافة (الدار البيضاء ، بدون ط ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٥ م) .
- خطابي ، محمد ، لسانيات النص (مدخل إلى انسجام النص) ، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء ، ط٢ ، ٢٠٠٦ م) .

- الخطيب ، عماد علي ، الصورة الفنية أسطوريًا ، دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي ، تقديم : عبد القادر الراعي ، جهينة (الأردن ، ط١ ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦ م) .
- زيدان ، جرجي ، رواية فتاة القيروان ، تقديم : محمد حسن عبد الله ، دار الهلال (مصر ، بدون ط ، ١٩٨٤ م) .
- سباعي ، يوسف ، رواية بين الأطلال ، دار مصر (القاهرة ، بدون ط وتاريخ) .
- السيوفي ، مصطفى ، فن المقال في تأصيل القدامى وتجديد المعاصرين ، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية (القاهرة ، ط١ ، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠ م) .

ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري ، عالم الكتب (بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م) .
- شوقي ، أحمد ، مصرع كليو باترا ، دار الكتب المصرية (القاهرة ، بدون ط ، ١٩٤٦م) .
- صقر ، السيد أحمد ، شرح ديوان علقمة الفحل ، مطبعة المحمودية (القاهرة ، ط١ ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٥م) .
- ضيف ، أحمد ، بلاغة العرب في الأندلس ، دار المعارف (تونس ، ط٢ ، ١٩٩٨ م) .
- ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات - الأندلس — دار المعارف (القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٩ م) .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف (القاهرة ، ط٢ ، بدون تاريخ) .
- عباس ، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي — عصر سيادة قرطبة — دار الثقافة ، (بيروت ، ط١ ، ١٩٦٠ م) .
- عتيق ، عبد العزيز ، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية (بيروت ، ط٢، ١٩٧٦ م) .
- عصفور ، جابر ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار الثقافة (القاهرة ، بدون ط ، ١٣٩٤ أو ١٣٩٥هـ / ١٩٧٤ م) .

- عوين ، أحمد محمد ، دراسات في السرد الحديث والمعاصر ، دار الوفاء (القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م) .
- الغيطاني ، جمال ، رواية وقائع الزعفراني ، مكتبة مدبولي (مصر ، ط٢ ، ١٩٨٥م).
- فرج ، حسام أحمد ، نظرية علم النص ، رؤية في بناء النص النثري ، تقديم : سليمان العطار ، محمود فهمي حجازي ، مكتبة الآداب (القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧ م) .
- فروخ ، عمر ، تاريخ الأدب العربي ، الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر ملوك الطوائف ، دار العلم للملايين (بيـــروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م) .
- الفقي ، صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية – دار قباء (القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) .
- قصاب ، وليد ، مناهج النقد الأدبي الحديث ، رؤية إسلامية ، دار الفكر (دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٧ م) .
- كيلاني ، كامل ، قصص شكسبير ، - الملك لير – دار المعارف (مصر ، ط١٢ ، بدون تاريخ) .
- لويس ، ميسي ، دي ، الصورة الشعرية ، ترجمة : أحمد نصيف الجنابي ، مالك ميري ، سليمان حسن إبراهيم ، مراجعة : عناد إسماعيل ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق (بغداد ، ط١ ، ١٩٨٢ م) .
- منصر ، نبيل ، الخطاب الموازي للقصيدة العربية ، دار توبقال (الدار البيضاء ، ط١، ١٩٨٧ م) .
- ميتة ، حنا ، رواية المصابيح الزرق ، تقديم : شوقي بغدادي ، دار الآداب (بيروت ط٦ ، ١٩٨٩ م) .
- الهاشمي ، السيد أحمد ، جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب ، مطبعة

السعادة (مصر ، ط٦ ، ١٣٨٥ هـــ) .

- هلال ، محمد غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ، نهضة مصر (القاهرة ، بدون ط وتاريخ) .
- هيكل ، أحمد حسين ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف، (مصر ، ط٧ ، ١٩٩٣ م) .
- الهندي ، علاء الدين علي بن حسام ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تحقيق: بكري حياني ، صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة (بيروت ، ط٥ ، ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١ م) .

ثالـــثًا : الـــدوريـــات :

- بلعابد ، عبد الحق ، مقالة : " قصد رفع قلق المصطلح النقدي " ، مجلة علامات في النقد ، (مجلد ٥٨ ، م ١٥ ، ذوالقعدة ١٤٢٦ هـــ / ديسمبر ٢٠٠٥ م) ، الصادر عن نادي جدة بالمملكة العربية السعودية) .
- محجز ، عطية خضر ، محمد درويش في خطبة الهندي الأحمر " التناص – القناع – اللعب " مجلة الجامعة الإسلامية ، سلسلة الدراسات الإنسانية ، (غزة ، العدد : ١٧، يونيو ٢٠٠٩ م) .
- ناصف ، مصطفى ، محاورات من النثر العربي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون (الكويت ، العدد : ٢١٨ ، ١٩٧٨ م) .

الفهــــرس :